

جيمس تريفييل

لماذا العلم؟

طريق
الأفكار الكبرى
إلى المعارف
الأولية العلمية



ترجمة: شوقي جلال



جيمس تريفييل

لماذا العلم؟

طريق
الأفكار الكبرى
إلى المعارف
الأولية العلمية



ترجمة: شوقي جلال



لماذا العلم؟

جيمس تريفييل

- ♦ المؤلف: جيمس تريفييل
- ♦ العنوان: لماذا العلم؟
- ♦ ترجمة: شوقي جلال
- ♦ طبعة أفاق الأولى 2024
- ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٢٣ / ١٦٢٤٥

الترقيم الدولي: ISBN

978-977-765-395-4

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO - EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail: afaqbooks@yahoo.com - www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ١١١١٦٠٢٧٨٧

جيمس تريفييل

لماذا العلم؟

طريق الأفكار الكبرى
إلى المعارف الأولية العلمية

ترجمة

شوقي جلال

آفاق للنشر والتوزيع

هذه ترجمة كتاب:

Why Science?

By: James Trefil

First published by Teachers College Press, Teachers College, Columbia
University, New York, New York USA.

All Rights Reserved

جميع الحقوق محفوظة

© آفاق للنشر والتوزيع

All rights reserved

© Afaq Publishing House 2023

مقدمة المترجم

ثقافة الموقف تخوض غمار لبحر الحياة الصاخب الدافق، تتجدد وتتغير، وتبني وتتحدى وتستجيب، ...
«تأسيسًا على الفهم والوعي والعقل الحر الناقد الفعال، إنها إبداع الحياة وصناعة التاريخ

المترجم

غربة العلم والمستقبل في حياتنا

لأي هدف نجد في حياتنا؟ هل نتحلى بجرأة العودة بفكر منهجي عملي إلى الذات والمراجعة النقدية للدور والفعل والفكر -إن وجدت- في التاريخ وفي الواقع الحالي استشرافًا لمستقبل ما؟ ما المؤشرات في حياتنا ذات الصدقية التي تؤكد، أو تشير من بعيد، إلى أننا نستوعب روح العصر، وهو العلم، وأنا على الطريق نحو مستقبل مرسوم بإرادتنا؟ ما الفكر وما الفعل الاجتماعيان اللذان يكفلان لنا المنافسة والتحدي في الماراتون الحضاري، خصوصًا بعد أن تكثف الزمان والمكان عالميًا بحكم ثورة الاتصالات، وأصبح العالم كله يسابق ويصارع بروح العلم والتكنولوجيا والعقل العلمي في ساحة محدودة ومكشوفة توصف بالقرية، بعد أن كانت -حتى بضعة عقود- عالمًا فسيحًا غير متناهي الأبعاد، يضم شعوبًا لا يعرف بعضها عن بعض كثيرًا أو قليلًا؟

إنني، عند النظر إلى المجتمعات، أميز بين حالين: الوجود والبقاء. الوجود مشروع إرادي قائم على الفكر والفعل الاجتماعيين معًا، تأسيسًا على أعلى مستوى لإنجازات حضارة العصر. والبقاء هو حياة الاطراد العشوائي، اطراد عاطل من فعل الإبداع والتجديد، امتداد متجانس في المكان بغير زمان، حيث لا تغيير.

ولهذا قلت فيما سبق (*): المجتمعات، أو لنقل الثقافات الاجتماعية، صنفان، والتصنيف ليس قدرًا أبدئيًا، وإنما السيادة والغلبة لهذا أو ذاك رهن شروط وجودية للنهوض أو الانحسار. أقول صنفين، هما: ثقافة الوضع، وثقافة الموقف. ثقافة الوضع قانعة بحالها، راضية برصيدها التاريخي الموروث، والمعرفة عندها، أو قل العلم الأسمى، لا يتجاوز حدود تأمل هذا الرصيد وأقوال الأولين، والأمل عود على بدء، ومن ثم عزوف عن الإبداع والتجديد. والزمان امتداد متجانس، فارغ من الأحداث، إلا الحدث الأول والأهم فهو بداية التاريخ وغايته.

شوقي جلال، الترجمة في العالم العربي: الواقع والتحدي- ط 2، المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة 2004.)

وثقافة الموقف إرادة واختيار، والإرادة فعل، والاختيار وعي عقلائي وعزم على التغيير والتجديد، وفهم لمجريات الأحداث والظواهر، وتراكم متجدد متطور لرصيد المعلومات والمعارف، ومن ثم تطور وارتقاء مطرد للهوية الثقافية التي هي عين الفعل الاجتماعي النشط في الزمان، وليس السكون والبحث عن هوية مجهولة في غيابات التاريخ.

ثقافة الوضع تقف على قارعة طريق الحياة، تتأملها تجليات لإرادة من خارجها، وثقافة الموقف تخوض غمار لجج نهر الحياة الصاخب الدافق، تتجدد وتتغير، وتبني وتتحدى وتستجيب، تأسيساً على الفهم والوعي والعقل الحر الناقد الفعّال، إنها إبداع الحياة وصناعة التاريخ.

والآن، وقد أصبح العلم والتكنولوجيا -بعد أن بلغا مرحلياً ذروة تاريخية فاصلة- أداة صناعة الوجود وبناء المستقبل، وموضوع الصراع والمنافسة والتعاون في آن بين شعوب العالم؛ وأصبحت كذلك محور المراجعة الذاتية لمن شاء الحفاظ على موضع الصدارة أو اكتساب القدرة على اللحاق في المراثون الحضاري، وتأسيس حياة إنسانية كريمة للشعوب تمثل دعامة ومضمون الانتماء... ومن هنا، آثرنا تقديم هذا الكتاب لنرى أنفسنا، بعقل نقدي، في مرآة الآخر.

* * *

ولكن لماذا العلم؟ لماذا الفهم المعرفي العلمي؟ ولماذا الإنجاز البحثي العلمي ضرورة حياة؟ ولماذا الثقافة العلمية كثقافة عامة؟ لماذا محو الأمية العلمية؟ وهذا هو ما نراه السؤال الأكثر إلحاحاً ودلالة في مجتمعاتٍ عجزت عن أن تمحو بالكامل الأمية الأبجدية لشعوبها، فضلاً عن ضرورة محو الأمية العلمية والأمية الحاسوبية أو الرقمية.

ليس العلم مجرد اكتساب معلومات علمية أو حيازة ذهنية لمعلومات وحيازة مادية لتكنولوجيا، ولكن العلم الذي يمثل الآن روح العصر، هو منهج في فهم ودراسة الواقع اعتماداً على العقل الناقد بهدف التدخل التجريبي للتغيير. والعلم هنا أبنية معرفية نسقية، العلم ظاهرة اجتماعية ثقافية، وذلك باعتباره نسقاً معرفياً متحدداً مع بنية المجتمع وأنشطته. إنه ليس معارف متفرقة، بل منهج موظف في خدمة بنية المجتمع يعمل على تماسكها واطراد تقدمها، ومواجهة تحدياتها ورسم معالم مستقبلها. ولهذا هو مؤسسة اجتماعية وعنصر حضاري؛ أي ركيزة البناء الحضاري.

وروح العصر هي المعرفة العلمية النسقية التي هي نمط خاص من علاقة الوجود الإنساني بالطبيعة وبالنفس وبالمجتمع، علاقة النظر والنظرية، صيغة قوانين وقواعد تكشف عن اطراد الظاهرة وتحولاتها، والإجابة عن السبب والكيف والقدرة على التنبؤ والإفادة العلمية بذلك في الحياة الاجتماعية. والتفكير العلمي المنهجي، أو ثقافة العلم، هي ثقافة نهمة إلى المعرفة أو مغامرة المعرفة. التفكير العلمي مدفوع بقوته الذاتية وبإنجازاته إلى المزيد. إنه نقيض ثقافة الاكتفاء الذاتي أو ثقافة الحقيقة المطلقة التي تقتل الفضول المعرفي وتعتمد التفكير الاختزالي برّد الظواهر إلى علل خارجها، ومن ثم يستحيل على المرء والمجتمع التحكم في شؤون حياته. وثقافة العلم هي ثقافة التغيير، تغيير العالم عن وعي وإرادة، وليس مجرد فهمه أو تأمله أو فك طلاسمه أو النظر إلى الظواهر باعتبارها إعجازاً. لذلك هي ثقافة قوة الإنسان وتمكينه والثقة بالنفس، والقدرة على البحث والابتكار والتحدي والتغيير ورسم المستقبل. وثقافة العلم هي ثقافة الإيمان بقيمة الإنسانية، وبناء الإنسان، لذا هي ثقافة الديمقراطية.

والعلم أداة تحقيق الذات عن وعي ثقافياً واقتصادياً وسياسياً، وأداة الدفاع عن النفس وكفالة الأمن والانتصار في صراع الوجود... هو أدواتنا للتعبير عن الهوية وتأكيد أصالتها بعيداً عن تهويمات أيديولوجية، لأن الهوية في جوهرها فعل الذات الواعية، فعل إنجاز الـ«نحن» المجتمعية في الاستجابة للتحديات بلغة حضارة العصر وقدراته، وبذا تدعّم الانتماء وترسّخ عوامل تلاحم بنية المجتمع.

السؤال الأبدي الذي نكرره، أجيالاً وراء أجيال: لماذا تخلفنا وتقدم غيرنا؟ والإجابة يسيرة. السبب غربة العلم في حياتنا وغربة المستقبل أو غيابه عن إرادتنا.

نعاني أعراضاً مزمنة هي بيت الداء حضارياً. نجلها فيما يلي:

غياب قيمة مغامرة المعرفة واكتشاف المجهول وحرية السؤال والبحث وحق الاختلاف، وأن •
التنوع إثراء للفكر وازدهار حضاري... وهي قيمة يجري غرسها من خلال التنشئة الاجتماعية والتنشئة التعليمية في المدرسة لتصنع مناخاً عاماً

غياب سياسة علم وتعليم تحقّق للمجتمع، بفضل ومن خلال مواطنيه، أهلية الاندماج •
والتكامل مع الشبكة العالمية للإنجاز العلمي والتكنولوجي وامتلاك قدرة تحقيق المصير والأمن القومي وإرادة الفعل.

هجرة الباحثين العلميين إلى الخارج، حيث يجدون ذواتهم في الفرص المتاحة للتعبير عن قدراتهم واستثمارها بدلاً من حياة الغربة في الوطن.

غياب الحداثة كروية وهدف مرسوم، ومن ثم غياب آليات التحديث في كل أنشطة المجتمع، وغياب الإيمان بأن التحديث في صورته المتكاملة، أعني حضارة الصناعة ومجتمع المعرفة، هما السبيل لعلاج أمراضنا، ولكن المجتمعات العربية تعيش مسيرة اقتصاد الريع، وهو نقيض حضارة الصناعة ومجتمع المعرفة، إذ غير خافية طبيعة الرابطة العضوية المكثفة بين الإنتاج الصناعي والبحث العلمي، وإنتاج المعرفة ومقتضيات ذلك سياسياً واجتماعياً وتعليمياً... إلخ.

تعاني المجتمعات العربية من غياب التمويل اللازم للبحث العلمي والتطوير، وتكفي الإشارة إلى أن ما تخصصه في هذا المجال لا يزيد على 0.5 في المائة من إجمالي الناتج القومي، بينما هو في البلدان الناهضة والمتقدمة يتراوح بين 2.5 في المائة و3 في المائة. وغير خاف أن طبيعة البحث العلمي الآن شديدة التعقد فضلاً عن أنه يمثل شراكة كوكبية تعبر عنها علاقات عضوية بين الأكاديميات والجامعات وبين العلماء كأفراد أو المؤتمرات أو النشرات العلمية.

غياب علاقات التفاعل مع العالم الخارجي المتقدم، وهي آلية الاطلاع على الجديد والمساهمة في الإنجاز والمشاركة العضوية والتطوير لنوعية المنتج وتطوير الفكر.

غياب التعاون العلمي بين البلدان العربية على الرغم من إدراك المسؤولين لأهمية هذا التعاون. وسبق انعقاد مؤتمر في الرباط العام 1976 برعاية ألكسو، وقرر المسؤولون اعتماد 500 مليون دولار لأغراض البحث والتعاون ولكن لم يتحقق شيء.

غياب الإحصائيات الموثقة عما يمكن أن نسميه النشاط العلمي العربي... بل وغياب الإحصائيات الموثقة عن الأنشطة الاجتماعية، وغياب حق الحصول على المعلومات إن وجدت، بينما هي قاعدة البحث العلمي الجاد وأساس لتحديد صورة الواقع ورسم صورة المستقبل.

ارتفاع نسبة الأمية الأبجدية في عديد من المجتمعات العربية وشيوع الأمية الثقافية العلمية والأمية الحاسوبية، وهو ما يعني غياب المواطن، القيمة والدور والفعل، وغياب الثقافة التي تؤهله ليكون فاعلاً ومشاركاً إيجابياً بفضل الثقافة العلمية؛ أي بفضل الفهم العلمي لقضايا الإنسان، والمجتمع، والطبيعة، والكون من حولنا، وكما يقول المؤلف: تعليم العلم يهدف إلى تحسين الرصيد القومي من المواطنين ذوي الكفاءة والأهلية لممارسة الديمقراطية، ومناقشة

القضايا القومية، تأسيساً على فهم علمي للقضايا والعالم من حولنا. الديمقراطية لا تستقيم في مجتمع تسوده أمية علمية، بينما نواجه قضايا قومية وعالمية تكتسب، أكثر فأكثر، أبعاداً علمية وتقنية... والسؤال: كيف نخلق مواطنين قادرين على ممارسة حقهم الديمقراطي بكفاءة، والمشاركة الإيجابية الواعية بفضل الثقافة العلمية؟

وحرى بنا أن ندرك أن ثقافة العلم لا تنشأ ولا تسود لتمثل مناخاً عاماً إلا في مجتمع منتج للعلم، هو وطن للعلم، ومن ثم تكون ثقافة العلم عامل دعم وحفز نحو المزيد؛ مزيد من الإنجاز، ومزيد من الاستمتاع بالحياة، من حيث الفهم لظواهر الحياة، والفهم لقواعد إدارة الحياة.

شوقي جلال

القاهرة، 2009

تصدير

إنني أعرّف الثقافة العلمية أو «محو الأمية الثقافية العلمية»، بأنها مجال المعارف اللازمة لكي نفهم على نحو جيد وكافٍ ما يتعلق بالكون الطبيعي بحيث يتسنى لنا التعامل مع قضايا تعترض أفق المواطن...العادي

المؤلف

الثقافة العلمية

هذا كتاب عن تعليم العلم، وأيضًا، وبصراحة أكبر، عن الجانب الخاص بتعليم العلم، ويعنى بمن لم يكن هدفهم مستقبلاً الاشتغال بالعلم. ونعرف أن الأغلبية العظمى من المعلمين ركزوا انتباههم تاريخياً على اكتشاف سبل تحسين الرصيد القومي من ذوي الكفاءة والأهلية التقنية من الرجال والنساء على السواء. وإنه لهدف قيم ومهم. بيد أننا اليوم نواجه قضايا قومية تكتسب، أكثر فأكثر باطراد، أبعاداً علمية وتقنية. لهذا سوف نسرع في توجيه اهتمامنا إلى قضية تدور حول الكيفية التي نمضي بها لكي نخلق مواطنين يتحلون، في المتوسط العام، بمعارف علمية كافية تمكّنهم من المشاركة في الحوارات العامة بطريقة فاعلة ومفيدة. معنى هذا، بلغة هذا الكتاب، أننا سنحاول إنتاج مواطنين لهم ثقافة علمية

وهذا موضوع مركب. سوف أبدأ في الفصل الأول بمناقشة أساسية لطبيعة العلم. ما هي؟ ولعل الأهم أيضاً: ما طبيعة الثقافة التي ليست علمًا؟ وحين يتوافر للقارئ فهم للطريقة المثمرة التي يحقق بها هذا الجهد الفكري الهدف المقصود نتحول إلى المهمة الأولى، وهي: تعريف الثقافة العلمية، أو لنقل محو الأمية العلمية، وأتناول هذه المسألة في الفصل الثاني في سياق أعم وأوسع يتمثل فيما يسمى سياق «محو الأمية الثقافية»: مجموع المعارف التي يفترض المتعلمون في وقت بعينه وزمان بعينه أن غيرهم على علم بها. وسوف نرى في هذا المخطط أن الثقافة العلمية أو محو الأمية الثقافية العلمية هي تحصيل المعارف الأولية عن العلم والتي يحتاج إليها المواطن العادي لكي يسهم بدور في الحوارات العامة التي أضحت ضرورية جداً في المجتمع الديمقراطي. وإذا شئنا مثلاً معيارياً على هذا نقول إن شخصاً ما يرغب في المشاركة في الجدل الراهن بشأن استخدام الخلايا الجذعية الجنينية يكون بحاجة إلى معرفة كثير عن

البيولوجيا لكي يفهم ما الخلية الجذعية، وما معنى جنين، وما إيجابيات وسلبيات استخدام الخلايا الجذعية الجنينية. ويمكن تقديم عديد من المعارف الأساسية المماثلة الخاصة بأي حوار عام يتناول أحد المكونات العلمية والتكنولوجية. ومن ثم فإنني، توخياً للوفاء بالهدف من هذا الكتاب، أعرف الثقافة العلمية أو محو الأمية الثقافية العلمية بأنها مجال المعارف اللازمة لكي نفهم على نحو جيد وكاف ما يتعلق بالكون الطبيعي بحيث يتسنى لنا التعامل مع قضايا تعترض أفق المواطن العادي سواء في مجال الأبناء أو أي مجال آخر.

بعد أن أفرغ من تعريف محو الأمية الثقافية العلمية سأبدأ في تناول الفصول الثلاثة الأخرى لعرض حجج للإبانة عن أسباب أهميتها. وأعمد في الفصل الثالث إلى التوسع في الدراسة المعروضة آنفاً، والتي توضح أن المواطنين يلزمهم عملياً هذا النوع من المعارف للمشاركة الإيجابية في مجتمع ديمقراطي. وأضع عنواناً منطوقه «برهان من حياة المواطنين». وأوضح في الفصل الرابع أن العلم أحد المكونات المهمة للثقافة، ويتعين أن يلم به المواطن العادي للسبب نفسه الذي يوجب عليه الإلمام بشيء عن التاريخ أو الأدب. واتخذت لهذا الفصل العنوان التالي «برهان من الثقافة». ويقودنا هذا الموضوع إلى الحوار المعياري الدائر بشأن «ثقافتين». وأتحدث هنا عن معلومات جديدة تضمنها هذا الحوار مستمدة من فلسفة ما بعد الحداثة. وأخيراً، أتبنى في الفصل الخامس الرأي القائل إن فهم الطبيعة يمثل إضافة لاستمتاعنا بالعالم الذي نعيش فيه. وعنوانت هذا الفصل بعبارة «برهان من علم الجمال». وأتناول هنا، من بين أمور أخرى، المسائل التي «نتعمد معها ارتكاب جريمة الفصل» بين الثقافتين، والتي تتعلق بالزعم القائل «العلم والفن لا يجتمعان معاً» أو، إن شئت الدقة، القول بالتنافر بين العلم والفن.

وبعد أن أكدنا الرغبة في إنتاج مواطنين لديهم ثقافة علمية، أتحوّل الآن إلى مسألة الثقافة العلمية في أمريكا وبقية العالم. وأعرض في الفصل السادس تاريخ جمع البيانات عن هذه القضية، وأناقش المسألة الصعبة، وهي كيف يمكن للمرء قياس كم المعلومات، مثل قياس كم الثقافة العلمية. وجوهر الأمر أن علماء الدراسات الاجتماعية ينظرون هنا إلى أمرين: عما إذا كان الناس يفهمون الفروض الذهنية عن العلم (ما الفارق بين الذرة والجزء مثلاً؟) وكذا إلى مناهج العلم (ماذا نعني بعبارة المجموعة الضابطة؟).

وجدير بالذكر أن إحدى المشكلات التي يواجهها المرء دائماً هي أن العلماء حين يتحدثون عن الثقافة العلمية يسود ميل إلى طمس الفارق بين العلم والتكنولوجيا. لذلك عمدت في الفصل

السابع إلى فحص هذه العلاقة بقدر من التفصيل عارضاً وجهة نظر العلماء المشتغلين بالبحوث التطبيقية وبالتطوير.

وخصصت الفصلين التاليين لدراسة تاريخ تعليم العلم مع تحليل وضعنا الآن في الولايات المتحدة الأمريكية. أين نحن وكيف وصلت بنا الحال إلى ما نحن عليه. ويمثل خط الأساس في أننا منذ عهد قريب جداً بدأنا نعنى بحالة المعرفة العلمية بين أوساط الناس بعامّة. وتناولت في الفصل الثامن، على نحو تتبعي، نتائج صدور تقرير «أمة في خطر»، وصعود علم الفيزياء ليكون موضوعاً للدراسة في قاعات الدرس في الجامعات، وكذا الحركة الحالية للدفاع عن الثقافة العلمية. وأدرس في الفصل الثامن الحواجز المؤسسية الحالية التي تحول دون تطوير وتحسن الثقافة العلمية في نظامنا التعليمي ابتداءً من المدرسة المتوسطة وحتى الجامعات.

وبعد أن فرغت من مناقشة وضعنا الحالي وأين نحن الآن، تحولت إلى السؤال: إلى أين ينبغي أن نسير؟ وأعرض في الفصل العاشر للسؤال عن ماهية أهداف تعليم العلم لغير المتخصصين وما ينبغي أن يتعلموه. وهذا موضوع يختلف بشأنه كثيرون. لذلك عمدت إلى إبراز وجهات النظر المتباينة أول الأمر ثم دفعت بأن الثقافة العلمية تمثل الحد الأدنى من الأهداف في أي مخطط تعليمي. ودافعت عن هذه الحجة في الفصل الحادي عشر، وذلك بالحديث عن طريقة تغير العلم بعد أن أصبح الحاسوب متاحاً للجميع. إن العلم في الغد (بل وبعض البحوث العلمية الآن، ولهذا السبب) لن يماثل نوع المباحث العلمية التقليدية التي شكلت الأساس لنظامنا التعليمي التقليدي. وهذه حجة أخرى عن ضرورة تغيير هذا النظام.

أخيراً أعرض في الفصل الثاني عشر مخططاً عاماً لتنظيم تعليم الثقافة العلمية. وينبني هذا المخطط حول الهيكل الباطني للعلم ذاته. ويمكن نظرياً تصور العلم كنوع من التراتبية الهرمية قرين نتائج ومفاهيم مهمة تتدفق طبيعياً من عدد بسيط نسبياً مما أحب أن أسميها الأفكار الكبرى. وتشكل هذه المبادئ الكبرى والشاملة نوعاً من الهيكل العام الذي تنبني عليه النظرة العلمية إلى العالم. ذلك لأنها توحد الطبيعة معاً وتربطها بعضها ببعض في وحدة متكاملة. وتشكل أيضاً، نتيجة لذلك، أساساً فكرياً للتعليم العام في مجال العلم.

وأؤكد هنا أن الطلاب الذين درسوا واستوعبوا قدرًا كافيًا وفاعلاً من المعرفة عن هذه الأفكار الكبرى يصبحون مهيين للتعامل مع الجوانب العلمية للقضايا العامة. إنهم بإيجاز يكونون مثقفين علمياً.

لمن هذا الكتاب؟

الإجابة الموجزة عن هذا السؤال إجابة بسيطة: يستهدف هذا الكتاب كل امرئ معنى بتعلم العلم. ونقول بشكل خاص وأكثر تحديداً إنه يستهدف المشتغلين بتخطيط تجربة تعلم العلم للأغلبية العظمى (المهملة في الغالب) من الطلاب الذين لا يعتزمون مواصلة دراسة العلم والتكنولوجيا لمستقبلهم العلمي. وطبيعي أن هؤلاء الطلاب ليسوا بحاجة إلى أن يتحولوا إلى نسخ مصغرة من العلماء بل هم بحاجة إلى اكتساب القدر الكافي من العلم الذي يؤهلهم لأداء دورهم كمواطنين في مستقبل حياتهم. ولهذا أدعو المعلمين على جميع المستويات، ابتداء من مدارس الحضانة وحتى الجامعة -المعلمين والإداريين ومصممي المقررات الدراسية- إلى المشاركة معي في مناقشة هذا الموضوع الحاسم.

* * *

«يتضمن العلم إجابات صحيحة، ونحن نعرف كيف نهتدي إليها»

المؤلف

العلم: عالم مفهوم

لماذا العلم؟ ولماذا نعكف عليه؟ ولماذا يشغل فكرنا؟ ولماذا نعلّمه أو ندرّسه؟ ولماذا نؤلّف كتابًا عنه؟

يمكن القول، بمعنى من المعاني، إن بقية هذا الكتاب هي إجابة مفصلة عن هذه الأسئلة. بيد أنني أبدأ بتذكير القارئ أن البشرية دخلت منذ عهد قريب جدًّا عالمًا يهيمن عليه العلم. إن النوع البشري على مدى جل الزمان الذي عاشه على ظهر هذا الكوكب إنما كان يعيش في العالم الذي سماه كارل ساجان «عالم يسكنه الشيطان»، بمعنى عالم تهيمن فيه على الفهم البشري قوى غامضة لا سبيل إلى التنبؤ بها، وغالبًا ما كانت شريرة. وعلى الرغم من أن هذا العالم لم يتوار عن الأبصار تمامًا (ويكفي أن نتأمل كيف ينظر الأغلبية من الناس إلى مرض السرطان)، فإن العالم الطبيعي يبدو اليوم عالمًا يمكن التنبؤ بأحداثه ويمكن التحكم فيه أكثر مما كان في الماضي، ومن ثم أصبح أكثر أمانًا لنا مما كان لأسلافنا. ونحن إذا فهمنا اليوم أن البرق نتيجة حركة جسيمات دقيقة محملة بشحنات كهربية وليس نتيجة غضب الأرباب فإن هذا الفهم من شأنه أن يغيّر سبل تفكيرنا. إن عالمًا مفهومًا لنا هو عالم أقل خطرًا علينا، لذا فإن فهم العالم هو في النهاية هدف العلم.

لكنك لست في حاجة إلى أن تكون فيلسوفًا لكي تتبين آثار العلم والتكنولوجيا في حياتك. تأمل حياتك في يومك العادي. هل تستيقظ على تنبيه ساعة راديو لا سلكية؟ نعرف أن الموجات اللا سلكية بدأ التنبؤ بها في العام 1861 واكتُشفت العام 1888، واستُخدمت لإرسال إشارات لا سلكية في العام 1894، وهل تسوق سيارتك لتذهب إلى العمل؟ إذن أنت تبدأ في تشغيل سيارتك عن طريق بطارية. ونعرف أن أول بطارية صُنعت في العام 1800، كذلك فإن قوانين الديناميكا الحرارية الحاكمة لتشغيل محرك سيارتك تأسست في العام 1842، كما تم تشغيل أول محرك يعمل بالاحتراق الداخلي في العام 1876، وهل أعدت تشغيل حاسوبك الموضوع على مكتبك حال

وصولك إلى عملك؟ إن القوانين الأساسية الحاكمة لأجزاء الحاسوب اكتُشفت في ثلاثينيات القرن العشرين، وأول حاسوب بدائي صُنِع في الأربعينيات من القرن العشرين.

يمكن أن أستطرد، لكنني أحسب أن الفكرة واضحة. إن الماديات التي تحدد حياتنا، وكذا نظرتنا التكنولوجية العقلانية إلى العالم، جميعها نتائج حديثة العهد للمشروع العلمي. ونظرًا إلى أننا نعيش في رحاب العالم العلمي فإن من اليسير علينا إغفال الحجم الحقيقي لإنجازات العلم على مدى الفترة الزمنية القصيرة التي مضت منذ نشأته.

لننظر إلى الأمر من زاوية أخرى. لنفترض أنك كائن فضائي وافد إلى الأرض لأول مرة، وسوف تلحظ على الفور شيئًا واحدًا؛ أنه من بين ملايين الأنواع من الكائنات الحية يوجد نوع طور قدراته لتغيير البيئة على النحو الذي Homo sapiens واحد ووحيد وهو الهومو سابينس يتلاءم مع احتياجاته، وأن ثمة نوعًا واحدًا هو الذي عرف ما يكفي عن القوانين التي تحكم الكون للتأثير في الأداء الوظيفي لكوكب كامل، وها أنت ترى أن المشاهد الطبيعية تغيرت في كل مكان لاستنبات محاصيل تفيد البشر بينما ظهرت مدن ضخمة للسكنى، ولن تجد أي نوع آخر اقترب من مستوى التأثير الذي للبشر، وسواء رأيت في هذا، كما يرى كثيرون، سببًا للقلق، أم كما أرى أنا حدثًا صالحًا جيدًا، فستظل هناك حقيقة هي أن ثمة شيئًا ما يجعل الحضارة البشرية الحديثة مختلفة عن أي شيء آخر سابق عليها.

وهكذا يبدو واضحًا أن شيئًا ما حدث منذ بضع مئات من السنين التي مضت وغير إلى الأبد طريقة تنظيم حياة البشر. وأود هنا أن أشير إلى أن ما حدث هو اكتشاف طريقة جديدة و متميزة وفعالة لاكتشاف طبيعة العالم المادي (الفيزيقي): أعني بها النشاط الذي نسميه «العلم». وسوف أدفع أن هذا التغير الذي بلغ المستوى الذي تحقق في أوروبا في القرن السابع عشر هو الحدث الفريد والأهم في تاريخ البشرية، خصوصًا إذا كان تقديرنا مبنياً على أساس تأثيره في حياة الأفراد.

لماذا ندرس العلم؟ أي شيء آخر يمكن للمرء أن يدرسه إذا ما أراد أن يفهم العالم الحديث؟

اعتدت حين أعزم توضيح هذه النقطة لطلابي أن أسألهم عن أداء تمرين ذهني بسيط. أطلب منهم العودة بالذاكرة إلى بريطانيا في العام 1775، وأن يبحثوا عن الشيء الذي كان له أضخم الأثر في حياة البشر على مدى القرنين التاليين. كانت إنجلترا في القرن الثامن عشر بلدًا أنهكتها النزاعات الاجتماعية، ويعاني مشكلات طبعية ومشكلات الفقر بحيث يبدو للمرء أن أي مدينة

أمريكية حديثة، وبالمقارنة مع واقعه، هي المدينة الفاضلة. كانت إنجلترا آنذاك بلدًا منهمكًا في عمليات بناء أعظم إمبراطورية شهدها العالم، وكانت كذلك بلدًا توشك أهم مستعمراته على الثورة ضده. ومع هذا لو أنك أردت أن تستشرف المستقبل فستجد أنه ليس عليك التوجه إلى البرلمان أو إلى قصر باكنجهام، بل وليس عليك حتى أن تذهب إلى الجامعات ومراكز الفكر مثل أكسفورد أو كمبريدج، لكن على العكس، ستجد لزامًا أن تتجه إلى حيث يوجد المصنع المتوسط سوف نجد هناك Watt ووات Boulton قرب المدينة الصناعية برمنجهام، وإلى مؤسسة بولتون صانعًا للأدوات من إسكتلندا يحمل اسم جيمس وات عاكفًا على إدخال تحسينات شاملة على القاطرة البخارية التي يمكنها أن تستمد الحرارة المتولدة من احتراق الفحم وتحولها إلى قوة محركة بالغة التأثير والفاعلية.

وبعد أن أكمل وات مهمته أصبحت بين يديه ماكينة في إمكانها عمليًا استخدام الطاقة التي سقطت على سطح الأرض على مدى ملايين السنين الماضية في صورة أشعة الشمس واحتفظت بها الأرض في باطنها على هيئة فحم. وبدأت غلايات وات في تحرير وإطلاق هذه الطاقة لتوليد البخار الذي زوّد بالقوة المحركة ما نسميه الآن بالثورة الصناعية. وامتلكنا لأول مرة في التاريخ مصدرًا للطاقة لا يعتمد على عضلات الإنسان أو الحيوان، وغير مرتبط بمكان بعينه مثل مساقط شلالات المياه. وأدارت القوى المحركة البخارية المصانع التي أدت إلى نمو المدن، وأدارت حركة القطارات والسفن التي تزود تلك المصانع بالمواد الخام ثم توزع منتجاتها في كل أنحاء العالم. وغيّرت إلى الأبد العلاقة بين البشر والعالم الطبيعي.

وهكذا كان مستقبل إنجلترا التي أنجبت جيمس وات كامنًا في تكنولوجيا غامضة، تكنولوجيا ربما كانت خافية على معاصري وات أنفسهم. وأحسب أن أستاذًا جامعيًا ما بعد مائتي عام من الآن ربما يتخذ قرارات مماثلة عن إنجازات الهندسة الوراثية في زماننا، نظرًا إلى أنها تبدو إنجازًا ثوريًا على قدم المساواة. ومثلما أن جيل الستينيات من القرن العشرين سوف يذكرهم التاريخ إلى الأبد بأنهم أول البشر الذين وطئوا بأقدامهم أرض القمر، كذلك سوف يذكرنا التاريخ بأننا أول من اكتشف تسلسل مكونات الجينوم البشري. وغني عن البيان أن هذا الحدث أطلق سلسلة من الأحداث لا نعرف كنهها ومداهما الآن. ولا غرابة في ذلك إذ أشك فيما إذا كان وات لديه صورة واضحة عن خطوط السكك الحديدية التي تخترق أنحاء القارات أو عن المدن الصناعية التي تعج بسكانها مثل ماتشستر أو بترسبرج وقتما كان يحاول جاهدًا تطوير ماكينته.

ما العلم: المنهج العلمي؟

إذا كان للعلم مثل هذا التأثير الهائل في تاريخ البشر فإن من الطبيعي أن نسأل: ما العلم على وجه الدقة والتحديد، وفيم يختلف عن غيره من أوجه النشاط البشري؟ درس كُتابٌ عديدون (وأنا منهم) شيئاً اسمه «المنهج العلمي» الذي من المفترض أنه يجيب عن هذا السؤال. وليس عندي أي مشكلة بذاتها مع هذا المنهج شريطة أن يدرك الكُتاب أن العلم، شأنه شأن أي نشاط بشري، لا يمكن دائماً تقسيمه وتصنيفه إلى أنماط منظمة مثل تقطيع كعكة. لكن ليسمح لي القارئ بدلاً من أن أذهب هذا المذهب من خلال هذا التدريب كله، بأن أضع على بساط البحث أهم خاصيتين تميزان المنهج العلمي في دراسة الكون، وتفسران معاً لماذا العلم مختلف عن أوجه النشاط الأخرى. هاتان الخاصيتان هما الملاحظة والاختبار.

الملاحظة

إذا شئت معرفة شيء عن العالم فإنك تتطلع إليه وتشاهده كيف يعمل.

هذه عبارة شديدة الوضوح لنا جميعاً، إذ نعيش ثقافة القرن الحادي والعشرين التكنولوجية العلمانية، بحيث من اليسير أن ننسى أنها وعلى مدى التاريخ البشري كان الجميع يعتبرونها على أقل تقدير عبارة خاطئة بل وربما هرطقة. وجاء على الإنسان حيناً من الدهر كان فيه الإصرار على هذه القضية والمجاهرة بها يؤدي بصاحبه إلى التهلكة حرقاً فوق خازوق. وسادت دائماً مناهج مناهضة لاكتشاف الطبيعة الحقيقية للعالم. وأعتقد أنه أخيراً فقط استطاع النجاح الباهر للعلم أن يزيح جانباً هذه المناهج من الإطار الفكري صاحب الصدارة.

ولا أملك غير أن أقدم مثلاً لهذا المنهج، حتى إن كان مختلفاً (وقد تعلمت منذ زمن بعيد ألاّ تدع الصدق أو الزيف في ذاته يصدك عن سرد قصة جيدة ونافعة). سمعتها لأول مرة من زميل لي طالب في جامعة أكسفورد، وهو شاب يدرس تاريخ العصر الأوروبي الوسيط. وتتناول القصة أحد عناصر الخطاب الكلاسيكي في العصر الوسيط. ولعلك سمعت عن الحوارات السكولاستية الكبرى (**)، وربما جاءت القصة ضمن سياق الجدل بشأن معرفة كم عدد الملائكة الذين يمكنهم الوقوف معاً على رأس الدبوس. لا تعجب أو تهزأ، فهذه فعلاً كانت قضية لاهوتية مهمة لأنها تتعلق بالسؤال عما إذا كانت الملائكة كائنات جسدية أم روحية.

هي حركة انبثقت من محاولة التوفيق بين Scholasticism أو الحوارات المدرسية، والمدرسية Scholastic Debates (**). الفكر الإغريقي والمسيحية في العصور الوسطى، ويعد القديس توما الأكويني من أشهر أنصارها [المحررة].

على أي حال، لم يكن الجدل المعني في قصة صديقي بشأن الملائكة بل بشأن عدد الأسنان في فم الحصان، إذ هب دكتور «أ» واقفًا مستندًا إلى اقتباسات من أوجستين وآباء الكنيسة، بينما اعتمد دكتور «ب» على أرسطو وفلاسفة اليونان. وبينما الجدل على أشده وقف شاب في طرف خلفي للقاعة وقال: «يوجد حصان في الخارج. لماذا لا نفكر في مجرد النظر إليه؟»، وتمضي المخطوطة لتقول، كما أكد لي الصديق، «تجمهروا وتكأوا عليه جميعًا وأوسعوه ضربًا على مؤخرته وعلى جانبيه وأخرجوه مطرودًا من حظيرة أهل العلم».

وسواء أكانت القصة صادقة أم لا فإنها تصور لنا أسلوبًا للوصول إلى معرفة أن العالم لا يعتمد المشاهدة، إذ نلاحظ في هذه الحالة أن أهل الذكر من العلماء اعتمدوا على الحكمة المنقولة بالوراثة المتضمنة في نصوص تحظى بالإجلال والتوقير، وربما جادلوا، في جميع الأحوال: ما الذي يمكن للمرء أن يراه في فم الحصان ولم يره أرسطو بالفعل؟

وطبيعي أن لا حاجة بنا إلى التوجه إلى العصور الوسطى لنصادف مثل هذا الاتجاه. إن المعركة المتصلة داخل الولايات المتحدة بشأن تعليم نظرية الخلق يمكن النظر إليها من المنظور ذاته، إذ نجد، من ناحية، علماء يعتمدون مشاهدة سجلات الحفريات وبراهين الحمض النووي لفهم نشأة الأرض وتحولاتها على نحو ما هي عليه الآن. هذا بينما نجد آخرين (DNA دنا) يؤمنون بأن الحقيقة تكشفت جلية في متون بعينها وعلينا التسليم بها (مثل سفر «التكوين» في التوراة).

ويمكن للقارئ أن يجد اتجاهًا مماثلًا لدى جماعة تروج لفكر غامض يحمل اسم فلسفة العصر الجديد (***) . وإذا استمعت إلى حكمتهم المشوشة ومزاعمهم عن الترابط في الكون الأكبر وعن التقارب المتناغم وسريان تدفقات الطاقة أو غير ذلك من أفكار وواجهتها بحجج تعتمد على قوانين الفيزياء، فإنهم غالبًا ما ينظرون إليك باستعلاء وغطرسة قائلين: «توجد أشياء غير معروفة للعلم». وهنا وفي مثل هذه الحالة يصل الناس إلى الحقيقة عن طريق ما يشبه الاستبصار الحدسي أو الصوفي الغامض، ويرون أن المشاهدة ليس لها دور في هذا المجال.

هي إحدى دورات البعث التاريخي لرؤية خيالية عن مسار الفكر والقيم New Age Movement حركة العصر الجديد (***) الإنسانية. يزعم أنصارها أن جذورها الفلسفية ممتدة إلى أعماق تراث تاريخي قديم، وتؤمن بوجود قوى خارقة وأفراد من بني البشر لهم سلطان يؤهلهم للتعامل مع الخوارق واقتربت نشأة الحركة في العصر الحديث بأزمة الإيمان المسيحي في الغرب، نتيجة تناقضات واضحة بين ما نص عليه الكتاب المقدس، وما كشفت عنه البحوث والاكتشافات العلمية وثقافات وأديان شعوب الشرق الأقصى والأوسط، وما عاينه الشباب

في رحلاتهم عبر العالم. وبلغت الحركة أوجها في الولايات المتحدة مع الهيبيز في ستينيات القرن العشرين [المترجم]

وأقول بوجه عام إنني لا أحب كلمة ثورة عند تطبيقها على التطورات الفكرية، لأنها تبدو كأنها توحى بقطيعة بين ما هو تسلسل مرحلي متقدم للأفكار. ولعل الأوفق عندي النظر إلى حدث ما يمكن اعتباره رمزاً للتطور بدلاً من النظر إليه باعتباره معلماً على قطيعة وانفصال. وحرى بالذكر أنني إذ أتطلع إلى مثل هذا الحدث الذي يمثل رمزاً لفكرة التعلم عما يجري في الطبيعة من خلال المشاهدة، فإنني أعود إلى ميلانو في القرن الخامس عشر، وهو الوقت الذي تسلح فيه الدوق بمدفع يعتبر آنذاك أهم وأرقى مظاهر تكنولوجيا العتاد العسكري في عصره. استدعى الدوق كبير مهندسيه المدعو تارتاليا وسأله سؤالاً بسيطاً من النوع الذي يثير الجنون والغضب، ويسأله المسؤولون عادة لعلمائهم، وهو: ما الارتفاع الأمثل لماسورة المدفع لكي تصل القذيفة إلى أقصى مدى لها؟

مغزى القصة أن تارتاليا لم يجلس ساكناً متأملاً كيف له أن يحل المشكلة على نحو ما أوصى أفلاطون. كذلك لم يشأ أن يستشير متوناً لها الإجلال والتقدير على نحو ما قد يفعل الدكتوران «أ» و«ب»، لكنه على العكس حمل المدفع إلى ميدان خارج المدينة، وشرع يطلق قذائفه ويلاحظ أبعاد القذائف في أوضاع مختلفة. ربما حدث هذا قبل أن يضع جاليليو أو نيوتن بقنين من الزمان القوانين الحاكمة لمسار وسرعة القذائف. ولكن تارتاليا اكتشف، عن طريق المحاولة والخطأ والملاحظة، أنك إذا ما صوّبت ماسورة المدفع عند ارتفاع 45 درجة فإنك تحصل على أقصى مدى للقذيفة.

وطبيعي أنه منذ ذلك الوقت أصبحت فكرة أن المعرفة العلمية تبدأ من الملاحظة حكمة عامة لها السيادة. لكن، مع الأسف، اقترن هذا الفهم ببعض المفاهيم الخاطئة التي أرجو أن أوضحها على الرغم من خشيتي من التكرار. إن سوء الفهم الأكثر شيوعاً هو أن العلماء، إذ يلاحظون العالم، إنما يفعلون ذلك -وفق ما هو مفترض- بعقل مفتوح، وقد تحرروا من كل المفاهيم السابقة عما هم بصدد اكتشافه. وغالباً ما تتحول هذه الفكرة إلى ما يشبه «خيال المآة»؛ أي حجة زائفة تتردد على لسان الفلاسفة الراغبين في إبراز مفهوم البنية الاجتماعية للعلوم.

حسن، إن كل ما يمكن أن أقوله إنني، على مدى حياتي العلمية التي جاوزت ثلاثين عاماً في معمعان البحث العلمي، التقيت عالماً واحداً فقط يعمل بهذه الطريقة، اسمه فيليب جنجريتش، وهو عالم حفريات وباحث جيولوجي ميداني في جامعة ميتشجان. وأذكر أنني حين كنت في

المنطقة المعروفة باسم بيج هورن بيزين، أو حوض القرن الكبير في وايومنغ، وفي صحبة فيليب سألته: كيف حددت لنفسك الموقع الجديد؟ (وكلمة موقع تعني عند الباحثين الإحاثيين، المكان الذي يبحثون فيه عن الحفريات). وأجاب إجابة ذات دلالة كاشفة، إذ قال: «أنتقل إلى الميدان وأدع الصخور تتحدث إلي». أعرف أن كل العلماء الذين صادفتهم في حياتي ينخرطون في تجربة أو في دراسة ميدانية أو في مشاهدة، ولدى كل منهم فكرة واضحة إلى حد كبير عما يتوقع أن يكتشفه. وهذا هو ما يعنيه الفلاسفة حين يقولون بعبارتهم إن الملاحظة العلمية «محملة بالنظرية». إن ما يجعل العالم عالمًا جيدًا ليس أنه يبدأ عمله وبحته صفرًا من أي توقعات محتملة، بل واقع أن النتائج حين لا تتطابق مع التوقعات المنتظرة فإن العالم يسلم مقتنعًا بما تقوله الطبيعة. ومن ثم فإن العالم بدلًا من أن يتجاهل أو يلوي ويقمع النتائج، يغير هو فكرته عما كان يتصوره وينتظره من نتائج.

ويفيدنا التطور التاريخي للعلوم بأن المشاهدات تعقبها دائمًا فترات من النشاط العقلي الفكري المكثف التي يتم خلالها الكشف عن انتظام المعطيات، لتكون أساسًا لاستحداث النظريات المميزة للنظرة العلمية عن العالم. وشهد علم الفلك في القرنين السادس عشر والسابع عشر مثالًا كنسيًا لهذا التسلسل المتعاقب للبحث. نذكر أولًا النبيل الدنماركي تايكو براهي (1546-1601) الذي قضى حياته يجمع أهم البيانات الدقيقة في العالم عن مواقع الكواكب في السماء. (وجدير بالذكر أن علماء الفلك لا يحبون أن يذكرهم أحد بذلك على الرغم من أن هذه البيانات كانت ذات قيمة اقتصادية هائلة في تلك الأيام، إذ استخدمها المنجمون للتنبؤ بالطالع على نحو أكثر دقة).

وبعد وفاة براهي خلفه مساعده، وهو عالم رياضي ألماني شاب يدعى يوهانس كبلر (1571-1630)، عمد كبلر إلى تكثيف هذا الكم الهائل من المعلومات وصاغها في قوانين ثلاثة تُعرف باسم قوانين كبلر عن حركة الكواكب، يفيد أحدها على سبيل المثال أن الكواكب تدور حول الشمس في مدار إهليلجي، وهو قانون يكشف عن بصيرة نافذة أطاحت بآلاف السنين من الفكر الذي ساد مبحث الفلك.

وأخيرًا هناك إسحاق نيوتن (1642-1727) الذي أوضح أن قوانين كبلر نابعة من نظرة أعمق تتضمن ما نسميه الآن قوانين نيوتن عن الحركة وقانون الجاذبية الكونية. وتمثل الحصاد النهائي لهذه السلسلة من الأحداث في صورة عن الكون بسيطة غاية البساطة ومقتعة تمامًا، إذ تجعل المرء يرى حركة الكواكب كأنها حركة عقارب ساعة بينما تروسها الداخلية تمثل تطبيقًا

لقوانين نيوتن. بدا الكون الآن من دون تدخلات خارجية إنما يخضع لقوانين عقلانية يمكن التنبؤ بها، قوانين يمكن للعقل البشري أن يكتشفها.

جدير بالذكر أن فكرة الكون الذي يعمل كالساعة كان لها أثرها العميق في ثقافة القرنين السابع عشر والثامن عشر. ويتجلى ذلك بوضوح في الفن والأدب والموسيقى. حقاً إن بعض الباحثين وصل بهم الأمر إلى حد تأكيد أن واضعي الإطار العام للدستور الأمريكي تأثروا بها على نحو عميق، بمعنى أنهم شعروا بأنهم يكتشفون القوانين الحاكمة للمجتمع البشري تماماً مثلما اكتشف نيوتن القوانين الحاكمة للمجموعة الشمسية.

وهكذا تفضي عملية الملاحظة في نهاية الأمر إلى شيء خاص جداً. وتفضي طبيعة المخ البشري إلى أننا حين نجد مظاهر انتظام في العالم الذي حولنا فإننا نعزو مظاهر الانتظام هذه إلى سبب يمكن معرفته سواء قلنا إنها أفعال روح أو تجسيد عمل قانون طبيعي. ونخلق صورة عن الكون فيها سبب منتج لما نشهده من انتظام. واعتدت أن أسمى هذه العملية ابتكار نظرية، وإن كنت أجد لزاماً أن أنبه القارئ إلى أن الفلاسفة خاضوا حوارات لا نهاية لها بشأن تعريف ما النظرية على وجه الدقة والتحديد. بيد أننا، توخياً للهدف المنشود هنا، يمكن أن نأخذ قوانين نيوتن عن الحركة وقانون الجاذبية الكونية باعتبارهما النموذج الإرشادي (الباراديم) للنظرية عن الكون.

وحرى بنا أن نشير إلى أن جميع النظريات ليست سواء عند ابتكارها، إذ إن بعضها يكون أفضل كثيراً من غيرها من حيث تفسير ما نشاهده. مثال ذلك أن تايكو براهي وضع نظرية مبنية على أساس مقاييسه. وتفيد هذه النظرية بأن الشمس تدور حول الأرض، لكن جميع الكواكب الأخرى تدور في مدار حول الشمس. وقد عجزت نظريته في النهاية عن تفسير البيانات تفسيراً ناجحاً، ولهذا تخلى الباحثون عنها. ونذكر هنا أن هذه العملية التي تستهدف فرز الأفكار وإسقاط بعضها، بناء على مدى صلاحيتها لتفسير المشاهدات هي ما ينقلنا إلى الوجه الثاني المهم للعلم. ونعني به الاختبار.

الاختبار

سيقول كثير من العلماء إن الجانب الأهم في العملية العلمية هو المقارنة التي لا تهدأ ولا تتوقف بين التنبؤات التي تقول بها نظرياتنا وبين ما يحدث بالفعل في الطبيعة. وهذا من شأنه،

بمعنى من المعاني، أن يكسب العلم صفة ليست لأي مجال آخر من مجالات النشاط البشري، حكم مرجعي خارجي غير متحيز، بل صارم أشد الصرامة في عدم تحيزه. إنه حكم لا يفرق بين هذا وذاك سواء كان هذا الذي يقترح نظرية ما حائزاً جائزة نوبل أم ذلك مجرد زميل جديد حاصل على درجة الدكتوراه حديثاً. وإن لم تؤكد التجربة أو المشاهدة تنبؤات نظريته فإن النظرية مصيرها الإغفال. وهذه نهايتها.

ويبدو لي أن هذا الجانب من العلم هو الأصعب من حيث قابلية غير العلماء لاستيعابه، لهذا سوف أتوفر على الحديث عنه بعض الوقت. تتمثل المشكلة هنا في ارتباطه بقضايا عدم الاحياز والموضوعية، وهاتان قضيتان تثيران في ثقافة ما بعد الحداثة كل رايات التحذير. لهذا فإنني -بعيداً عن أي لفظ أو جلبة- أستسمح القارئ أن أعرض أطروحتي في أبسط وأوضح صورة: يتضمن العلم إجابات صحيحة، ونحن نعرف كيف نهتدي إليها.

وليسمح لي القارئ ثانية بأن أقدم هذه الفكرة من خلال مثال تاريخي آخر: يذكر التاريخ أنه بعد أن أعلن إسحاق نيوتن القوانين الأساسية الحاكمة لحركة وأداء الكواكب قرر إدmond هالي، المعاصر له، أن يطبق تلك القوانين على تلك الأضواء الغريبة التي تجوب السماء والمعروفة لنا باسم المذنبات. ونعرف أن المذنب ضوء يتوهج فجأة ويظهر من دون توقع في السماء ويتحرك على صفحاتها حيناً ثم يختفي، وهو الشيء الأبعد ما يكون عن التطابق التام مع الكون الذي يعمل كالساعة. استخدم هالي قوانين نيوتن، واستطاع أن يحدد مدارات 24 مذنباً تاريخياً، ووجد أن 3 من هذه المذنبات لها مدارات متطابقة. ولم تبقَ آنذاك سوى خطوة صغيرة للتحقق من أن هذا ليس موقفاً خاصاً بثلاثة مذنبات مستقلة، بل مذنب واحد يعود ثلاث مرات. واستخدم ثانية قوانين نيوتن، واستطاع أن يحسب متى سيظهر المذنب ثانية في السماء. (واقع الأمر أن هذا الحساب ليس سهلاً بسيطاً كما يبدو في ظاهره، لأن تأثيرات الجاذبية على الكواكب الخارجية يمكن أن تتسبب في حدوث تشوشات كبيرة في مدارات المذنبات. وقد اكتشف هالي أن عودة المذنب إلى الظهور تأخرت نحو سنتين بسبب هذه التأثيرات)، وقال هالي: «إذا كانت الصورة التي قدمها «نيوتن عن الكون صحيحة فإن هذا الشهاب سيظهر ثانية في السماء في نهاية العام 1758».

وتأكدت النبوءة، إذ عشية عيد الميلاد (الكريسماس)، وبعد وفاة هالي بست عشرة سنة، وجه باحث هاو في علم الفلك منظاره التلسكوب إلى السماء ورأى المذنب. وسُمي المذنب باسم هالي تكريماً له. ونعرف الآن أن أول ظهور مسجل لهذا المذنب كان لعالم فلكي صيني العام 240 قبل

الميلاد، وأن أحدث زيارة له للأرض (والتي أصبحت عادية لنا) كانت العام 1986 (وستكون زيارته التالية العام 2061).

وهذا التتابع للأحداث، والمسمى عودة مذنب هالي، أكمل دائرة المنهج العلمي. وسبق أن أكدت أن العلم يبدأ بالملاحظة، وينتهي، كما نرى في هذا المثال، بالملاحظة. وإن هذا التفاعل بين أفكار البشر فضلاً عن الحقيقة المؤكدة للطبيعة هما ما يجعلان العلم مختلفاً عن مجالات النشاط الفكري الأخرى.

وثمة طرفة عرضية تتعلق بقصة مذنب هالي مأخوذة عن هالي نفسه، إذ كتب بعد أن فرغ من حسابه لمدار المذنب: «أحسب أنه (أي المذنب) لو عاد ثانية العام 1758 فإن الخلف المنصف غير المتحيز لن يرفض الاعتراف بأن أول من اكتشفه إنجليزي» (1). (كان هالي في حياته الممتلئة بالمغامرات يجمع ما بين كونه قبطاناً بحرياً وعميلاً سرياً للأدميرالية البريطانية وأود أن أقول: لقد كان هو جيمس بوند الأصلي).

وكم هو مهم أن نؤكد أن في الإمكان أن نتصور عالماً أظلمت سماؤه عشية عيد الميلاد العام 1758. أو لنقل بعبارة أخرى أن نتبين أن تنبؤات نظرية نيوتن لم تتحقق، ومن ثم فإن النظرية خطأ. معنى هذا بلغة الفلاسفة أن فيزياء نيوتن قابلة لإثبات زيفها (أو بلغة القانون قابلة للاختبار ووضعها على المحك). إنها نظرية تطرح تنبؤات يمكن، من حيث المبدأ، وضعها موضع الاختبار وقد لا تتحقق. وأصبح من المقرر الآن أن النظرية التي ليست لها هذه الخاصية ليست جزءاً من العلم.

ومن المهم أيضاً أن نقرر أن نظرية ما يمكن أن تكون قابلة لإثبات زيفها لكنها لا تزال خطأ. مثال ذلك عبارة «الأرض مسطحة»، عبارة قابلة تماماً للاختبار وإثبات زيفها، وثبت زيفها. ونجد من ناحية أخرى نظرية قابلة لإثبات زيفها وصحتها. مثال ذلك عبارة «اضطراب منظومة مغلقة لا ينقص مع الزمن». فهذه عبارة قابلة للاختبار وقابلة لإثبات زيفها، لكنها صحيحة (وهذه معروفة بأنها القانون الثاني للديناميكا الحرارية). وهكذا نرى أن حدث العام 1758 كان دليلاً على أن الكون الذي يشبه الساعة عند نيوتن هو مثال آخر لنظرية قابلة لإثبات الزيف لكنها صحيحة.

وكان لمعرفتي أن النظريات العلمية قابلة للاختبار دور رئيس في قراري أن أصبح عالم فيزياء، إذ كنت وأنا طالب بالجامعة مفتوناً ولزمن طويل بالفلسفة، وعقدت العزم جاداً على أن

أنذر حياتي لهذا المجال. بيد أنني كلما قرأت أكثر واستمعت أكثر وأكثر لكبار فلاسفة زمني، بدأت أدرك أن أهل هذا المجال، وعلى الرغم من تناولهم أهم القضايا الأساسية، فإنهم في نهاية المطاف لا تصل بهم الحوارات إلى خاتمة متفق عليها. وتبين لي أنك ما دمت تملك حججاً متسقة منطقياً، ومجادلاً لسناً -مثلك مثل من تجادلته- فلن يستطيع أحد أن يثبت أنك على خطأ. وتخيلت فلاسفة العالم كأن كل فريق يعيش في دائرته أو مدرسته الفكرية المنفصلة عن غيره من دون أي قوة خارجية فاعلة يمكنها أن تؤسس معياراً للصدق. ومع التقدم في مراحل حياتي العملية تبين لي أن هذا هو عين الموقف في الميادين الأخرى للإنسانيات. ويصبح لزاماً على أهل هذه المجالات أن يسقطوا إمكان الوصول إلى إجابات محددة في مقابل حق طرح أسئلة وقضايا عميقة وأساسية.

لكن العلم جد مختلف. يمكن أن تكون هناك -وغالباً هو كذلك في الحقيقة- خلافات بشأن أي نظرية هي الأفضل لتفسير المعطيات التي بين أيدينا، وقد تستمر الخلافات عقوداً. لكن في النهاية يتفق الجميع على أن المعطيات المتاحة لنا هي التي تحسم القضية في النهاية. ويستطيع العلماء التوصل إلى نتيجة نهائية للحوارات الدائرة بينهم بأن يحصروا انتباههم في نطاق أنماط المسائل التي يمكن الإجابة عنها في ضوء المشاهدة. بيد أنهم في الوقت نفسه لا بد أن يتخلوا عن البحث عن إجابة عن الأسئلة الأعمق (كأن نسأل: ما معنى الحياة؟). ويعبر عن هذا الراحل كين بولدنج حين قال: «العلم هو عملية إبدال الأسئلة غير المهمة التي يمكن الإجابة عنها بأسئلة مهمة لا يمكن الإجابة عنها» (2).

وبعد أن عرضت هذه الفكرة عن العلم عامة أريد أن أوضح جانباً للعملية التي لها تأثيراتها الهائلة في وسيلة تفاعل المشروع العلمي مع المجتمع بشكل عام. إن عملية اقتراح نظرية واختبارها والتي أوضحت معالمها آنفاً هي عملية يجري تنفيذها على نحو جيد تماماً، ومن ثم يمكن الاعتماد عليها في التطبيق العملي لاستنباط التاويل الصحيح عن الطبيعة. لكن ما لا يمكن أن تفعله هو إثبات تلك التاويلات ونقلها وفق برنامج عمل محدد، وهذا ما يمكن أن يسبب أحياناً بعض المشكلات.

ولننظر إلى الأمر على هذا النحو: تنبثق كل فكرة علمية في عقل فرد بعينه في مكان ما من العالم، وتخضع على مدى الزمان للاختبار مرات ومرات، وربما تصبح موضع قبول. وأكثر من هذا أن في الإمكان أن تتضمنها المراجع. ولكن يأتي وقت حتماً، تأخذ فيه الفكرة مجراها في

التطبيق، فتكون موضع اختبار وعلى المحك. جدير بالذكر أن عملية القبول عملية معقدة، إذ تتضمن اختيارات فردية من جانب الآلاف من العاملين في المعامل في مختلف أنحاء العالم. وبين النشأة والقبول ربما تدخل الفكرة العلمية فيما يشبه النسيان حين لا يكون معروفًا إن كانت خطأ أم صوابًا.

ونحن حين نتحدث عن الكيفية التي سيواجه بها مواطن العلم في القرن الواحد والعشرين نجد أن حالة عدم اليقين هذه بالغة الأهمية، ذلك لأنها تتناقض مع إحدى الصور التي في خيال الكثيرين عن العلم. ونعرف أن الكثيرين يظنون أن العلم لديه إجابات دائمًا وأنها إجابات صحيحة دائمًا. (إذا راودك شك في هذا، فلك أن تلاحظ طريقة استخدام كلمة علمي في الخطاب اليومي). لذلك فإن من الصعوبة بمكان على الكثيرين قبول، ومن ثم فهم، أن هناك فترات من عدم اليقين في تاريخ تطور أي فكرة.

ولقد واجهت هذا الموقف مرارًا عندما كنت أحاضر عن العلم للقضاة (وهذا ما أفعله كثيرًا تحت رعاية مدرسة القانون في جامعتي). وأود أن أصوغ المشكلة على النحو التالي: «أنا كعالم يطيب لي أن أقول إن المنهج العلمي سيقدم لنا إجابات موضع ثقة بالنسبة إلى مشكلة بعينها بعد عشر سنوات من البحث. لكن المشكلة أن المحاكمة ستبدأ الثلاثاء المقبل

جوهر القضية أن كثيرًا من القضايا التي تعترض الناس في حياتهم بوصفهم مواطنين سوف تتضمن العلم وهو لا يزال في المنطقة الرمادية بين مرحلتي البداية والقبول. ولهذا فإن معرفتهم بالمبادئ الأساسية للعلم تمثل، على الرغم من أهميتها الشديدة، مجرد جزء مما هم في حاجة إلى الإلمام به. وهم في حاجة أيضًا إلى فهم الكيفية التي أصبحت بها هذه الأفكار مقبولة حتى يتسنى لهم إصدار أحكام معقولة عن القضايا الراهنة من مثل احترار الكوكب أو آخر التحذيرات بشأن المواد المسرطنة في الطعام.

صفة أخرى للمنهج العلمي وهي أنه، إذا ما توافر الوقت الكافي، يكشف كلاً من الأخطاء (التي تحدث) والخداع المتعمد (الذي يحدث أيضًا لكن بدرجة أقل). وأذكر أن اثنين من العلماء في جامعة أوتاه أعلنوا في نشرة أخبار المساء منذ عدة سنوات أنهما نجحا في عمل انصهار نووي بارد في معملهما. وأحدث النبأ ضجة. وأتحدث عن نفسي عندما أقول: إن ذلك كان وقتًا رائعًا لأن يكون المرء فيزيائيًا، فقد كان الناس مهتمين فعلاً بالحديث معك في المحافل. لكن استغرق الأمر نحو الشهر من المجتمع العلمي ليعلن رفضه هذه المزاعم على أساس عيوب فنية

في التجربة الأصلية وفشل الباحثين الآخرين في الوصول إلى النتائج نفسها في ظل ظروف مضبوطة ومحكمة. وحدث بعد ذلك، منذ عهد قريب، أن أعلن باحث من كوريا الجنوبية أن معمله نجح في إنتاج خلايا جذعية بشرية. وانطلقت التساؤلات من كل مكان على أسنة كُتاب التقارير من الصحفيين، وسرعان ما كشفت عن حقيقة الخداع في هذا الزعم. وطبيعي أن مثل هذا النوع من الأحداث يدفع المعلقين إلى التشكك والتساؤل بشأن الأسس الجوهرية للعلم. بيد أنها، على الرغم من ذلك، توضح أن منظومة العلم إذا ما تركناها لحالها وتوافر لها الوقت الكافي فإنها سوف تصل في النهاية إلى الإجابة الصحيحة.

ليسمح لي القارئ بنقطة أخيرة عن المنهج العلمي قبل أن أستطرد، وذلك لأنها تتضمن نقدًا آخر للعملية، وهو النقد الذي يثيره الفلاسفة أحيانًا. إن المنهج العلمي قد يكون سبيلنا إلى الوصول إلى مقاربات أكثر ارتباطًا بالحقيقة، لكنه لا يستطيع أن ينتج -وغير مصمم بهدف إنتاج- «الحق». وسبب ذلك بسيط للغاية: إذا كانت المنظومة مبنية على أساس الملاحظة، إذن فإن من المنطقي أن تظل دائمًا معرضة لاحتمال أن تظهر غداً ملاحظة أخرى تطيح بمبدأ استقرّ زمنًا طويلاً.

لكن مع كل ما قلته آنفاً دعني أضع تمييزاً مهماً بين ما هو منطقي وما هو معقول. ليس في الإمكان البرهنة منطقيًا على أن الشمس سوف تشرق غداً. ونعرف أن الحقيقة الواقعة هي أنها تفعل هذا منذ 4.5 مليار سنة. بيد أن هذه الحقيقة لا تبرهن على أنها ستفعل ذلك غداً. ونحن من ناحية أخرى نعترف بأن من الحمق تمامًا أن ننظم حياتنا على احتمال أنها لن تشرق. هذا هو الفارق بين ما هو منطقي وما هو معقول. لذلك فإنه إذا كان من الممكن منطقيًا أن يثبت شخص ما -غداً- خطأ مبادئ بقاء المادة، أو التطور عن طريق الانتخاب الطبيعي، فإنني شخصيًا أستطيع أن أضع الاحتمالات المرجحة ضد هذا الحدث في مستوى أعلى من احتمالات عدم شروق الشمس غداً.

هذا هو الوضع إذن. وحيث إننا في عالم ناقص، فإن هذا هو السبيل الأفضل لنا. وأقول بصراحة إنه يبدو جيدًا جدًا في نظري.

ما ليس بعلم: العلم الزائف وما أشبه

أدى نجاح العلم إلى نشوء نوع من المحاكاة الفكرية التنكيرية: أحداث متتابعة تحاول أن تظهر في صورة العلم وتزعم أنها علم، ولكنها ليست كذلك. وتحمل جميعها اسم «العلم الزائف». وكثيراً ما تعرض مشكلة تثير الخلط لدى المراقب العابر غير المتمرس. وأتحدث هنا عن مجالات ومثلث برمودا، extrasensory perception من مثل التنجيم وإدراك ما هو خارج النطاق الحسي وزوار من خارج الأرض لكوكبنا، والصور المختلفة للنشوء، UFO والأجسام الطائرة المجهولة من العدم. وأجد من حسن الحظ أن العرض السريع السابق للمنهج العلمي يمكن أن يوفر لنا أدوات لتحليل ورفض كثير من المزاعم التي شاعت في الماضي، وكذا ما سوف يظهر منها للأسف مستقبلاً.

ونبدأ بالعقيدة الأولى عن المنهج العلمي - أعني فكرة أننا نعرف ما يتعلق بالطبيعة عن طريق الملاحظة- تفيدنا هذه العقيدة بأن أول ما ينبغي عمله عند مواجهة ما نظن أنه قد يكون علماً زائفاً هو أن نسأل سؤالاً بسيطاً: «هل الوقائع المذكورة صادقة حقاً؟»، وسوف أعطي بعض الأمثلة لأوضح كيف أن هذا السؤال يحقق هدفه.

التنجيم

التنجيم منظومة عقدية ترجع إلى أيام علماء الفلك العظام في بابل. وترى العقيدة المحورية هذه في عبارة بسيطة أن مواقع الكواكب في السماء لحظة ميلاد المرء تحدد شخصيته والأحداث التي تقع له في حياته. ولعل أهم جانب فيها هو ما اصطلح على تسميته برج المرء. ويتحدد معنى البرج جوهرياً بأنه الكوكب الذي تظهر الشمس معه لحظة الميلاد إذا كان في الاستطاعة أن نرى النجوم في وضوح النهار. ويبلغ مجموع الأبراج المألوفة لنا اثني عشر برجاً يغطي كل منها قرابة الشهر. وهذه هي الكواكب التي تمثل مجموعة في السماء تسمى دائرة البروج، التي تتحرك الشمس عبرها على مدى سنة.

وثمة سبل كثيرة لنقد التنجيم. مثال ذلك يمكن للمرء أن يوضح أن الحركة المنتظمة لمحور الأرض غيرت العلاقة بين أبراج دائرة البروج وأيام الميلاد منذ عصر البابليين. ويوجد اليوم فارق يقارب عدة أشهر بالتمام والكمال تزحزحت فيه هذه الأرقام. معنى هذا أن برج ميلادك لم يعد في ذات صف موقع الشمس عملياً. ويستطيع القارئ أن يؤكد أيضاً أن علماء الفلك المحدثين يقررون أن دائرة البروج بها ثلاثة عشر كوكباً بدلاً من الاثني عشر التي يقول بها التنجيم.

وأضيف هذا الكوكب الجديد واسمه أوفيوكوس -أي حامل الثعبان- منذ ستين عامًا مضت ولكن لم يوضع ضمن خارطة البروج للكشف عن الطالع.

لكن لندع هذا جانبًا ونركز على السؤال الأساسي: «هل التنجيم له مصداقية؟»، إليكم اختبار صغير أجره عادة مع طلابي: آخذ خارطة الطالع المنشورة في صحيفة الأمس وأزيح الأبراج جانبًا ولا يبقى سوى اثنتي عشرة مشورة أو رؤية غير محددة وفق تاريخ الميلاد. أطلب بعد ذلك من كل طالب عمل شيئين اثنين: أولاً، استخراج الرؤية التي كانت هي الأفضل له في اليوم السابق ثم أعطيه بعد ذلك برجه. هنا تستطيع أن تتبين ما إذا كانت خريطة الكشف عن الطالع قدمت عملياً رؤية أو مشورة مفيدة أم لا.

لكن هنا الخدعة: إذا اكتفى الطلاب باستخراج مشورة عشوائياً فإن من المتوقع أن يحصل الطالب على المشورة الصحيحة مرة واحدة من اثنتي عشرة مرة. معنى هذا أن السؤال الحقيقي ليس ما إذا كان شخص بعينه حصل على المشورة الصواب، إذ إن البعض سيتحقق له ذلك مصادفة. إنما السؤال هو إذا ما كنا بصدد فريق كبير العدد فإن النتائج سوف توضح أن قراءة طالعك لن تقدم لك شيئاً غير ما استخرجته بشكل عشوائي. جدير بالذكر أنني حين أفعل هذا مع فئات تتألف من أعداد ما بين 80 و200 طالب نجد النتائج دائماً متسقة مع الاختيار العشوائي. ومن ثم فإن التنجيم، تأسيساً على هذا الاختبار البسيط، يفشل في أبسط اختبار أساسي يمكن أن نجريه على فكرة ما، أعني اختباراً للكشف عما إذا كان للفكرة مصداقية في العالم الواقعي أم لا.

وليس المرء في حاجة إلى أن يمضي بعيداً للكشف عن إخفاقات أخرى للتنجيم. إذا اعتدت أن أقدم حالتني أنا وزوجتي بوصفها مثلاً واضحاً صارخاً، إذ أنا وزوجتي من مواليد برج العذراء، والفارق بين تاريخ ميلادي وتاريخ ميلادها ستة أيام (لكن في سنتين مختلفتين). واكتشفت من اليوم الأول أن لكل منا شخصيته المميزة. وليس هذا فقط، بل كلانا على العكس تماماً من الترميز المعتاد للجنس. ذلك أن واندنا موسيقية تنزع إلى العقلانية والفكر الخطي المستقيم باتجاه واحد. وأنا عالم فيزياء أميل إلى ما هو وجداني وحدسي. وطبيعي أن التكامل بين هذه العناصر المميزة يفيد كثيراً في الزواج، لكنه يقيناً لا قيمة له لكي يجعل من التنجيم شيئاً قابلاً للتصديق حين يتعلق الأمر بأن كلينا من برج واحد.

أخيراً أود أن أوضح أن التنجيم يعتبر المثال الأول والأبرز لما أسماه نمط العصر الذهبي للعلم الزائف. إنه في جوهره يؤكد أن العصور القديمة امتلكت حكمة فقدتها الحداثة الفظة وأنه يتعين

رد الاعتبار لها لما تتميز به من عراقية. ترى ماذا تقول ردًا على هذا؟ اعتدت دائمًا أن أسأل الناس إذا ما ألم بهم صدادع أو ألم في الأسنان إن كانوا يفضلون الذهاب إلى طبيب من بابل. ويبدو أن هذا يكفي.

مثلث برمودا

ذاع وشاع مثلث برمودا في صورة أسطورة وقصة. ويوجد وفق ما هو مفترض في المحيط الأطلسي حيث اعتادت، كما يقال، أن تختفي فيه السفن والطائرات على نحو غامض من دون أن تترك أثرًا. وأعود لأقول إن السبيل لتناول هذه المشكلة هو أن نسأل ما إذا كانت السفن لا تزال تختفي فعلاً في المثلث، وأنها تختفي بأعداد ونسب تختلف عن غيرها من الأماكن. ولعل من حسن الحظ أن مثال مثلث برمودا يصور حقيقة أخرى عن العلم الزائف. إن أي أسطورة تصمد للزمن وقتًا كافيًا لا بد عاجلاً أم آجلاً أن يظهر شخص يضيق بها ويبدأ في التساؤل بشأنها ومراجعتها ويؤلف عنها كتابًا يعفك من مشاق البحث عن الحقيقة بنفسك.

وفي هذا الصدد، فإن كتابًا بعنوان: «الكشف عن حل لغز مثلث برمودا»، لمؤلفه لاري كوشي، وهو قيّم مكتبة ومعني بالأبحاث ومعلم طيران، قد أعفانا من عناء البحث. يكشف الكتاب عن جهود كوشي الذي لم يهدأ أو يمل في البحث والاطلاع بين السجلات التاريخية. واستطاع بعد جهد جهيد في التوثيق أن يوضح دور الإعلام في صياغة أسطورة مثلث برمودا على مدى عقود. وكشف عن دور المراسلين الذين حوروا الأحداث وصاغوها على نحو يتلاءم مع قصصهم. ولعل النوار المفضلة عندي هي السفينة التي قيل إنها فُقدت في المثلث، ثم تبين بعد ذلك أنها غرقت في المحيط الهادئ، ولغز الاختفاء الغامض لطائرة حلقت في الحقيقة وسط إعصار مدمر.

رواد الفضاء في العصور القديمة

أعتقد أن كل عالم يجد نفسه في فترة من حياته مدينًا لمجتمعه بفضل العلم الزائف في عصره. وهذه مهمة مثيرة للإحباط، أشبه بعملية إخراج وإزالة النفايات، إذ مهما نبذل الجهد للتنظيف. اليوم نجد مزيدًا منها غدًا.

كنت قد أنهيت فترة خدمتي في أواخر السبعينيات وقتما امتلأ الجو بشائعات عن رواد فضاء هبطوا إلى الأرض في العصور القديمة. ولعلنا لا نزال نشاهد مثل هذه الموضوعات في برامج التلفاز في ساعات متأخرة من الليل، وإن توارت على ما يبدو في الوعي العام. وتفيد المقدمة

الأساسية لهذه النظرية أن المصريين القدماء كانوا أغبى من أن يستطيعوا بناء شيء بأنفسهم مثل الأهرام، ولذلك لا بد من أن يكون قد ساعدهم على إنجاز هذا العمل فريق مجامل متعاون من زوار الفضاء الخارجي. ونجد عينة من هذا الكلام في كتب كثيرة، منها الزعم أن الأهرام مقامة على مربع كامل دقيق بينما لم يكن في إمكان المصريين عمل أي شيء بمثل هذه الدقة الكاملة.

والتزامًا بالحكمة التي أشرت إليها، وهي مراجعة الوقائع، قضيت فترة بعد الظهر على مدى فصل ربيع ممطر في مكتبة جامعة فرجينيا أطلع وأنقّب في القياسات المساحية الفعلية للأهرام (في وسع القارئ الآن أن يجري ذلك على الأرجح عن طريق الحاسوب)، وتبين لي أن القاعدة أبعد ما تكون عن وصفها بالمربع الدقيق كامل الدقة، إذ إن شكل الضلع الأطول لقاعدة هرم خوفو الأكبر أطول بثماني بوصات من الضلع الأقصر. وإذا عرفنا أن طول الضلع نحو 1000 قدم، نجد أن هذا الإنجاز مهمة فريدة في عمل المساحة بالنسبة إلى رجال يمدون الحبال للقياس على أرض رملية فضاء، وهو ما فعله المهندسون المصريون. ولكن ما الرأي بالنسبة إلى هذه المهمة عند رجال المساحة اليوم؟

رغبة في الوصول إلى إجابة قصدت مُعلِّمًا يُعلِّم الهندسة المدنية؛ المقرر الدراسي الأولي للهندسة المعمارية الذي يرسل جيلًا بعد جيل من الطلاب لقياس الأضلاع الأربعة لحرم كليتهم. عرضت عليه خريطة مسح أرض الهرم، وسألته: إذا أرسلت طلابك لعمل خارطة مسح لمربع وعادوا إليك بهذه الخريطة، فما الدرجة التي تعطيهم إياها؟

أجاب: يرسبون.

وهذه هي المسألة في وضوح. إن الاعتقاد برواد فضاء أتوا من الفضاء الخارجي في العالم القديم معناه الاعتقاد بوجود سلالة من المخلوقات خارج كوكب الأرض تملك تكنولوجيا لوضع تصميم لسفينة فضائية تطير عبر النجوم، ولكنها ترسب في مقرر الهندسة المعمارية الأولي.

والسؤال الآن إذا كان إثبات خطأ العلم الزائف عن طريق كشف ومراجعة الوقائع بهذا القدر من السهولة، فلماذا لا يزال العلم الزائف قائمًا ومنتشرًا حولنا؟ ثمة إجابات كثيرة عن هذا السؤال. إحداها تتضمن حاجة بعض الناس إلى الاعتقاد في شيء أعظم منهم، وفي هذه الحالة يجدون ضالتهم في سلالة خيرة من الموجودات الفضائية يقدمون لهم يد المساعدة، بل وربما يحرسونهم. إجابة أخرى هي أن العائد المهني الذي يحصل عليه العلماء مقابل أن يقضوا وقتهم لإثبات هذا الزيف عائد قليل جدًا. ويكفي أن أقول إن أبسط مراجعة للتحقق من صدق زعم وارد

في كتاب كامل يضم بين دفتيه أخطاء من هذا النوع استغرق مني يومين عملاً متواصلًا. وإذا نظرت إلى الأمر من زاوية عملي ومصلحتي فربما وجدت أن من الأفضل لي أن أقضي اليومين عاكفًا على إنجاز أوراق بحث خاصة بي. لهذا لا غرابة إذ نجد العلماء المنطقيين مع أنفسهم يكتفون بالنظر إلى العلم الزائف ويهزون أكتافهم استهزاء، ثم يعود كل منهم إلى معمله

النشوء من عدم

أحيانًا يصبح العلم الزائف أكثر من مجرد إثارة بسيطة للمشاعر أو سبب للتسلية، ويبدأ يمثل خطرًا حقيقيًا على التعليم في أمريكا. وتشهد الولايات المتحدة منذ بداية تاريخها جهودًا متصلة للزج بشكل من أشكال إمكان نشوء شيء من العدم في المقررات الدراسية بالمدارس. وهذه الجهود مثال جيد لتلك الظاهرة المثيرة والمنذرة بالخطر على التعليم. وأعني هنا الأخذ حرفيًا بما قالته التوراة في سفر التكوين. ومحاولة تطبيق ذلك على كل الموجودات وكأنها بدأت كاملة ولم تمر بمراحل تطور. وتأخذ هذه المحاولات أشكالًا عدة منها على سبيل المثال ما نشهده أخيرًا من «رواج عبارة «المدير الذكي

جدير بالذكر أن لهذا التوجه تاريخًا طويلًا في الولايات المتحدة. علاوة على سلسلة ممتدة من القضايا المرفوعة لدى المحاكم، والتي دأبت عامدة على شن الهجمات تلو الهجمات على مقرر البيولوجيا الدراسي. وتشير هذه القضايا عادة إلى أول تعديل في الدستور، والذي ينص في جزء منه على أن «يحظر على الكونجرس تشريع أي قانون يدعم عقيدة معينة...»(****). وتبدأ سلسلة القضايا المرفوعة أمام المحاكم بمحاكمة سكوبس(****) العام 1926، عندما حاولت ولاية تينيسي تجريم تدريس التطور. وأعقبها قضية ماكلين ضد أركانساس العام 1982، وذلك عندما حاولت ولاية أركانساس أن تخلق توازنًا بين الاتجاهين المتقابلين: نظرية الخلق ونظرية التطور. ثم قضية إدواردز ضد أجويلار 1987 عندما حاولت لويزيانا الإقرار بضرورة تدريس النظريتين معًا أو رفضهما معًا. ثم أخيرًا العام 2005 قضية كيتسميلر ضد إدارة مدرسة منطقة دوفر التي حظرت قراءة نصوص دينية في قاعات الدرس

النص الكامل للتعديل الأول هو: «يحظر على الكونجرس تشريع أي قانون يدعم عقيدة معينة، أو تشريع أي قانون يمنع (****) ممارسة أي عقيدة، أو تشريع أي قانون يعطل حرية الرأي أو النشر الصحفي أو حق الناس في إقامة تجمعات سلمية أو إرسال عرائض إلى الحكومة للمطالبة برفع الظلم» [المحررة]

جون توماس سكوبس (1901-1979)، مدرس أمريكي مهم بتدريس التطور في مدرسة في تينيسي [المترجم] (****)

وتركز الحجج في أغلبية هذه القضايا في شأن تفسير التعديل الأول، ولكن كان للمسائل العلمية دور أيضاً. وهكذا تقدم لنا القضايا رؤية نافذة ومثيرة عن تطور (وعذراً عن الكلمة) التفكير الخاص بالنشوء من العدم على مدى القرن الماضي. وهذا بدوره يهيئ لنا فرصة لكي نرى كيف يمكن للجوانب المختلفة للمشروع العلمي أن تشارك في السجلات الدائرة

وسرعان ما قاد السجال إلى مشكلات جديدة مثل البرهنة على أن الأرض أقدم زمنًا مما هو شائع لدى العامة. مثال ذلك أننا نرى نجومًا على بُعد مليارات السنين الضوئية، ما يعني أنه ما كان لنا أن نراها لو كان عمر الأرض -كما يظن البعض- 6 آلاف سنة. وظهرت كتب تؤكد أن الأرض نشأت منذ عهد قريب وهو 6 آلاف سنة، لكن على نحو تظهر معه وكأنها قديمة. ونجد من تأليف فيليب هنري جوس، والمنشور العام Omphalos «هذا في كتاب بعنوان «أومفالوس 1857، أي قبل كتاب داروين «أصل الأنواع» بعامين 1859، أومفالوس هي الكلمة اليونانية للسرة، أو سرة البطن، ويعتمد الكتاب على حجة مفادها أن آدم ظهر إلى الوجود، وله سرة على الرغم من أنه لم ينشأ داخل رحم. كذلك وبالمثل ظهر الكون منذ نشأته في صورة يبدو فيها وكأنه أقدم تاريخًا من الحقيقة. ويستطرد الكتاب مؤكدًا أن المجرات البعيدة ظهرت إلى الوجود وقد سرى ضوءها في الفضاء الكوني منذ زمن سابق في الطريق إلى كوكب الأرض

ويفسر هذا المذهب كل المعطيات من دون استثناء، ولذلك لن أفنده على نحو ما فعلت مع مثلث برمودا ورواد الفضاء في العصور القديمة. ونلاحظ أن العلماء ورجال القضاء في رفضهم هذه الصورة من المحاجاة إنما اعتمدوا على قسمة أخرى مميزة للعلم وهي القسمة التي ناقشناها من قبل، وأعني بها قابلية إثبات الزيف. وطبيعي ألا توجد تجربة أو مشاهدة يمكن أن تبرهن لنا على بطلان مثل هذا التصور. ويمكن لأصحابه عند مواجهتهم أي اكتشاف علمي جديد أن يقولوا في جراءة: حسن، هكذا كان الكون قديمًا منذ النشأة، أو هذا هو المعنى المتضمن والذي خفي على الإنسان ثم كشفه العلم. ولكن مثل هذا النهج في المحاجاة لا يكشف عن قوة، وإنما يؤكد أنه ليس علمًا، لأن كل نظرية لكي نصفها بالعلمية لا بد أن تكون قابلة لإثبات الزيف

وظهر بعد فترة قصيرة ومنذ عهد قريب جدًا ما يسمى علم الوجود من العدم، وهو الفكرة واحتل هذا العلم المزعوم، intelligent design «نفسها في ثوب جديد وتحمل اسم «التدبير الذكي ناصية الموقف. ويتأسس هذا النهج الجديد على فرضية محورية مبناهها مفهوم ما يسمى بالتعقد وجوهر هذه الحجة أن الطبيعة بها منظومات تستلزم irreducible complexity غير القابل للاختزال

كثيراً من الأجزاء المختلفة والتي لا تعمل إذا ما فقدت جزءاً ومن ثم لم تكتمل جميع أجزائها معاً. ويشير أصحاب هذا الرأي إلى البكتيريا ذات السوط، وتجلط الدم، وإلى جهاز المناعة، ويرون فيها أمثلة للتعدد غير القابل للاختزال. وتمضي الحجة زاعمة أنه احتمال ضعيف جداً القول إن الانتخاب الطبيعي جمع كل أجزاء هذه المنظومات معاً وفي وقت واحد، وإنما جمعها تدبير ذكي. وأخذ هذا المنهج طريقه إلى القضاء للفصل في الدعاوى بشأنه، وذلك في مدينة دوفر في بنسلفانيا. وحدث أن صوت أعضاء مجلس إدارة المدرسة على أن يكون موضوع التدبير الذكي من بين موضوعات المطالعة في الصف التاسع العلمي. بيد أن المدرسين رفضوا ذلك تأسيساً على أن القرار يخالف التزامهم الذي يلزمهم بتعليم العلم الأفضل. وأقام أولياء الأمور دعوى أمام القضاء وانتقلت القضية إلى المحكمة الفيدرالية.

وليس هنا المكان المناسب لكي نعيد على القارئ الحجج العلمية الراضة، لكن يكفي أن نقول إن القاضي جاك جونز قدم شهادة علمية تعتبر حقيقةً إحدى روائع الحجج العلمية (3). وفند جميع الآراء غير العلمية بأسلوب قوي وذكي، ودحض الزعم بأن المنظومات الطبيعية تكشف عن تعدد غير قابل للاختزال، وتناول هذا الزعم بالتنفيذ نقطة نقطة.

ويلاحظ هنا أن عبارة مثل «تتضمن الطبيعة منظومات تكشف عن تعدد غير قابل للاختزال» تبدو في ظاهرها وكأنها فرض علمي جيد، يمكن اختباره عن طريق الملاحظة. ولكن إذا ما اختبارناها اتضح زيفها وهي مثال لنظرية زائفة في حقيقتها، وإن كانت في ظاهرها قابلة لإثبات «زيفها، وتشبه هنا نظرية «الأرض مسطحة».

النتيجة

ختاماً، هناك عدد صغير نسبياً من الخصائص التي تحدد لنا ماهية المشروع الذي نسميه علمًا. تتضمن الأفكار الأساسية ملاحظة العالم والاختبار الدائم للنظريات في ضوء الطبيعة، والالتزام بشرط أساسي هو أن كل ما نسميه علمًا لا بد أن يكون قابلاً للاختبار.

ويبدو في ضوء ما سبق أن هذه هي أبسط الشروط اللازم توافرها في أي جهد فكري، والذي حقق مثل هذه التغيرات الهائلة في وضع البشرية. والسؤال كيف تسنى لمثل هذا المنهج البسيط أن يحدث ثورة في طبيعة الوجود البشري وأن ينتج أشكالاً جديدة من الثروة والرخاء؟ وهذا هو موضوعنا في الفصل السابع. لكن قبل أن نشرع في الإجابة أود أن أعرج على سؤال: كيف وفر

لنا هذا المنهج بنية معرفية يتعين أن يلم بها كل مواطن؟ أو أقول بعبارة أخرى، سوف أتناول
موضوع الثقافة العلمية أو لنقل محو الأمية العلمية

* * *

إن قليلاً من القدرة على التذكر لن يضر أحدًا، شريطة ألا يهبط مستوى العملية إلى حد ممارسة تعلم من «دون فهم».

المؤلف

محو الأمية العلمية: ماذا يعني؟

القسط الأكبر من هذا الكتاب سوف يقترن بمناقشة أفضل السبل لمحو الأمية العلمية، أو للتزود بالمعارف الأولية العلمية من خلال نظامنا التعليمي. لذلك نرى لزاماً أن يتوافر لدينا تعريف محدد وواضح لمعناه قبل أن أبدأ الحديث عن برامج تنفيذ ذلك. وأود أن أشير إلى أنني سوف أعرض لمحو الأمية العلمية بأسلوب غير مباشر، ذلك لأن سياق التعريف الذي أقدمه يعادل في أهميته أهمية التعريف ذاته. وجدير بالذكر أنني أرى محو الأمية العلمية لبنة واحدة في بنية أكبر نسميها محو الأمية الثقافية، أو الإحاطة بالمعارف الأساسية للثقافة، لكن هذه اللبنة لها قضاياها ومشكلاتها الخاصة بها. لذلك فإنني أعتزم البدء بالموضوع الأوسع أفقاً، ثم أركز الاهتمام بعد ذلك على هذا القطاع من الإحاطة بالمعارف الأساسية للثقافة وثيقة الصلة بالعلم والتكنولوجيا، والتي لن يجانبنا الصواب إذا وصفناها بعبارة محو الأمية العلمية. وسوف أناقش في فصول تالية أسباب أهمية محو الأمية العلمية، وأقترح سبل تضمينه في نظامنا التعليمي.

المعارف الأساسية الثقافية

محو الأمية العلمية هو توافر المعارف التي يفترض أهل العلم في زمان ومكان محددين أنها متوافرة لدى غيرهم من الناس.

مثال ذلك أن صحف الغد يمكن أن تتضمن مقالاً عن مكسيكو سيتي. ونلاحظ أن الكاتب أو المحرر لا يقول: «في مكسيكو سيتي اليوم، أه أذكر بالمناسبة أن مكسيكو سيتي هي عاصمة المكسيك، وهو بلد يشترك مع الولايات المتحدة في حدودها الجنوبية». لن يقول أحدهما ذلك، لأن كلاً منهما يفترض أن قراءه يعرفون جيداً أين تقع مدينة مكسيكو سيتي، وأين تقع المكسيك، علاوة على بعض المعلومات عن العلاقات الحالية وكذا في الماضي بين المكسيك والولايات

المتحدة. ونظرًا إلى أن المحرر أو الكاتب يفترض أن القراء على علم مسبق بهذه المعارف، فإن أحدهما لن يجشم نفسه مهمة إخبار قرائه بشيء عنها. ويعني هذا بدوره أن القراء إذا كانوا على غير علم بهذه المعارف فذلك من سوء حظهم، ولا شيء آخر، ومن ثم لن يعرفوا شيئاً عن موضوع المقال.

وهنا نقول إن جميع المعارف صغيرها وكبيرها التي يفترض الناس أنها متوافرة لدينا هي ما نسميه المعارف الأساسية الثقافية، وكم هو مهم أن ندرك أن ما أتحدث عنه هنا ليس سوى حقيقة تجريبية معيشة خالصة. وسواء قبلنا هذه الافتراضات أم لم نقبلها، نقول إنها واقع معيش الآن، وإن من يفتقر إلى أهم لبنات هذه المنظومة من المعارف لن يستطيع فهم بعض عناصر المناقشة -وربما هي العناصر المهمة- التي تجري على نطاق المجتمع باتساعه.

جدير بالذكر أنني حين أريد تأكيد هذا بالنسبة إلى من يعتمدون مثل هذه الافتراضات في الحياة الواقعية، فإنني غالباً ما ألجأ إلى استخدام الرسوم التعبيرية المتحركة «الكارتون» التي أستمدّها من منشورات معينة مثل صحيفة «النيويورك». ويوضح أفضل هذه الرسوم التعبيرية في نظري رجلين ملتحيين يرتديان رداً عريضاً طويلين، ويحيط بهما أزواج من الحيوانات. ويقف الجميع على متن قارب خشبي كبير، وقد بدا واضحاً أنه يوشك أن يغرق. وتقرأ العبارة التالية! «المكتوبة كشعار للرسم» كنت أعرف أن طيور نقاري الخشب هذه ستكون مشكلة

نعم، إنه رسم كارتوني هزلي، بيد أنني أود من القارئ أن يفكر لحظة في جميع المعارف التي افترض رسام الكارتون أنك على علم بها. إنه لم يقل أي شيء عن نوح أو عن إصباح التكوين في التوراة أو عن الأربعاء يوماً والأربعين ليلة من المطر المدمر ولا حتى عن الحيوانات المجمعة من كل زوجين اثنين، إنما افترض أنك تعرف هذا كله. وطبيعي أن الفكرة الأساسية هنا هي أنك إذا لم تكن تعرف فلن تكون لديك أي فكرة عن موضوع رسم الكارتون. وعلى الرغم من أن فهم رسم الكارتون قد يبدو عادياً فإن كل اتصال، سواء كان عادياً أو مبتدلاً أو جاداً، يتضمن النوع نفسه من الافتراضات التي يتأسس عليها. وإذا كان الحديث عن شيء مثل قضية سياسية معاصرة بدلاً من رسم الكارتون، فإن عدم فهم الموضوع قد تترتب عليه نتائج خطيرة، سواء بالنسبة إلى الفرد أو بالنسبة إلى المجتمع ككل.

ورغبة مني في تأكيد حقيقة مؤداها أنني أقدم زعمًا تجريبياً معيشاً، ليسمح لي القارئ بأن أقص عليه تجربة عشتها منذ عدة سنوات. شغلت سنوات طويلة منصب مستشار علمي ومحرر

مشارك لمجلة سميثونيان ماجازين، وهي صحيفة تصل إلى أيدي عدة ملايين من الأمريكيين ذوي المستوى التعليمي الرفيع. وحدث ذات يوم، بينما كنت أتناول طعام الغداء مع أعضاء هيئة التحرير، أن قررت أن أجري معهم تجربة صغيرة.

سألتهم: هل لي أن أستخدم مصطلح «الانطباعية» من دون تفسيره للقراء؟

طبعًا، بكل تأكيد، إنهم يقينًا يعرفون معناه.

وهو كذلك، وماذا عن «التعبيرية التجريدية»؟

لا، لا، يجب تفسيرها.

أو لنقل بعبارة أخرى، كان هناك خط فاصل واضح في عقولهم بين ما هو معروف مسبقًا لدى قرائهم وما يتعين بيانه لهم. وحرصت منذ ذلك الوقت على أن أجري هذا التمرين نفسه مع جميع الناس على اختلاف مشاربهم ممن يشاركون في الاتصال بال جماهير، ناشرين وكتابًا ومذيعين وغيرهم. ووجدت أن كلاً منهم لديه الخط الفاصل ذاته في عقله. وتبين لي أن بعضًا من رصيدهم الذهني يمثل، بلغتي الخاصة، فهمًا واضحًا لحدود المعارف الأساسية للثقافة.

وطبيعي أن هذه الحدود يمكن أن تختلف بدرجة ما من صحيفة إلى أخرى. لكن الاختلاف ليس كبيرًا جدًا. وحرري أن أشير إلى أن إحدى وسائلنا المفضلة لتوضيح هذه الفكرة أن أشير إلى مقال ظهر في صفحات الرياضة من صحيفة «يو إس إيه توداي»، وهو المكان الذي قد لا يتوقع أكثرنا أن يجد لدى قرائه مستويات عالية من المعارف الأساسية الثقافية، ويعرض المقال مشادة حدثت في أثناء لعبة الهوكي، وبدأ الشجار بجملة تقول: «عندما يلتقي هؤلاء الرجال في ساحة التحدي فلن يكون الأمر شأن جلوس سقراط وأفلاطون ليتحدثا تحت ظل شجرة». هكذا كانت بالنص. ولم يأت ذكر الإغريق أو الفلسفة أو عصر أثينا الذهبي. وافترض الكاتب ومحرووه أن الإشارة هنا سوف تستحضر إلى الذهن صورًا لفلاسفة ملتحين في لباس روماني فضفاض، يعمدون في هدوء وسلام إلى استكشاف الجوانب المعقدة لموضوعات فكرية تخص الصفوة من أهل الفكر. وافترضوا كذلك أن العبارة لها جاذبيتها النابعة من التقابل بين هذه الصور وحال الرجال الذين يتبادلون الضربات القوية في ساحة اللعب.

جدير بالذكر أن مدخلي إلى مفهوم المعارف الأولية الثقافية جاء عبر أسلوب غريب. ذلك أنني حين كنت جالسًا في مكتبي في جامعة فرجينيا جاءتني مكالمة هاتفية من زميلي «إي. دون

هيرش». وكان «دون» أستاذًا للغة الإنجليزية وقضى شوطًا كبيرًا في تطوير المفاهيم الأساسية النظرية لمجال تخصصه. وها هنا وجد نفسه وصل إلى نقطة يريد عندها الإفصاح صراحة عن المحتوى. قصد مكتب العميد يسأل دعمًا للمشروع، وسأله العميد سؤالًا بسيطًا: «هل يشاركك في هذا أي من العلماء؟»، وسأله السؤال إلى المكالمة الهاتفية. وكان رد فعلي الأولي وفق ما عرض «دون» أفكاره لي أن قلت: «إيه، هذا مشروع محكم دقيق. حري أن نتمكن من إنجازه ونحن نحتسي ذات مساء زجاجتين من شراب البيرة». وهأنذا الآن أراني وبعد عشرين عامًا من التطوير والدراسة الجادة أتساءل في دهشة أحيانًا، ماذا كنت سأفعل لو أنني عرفت كيف كان سيتطور المشروع ويكبر.

على أي حال، أضاف «دون» إلينا جو كيت، المؤرخ البارز، وانبرينا ثلاثتنا للإجابة عن سؤال بسيط: إذا افترضنا أن ثمة -حقيقة- جملة من المعارف التي تمثل المعارف الأولية الثقافية الأمريكية في الثمانينيات (آنذاك)، فما تلك المعارف تحديدًا التي تشملها هذه البنية؟ وتبين لنا في النهاية أن الدفاع النظري المجرد عن شيء ما مثل مفهوم المعارف الأساسية الثقافية هو أمر مغاير ومختلف عن أن يكون عندي شيء واضح أشير إليه، وأزعم أنه الشيء الذي يتعين أن يعرفه كل امرئ على السواء.

كان أول شيء أدركناه هو أن المعارف الأولية الثقافية ليست مجرد مجموعة من الحقائق (وهي شكوى متكررة ضدنا)، إنها مزيج متنافر من الأشياء، حقائق وأفكار وارتباطات وصور. ووصل بي الأمر إلى أنني تصورتها أشبه بنوع من العناصر المركبة التي تؤلف معًا مجموعة المعارف، حيث تتوحد وتتكامل فيها أفكار ومفاهيم جديدة.

وشرعت أيضًا في التفكير في المعارف الأولية الثقافية (والمجال الفرعي للمعارف الأولية العلمية) باعتبارها شيئًا يشبه كود أو شفرة البناء للمنظومة التعليمية. إنك إذا نظرت إلى كود البناء في مجتمعك فستجد قوائم طويلة من القواعد والقوانين، مثال ذلك أنك إذا كنت تريد نافذة بحجم معين في هذا الجدار فإن العارضة الخشبية فوقها ستكون بالحجم نفسه. وإذا أردت مقبسًا للتيار الكهربائي في هذا الموضع تحديدًا، فإنه يتعين توصيل الأسلاك بطريقة معينة، وهكذا. معنى هذا أن كود البناء يحدد المعيار الأدنى للمباني، ولا يمكن بناء أي شيء في المجتمع من دون هذا المعيار.

وسوف أؤكد بالأسلوب نفسه، أن ليس لامرئ أن يكمل نظام التعليم الأمريكي من دون تحصيل عناصر المعارف التي تحددها المبادئ الأساسية الثقافية. لكن مثلما يستطيع الناس (وغالبًا ما يفعلون) تشييد أبنية تتجاوز كود البناء المحلي، فإننا لا نرى سببًا يبرر توقف التعليم عند استيفاء عناصر المعارف الأساسية للثقافة. وأراني أتوقع، خصوصًا على مستوى الجماعة، أن تواصل مهارات المستوى الأعلى عملية التعلم. ووفق هذا المخطط تصبح المعارف الأساسية الثقافية هي القاعدة والأساس للذات ينبنى عليهما كل ما عدا ذلك من عملية التعلم عند الشخص وأود أن أوضح أهمية المعارف الأولية الثقافية بمثال أقتبسه من هيرش. لنفكر معًا في النص التالي:

عليك أولاً وضع الأشياء في أكوام. قد يكون لديك أكثر من واحد. ويتوقف الأمر هنا على العدد الذي يتعين عليك تجهيزه، ثم يجب عليك تهيئة المعدات، لا يكاد يتم كل ذلك حتى يكون كل شيء على ما يرام.

إذا كنت مثلي في الحال نفسها التي كنت عليها وقت أن صادفت هذا النص فسوف يواتيك على الأرجح شعور بالحيرة الذهنية، ترى أي شيء في هذا العالم يحدثنا عنه؟ يبدو الأمر كله بلا معنى. ولكن دعني أزوّدك بعناصر المعارف اللازمة لك لفهم هذا النص: أتخيل عنوانًا للنص مثل «إعداد الغسيل»، ذلك الفهم المفاجئ الذي يواتيك هنا يؤكد أهمية المعارف الثقافية الأساسية أكثر من أي حجة أخرى أسوقها.

ويوجد، كما تبين لنا، قدر كبير من البحوث في علم نفس التعلم تدعم فكرة أن الناس تتعلم على نحو أفضل، عندما تكون بمقدورهم ملاءمة معلومات جديدة مع العناصر الموجودة من المعارف. وحقيقة الأمر أن هذه الخاصية المميزة للعقل البشري هي التي سعى دون هيرش إلى أن يستعيدها إلى الذاكرة بينما كان مستغرقًا في سرد ذكرياته عن اكتشافه للمعارف الأولية عندما good grammar «الثقافية، إذ كان يبحث عن الدور الذي يمكن له أن يسميه «النحو الجيد أعطى مجموعات منتقاة من الطلاب نصوصًا مكتوبة بلغة إنجليزية رديئة وجيدة، ثم اختبرهم بعد ذلك ليعرف عاملي السرعة والفهم. وطبيعي أن يتوقع القارئ أنه قد تبين له أن الطلاب أجادوا على نحو أفضل مع النصوص المكتوبة بإنجليزية جيدة. بيد أنه أصيب بصدمة في كلية حكومية في ريتشموند في فرجينيا، حين وجد أن أحدًا من الطلاب لم يحقق إنجازًا جيدًا جدًا مع النصوص

بغض النظر عن مدى جودة اللغة الإنجليزية لأيّ منها. وتضمن النص تفاعلاً بين ستونوول جاكسون وجيفرسون ديفيز، ولحظ عندما أجرى لقاء مع الطلاب أن أحداً منهم لا يعرف هذين الشخصين. ولنا أن نقول، تأسيساً على المثال السابق، إنهم لا يعرفون شيئاً عن عناصر المهمة، مما جعل من العسير عليهم فهم الفقرة التي طلب منهم الباحث قراءتها.

جدير بالذكر أن كتاب هيرش «المعارف الأولية الثقافية» تضمن وقت صدوره -العام 1987- حواراً طويلاً عن الأدب الذائع الذي يدعم فكرة أن من لديهم إحاطة جيدة بالمكونات الأساسية للمعرفة يتفوقون في تحصيلهم التعليمي على من هم دونهم إحاطة. ولعل ما يثير جدلاً أكثر هو أن الكتاب تضمن أيضاً قائمة بالمصطلحات التي تصورنا، وفق تفكيرنا، أنها تمثل الحد الأدنى من المعارف التي يتعين توافرها للأداء الجيد داخل المجتمع الأمريكي. وأصدر بعد ذلك كل من هيرش وكيت وتريفيل «قاموس المعارف الأولية الثقافية»، الذي تضمن قائمة موسعة مع تعريفات وبيان للروابط المشتركة. والملاحظ أن كلا الكتابين حققا نتائج جيدة منذ أن فرغنا منهما على الرغم من أننا اضطررنا إلى الاتصال بأكثر من 20 ناشراً قبل أن نجد ناشراً واتته الشجاعة اللازمة ليوافقنا الرأي ويقبل التحدي. وأشعر بالدهشة (والامتنان) دائماً كلما خطوت داخل مكتب ما لأرى «القاموس» قابلاً فوق رف، وقد بدا واضحاً أن كثيرين قد تفحصوه.

ولم تكذ أفكارنا تذيع وتصبح معروفة للجميع حتى حدث ما توقعناه، وهو أن الصحافة الأكاديمية أثارت اعتراضات جادة ضد مجمل مشروع المعارف الأولية الثقافية. وكثيراً ما صادفتني هذه الاعتراضات منذ ذلك الحين حتى أصبحت أتناولها وأعالجها بشكل عادي في محاضراتي، بدلاً من أن أنتظر إلى حين إثارتها ضدي في أثناء جدال. وأعرض فيما يلي الاعتراضات الثلاثة الرئيسية وإجاباتي عليها.

ألا تختص المعارف الأولية الثقافية بتذكّر الوقائع فقط؟

كما أسلفت سابقاً تتضمن بنية المعارف المسماة المعارف الأولية الثقافية ما يتجاوز كثيراً الحقائق التي تشملها. نعم، إنها تتضمن حقائق بطبيعة الحال، لكنها تشمل أيضاً على مفاهيم وتعميمات ومبادئ أساسية وروابط وقوانين. لكن لنفترض أنها ليست كذلك، أي لنفترض أنها مجرد مسألة تذكّر فقط لكم كبير من الحقائق، هل في هذا ما يخيفنا؟

عندما كنت صبياً أشب وأترعرع وسط ضاحية عمالية في شيكاغو، اعتاد الأطفال لعب لعبة اسمها كرة الحي. كانوا يلعبونها مستخدمين عصا البيسبول وكرات التنس. وكانت الفكرة أن يختار كل طفل فريقاً قومياً ليمثله (لقد شببت في حي من المدينة ورثنا فيه فريق الكبس والدوري القومي)، ويتعين على الصبي الذي يتجه ليضرب بالعصا أن ينتحي جانباً وراء فريقه الذي يمثله ويضرب بيده اليمنى أو اليسرى وفق براعته في استخدام يديه. وهكذا كان كل صبي، وفق ما هو متوقع، يعرف ترتيبه داخل الفرق القومية، ويعرف إن كان أيمن أم أعسر في استخدام يديه. وطبعي أن تذكر هذه القوائم لم يكن عملاً صعباً، بل هو جزء من حياتنا في ضاحيتنا والذي تحقق استيعابه بالمعايشة المشتركة.

والفكرة هنا أن الصبية سيتذكرون بطبيعة الحال كل ما يتعلق باللعبة وفريق اللعب على اختلاف أشكاله وترتيب كل منهم في اللعب، وأشكال السيارات وحياة نجوم السينما... إلخ. ترى ما الخطأ في استيعاب هذه المهارة مما يجعل بالإمكان تذكر شيء مفيد؟ إن قليلاً من القدرة على التذكر لن يضر أحداً، شريطة ألا يهبط مستوى العملية إلى حد ممارسة تعلم من دون فهم.

وأقول، من باب التسجيل، إنني لا أتذكر مرة واحدة خلال عملي احتجت فيها إلى معرفة ترتيب اللعب لأي فريق قومي، سواء في الخمسينيات أو بعد ذلك.

ألا يُغفل هذا الطبيعة التعددية للمجتمع الأمريكي؟

ليسمح لي القارئ بأن أستخدم مثلاً من أحداث طفولتي لمناقشة هذه الفكرة. شببت في ضاحية متعددة الأعراق، حيث للمرء أن يسمع في طرقاتها الحديث بالتشكيكية وبالإنجليزية على السواء. واعتدت الذهاب في النهار إلى مدرسة عامة، حيث تعلمت هناك بالإنجليزية عما سميته المعارف الأولية الثقافية الأمريكية. بيد أنني اعتدت أن أذهب مرتين بعد الظهر من كل أسبوع إلى بناية مختلفة تقع في ناحية مختلفة من المدينة، حيث أتعلم بلغة مختلفة أشياء عن الثقافة التشكيكية والمورافية التي هي إرثي الشخصي.

أعطتني هذه الخبرة رؤية واضحة عن أمريكا ذات الثقافات المتعددة. وأصبحت أتصور البلد وكأنه تجمع من بيوت بُنيت فوق ساحة مشاع مترامية الأطراف. وتصورت كأن لكل بيت فناءه الخلفي، وأن اللغة في بعض هذه الأفنية مثل فناء بيتي، يمكن أن تكون أي شيء غير الإنجليزية. ومن ثم فإن هذا الفناء الخلفي هو مقصدك حيث تعيش من هم مثلك. وإذا شئت التحدث إلى

بعض من يعيشون في الأفنية الأخرى -ناس على غير شاكلتك- فإن عليك الخروج إلى الساحة المشاع المشتركة، إذ هذه هي الساحة التي يتواصل فيها جميع الأمريكيين، وإن هذا النوع من التواصل يستلزم قاعدة من المعارف المشتركة، وهذه هي المعارف التي سميتها المعارف الأولية الثقافية. ووفق هذا المعنى، فإن المعارف الأولية الثقافية هي كل ما يتعلق بما هو مشترك مع الإحاطة السطحية بما يتعلق بالأفنية الخلفية.

وإذا ما تصور القارئ صورة مجتمع متعدد الثقافات مثل المجتمع الذي رسمت صورته فيما سلف، فإنه سرعان ما يدرك أنه من دون المعارف الأولية الثقافية المشتركة التي تربط بين مكوناته المختلفة فإنه سوف يتفكك حتمًا، إذ هنا سيفقد الناس ممن يقطنون في الأفنية المختلفة أي وسيلة للتحدث بعضهم مع بعض. وعندي أن المعلمين والباحثين عمدوا على مدى عقود طويلة مضت إلى تركيز انتباههم على الأفنية وأغفلوا ما هو مشترك. ومن ثم فإن الانتباه إلى المعارف الأولية الثقافية والعلمية هو محاولة لتعويض وإصلاح ما أغفلناه سابقًا.

ألا تتغير المعارف الأولية الثقافية بتغير الزمان والمكان؟

بلى، تثار هذه القضية عادة للدفع باستحالة التحديد الفعلي لمحتوى المعارف الأولية الثقافية، حتى وإن سلمنا بحقيقة وجودها. وتوجد الآن لحسن الحظ بشأن هذه القضية معلومات متراكمة. يمكننا أن ننقلنا إلى إجابات كمية عن الأسئلة المتعلقة بالتغيرات الزمانية والجغرافية. والمعروف أن «قاموس المعارف الأولية الثقافية» صدرت طبعته الأولى في العام 1988، ونحن الآن بصدد إصدار الطبعة الثالثة. وصدرت الطبعة الثانية في العام 1993. وحفرت إلى إصدارها التغيرات السياسية الواسعة المقترنة بانتهاء الإمبراطورية السوفييتية، إذ فجأة أصبح من الأهمية البالغة كمثال أن نعرف أين تقع كازاخستان. وصدرت الطبعة الثالثة في العام 2002، وحفز إليها بشكل أساسي الانفجار الذي شهدته تكنولوجيا المعلومات والبيولوجيا الجزيئية في التسعينيات من القرن العشرين. معنى هذا أنه أصبح من المتعين إضافة مصطلحات جديدة مثل الاستنساخ والخلية الجذعية وصفحة الويب.

وها قد أصبح لدينا، بفضل هذا التاريخ، سجل طويل عن تطور المعارف الأولية الثقافية. ويبدو في الأساس أنه يتغير بمعدل يكاد لا يقل عن 1 في المائة سنويًا -وهو المعدل نفسه لتراكم

التغيرات في اللغة الإنجليزية نفسها- وهكذا فإن متابعة المعارف الأولية الثقافية ليس أصعب من ملاحقة التغيرات الحتمية التي يشهدها قاموس عادي.

وأذكر بهذه المناسبة أن خبرتي عن المشاركة في هذه المراجعات هيأت لي رؤية نافذة بشأن الاعتراض الأول الذي أثاره البعض، أعني الاعتراض الذي يثير مسألة «الواقع». جدير بالإشارة هنا أن ما أذهلني أنني اكتشفت أن عددًا من المدخلات؛ أي مفردات أقسام العلم، تتعين مراجعتها بسبب الأحداث التي شهدتها الإمبراطورية السوفييتية السابقة. مثال ذلك مصطلح قمر أو تابع إلى الأمم التابعة؛ أي cross reference قمر اصطناعي في مدخل علم الفلك إذ وجدنا إحالة تقاطعية الدائرة في الفلك من بلدان شرق ووسط أوروبا. (ولتوضيح الأمر للقراء الشباب أقول إن هذه المجموعة من الأقطار نشير إليها الآن بعبارة أوروبا الجديدة). وأصبح لزامًا إسقاط هذه الإحالة التقاطعية. وهذا مثال جيد عن الطبيعة المتداخلة للمعارف في بنية المعارف الأولية الثقافية.

ونظرًا إلى تباين المعارف الأولية الثقافية من بلد إلى آخر، لذلك نجد أن هناك أيضًا معلومات في القاموس يمكن تغييرها لتواكب الأحداث بعد أن تُرجم القاموس إلى عدد من اللغات الأجنبية. ويعمد الناشر، لإنجاز هذه العملية، إلى تشكيل فريق عملي من الباحثين لجعل النص ملائمًا للقراء. وتحققت نتائج متميزة جدًا وفق ما توقعنا. لقد ظلت أقسام العلم من دون تغيير كبير (إذ إن العلم في النهاية لا يحترم الحدود القومية)، هذا بينما أقسام الأدب والتاريخ صادفت قدرًا من التعديل. وأذكر كمثال أن الطبعة السويدية من القاموس تضمنت مفردة مشروحة عن جوستافوس أدولفوس، ولم تتضمن جون آدمز.

وهكذا لي أن أقول في الختام، مع قدر من الثقة، إن المعارف الأولية الثقافية تتغير حقًا مع الزمن، ومن مكان إلى مكان، لكنها تتغير بطرق ووسائل يمكن التنبؤ بها والتحكم فيها.

المعارف الأولية العلمية

أحد السبل للنظر إلى ألف باء المعرفة العلمية هي القول إنها جزء من ألف باء الثقافة والمتعلقة بالعلم والتكنولوجيا. وإذ نقول ذلك يصبح من المتعين أن نقر بوجود فارق طفيف بين هذين النوعين من المعارف الأولية. وتنبنى دراسة ألف باء المعرفة الثقافية على فكرة مفادها أن المواطنين بحاجة إلى معرفة أشياء معينة، لأن آخرين سيقولون إنهم على علم بها. بيد أننا حين نتجه إلى ألف باء المعارف العلمية فإن دراستنا سوف يطرأ عليها بعض التغيرات. ونحن لا نزال

هنا نتحدث عن المعارف التي يحتاج إليها الناس، ولكن سبب الحاجة إليها هنا مختلف. إننا حين نتحدث عن المعارف العلمية التي يتضمنها الإطار المعرفي المنشود نجد لزاماً أن نسأل: ما المعارف التي يحتاج إليها الناس لكي يتمكنوا من المشاركة في مختلف أشكال الحوارات التي سوف تشملهم كمواطنين. ونلاحظ هنا أن الحاجة إلى المعرفة لا تزال هي الحجة الأساسية، لكن سبب تلك الحجة يطرأ عليه تحول طفيف مع انتقالنا من الإنسانيات والعلوم الاجتماعية إلى العلوم الطبيعية. ويبدو واضحاً أن الحجة في الحالة الأولى تنبني على واقع عملي هو أن الناس ستكون لديهم افتراضاتهم بشأن ما تعرفه أنت. لكن الأمر في الحالة الأخرى يتعلق بمسائل من نوع خاص من شأنها على الأرجح أن تظهر مؤثرة في حياة المرء.

وتأسيساً على هذه الحقيقة، نجد أن بوسعنا البدء بوضع تعريف يحدد معنى ألف باء المعارف العلمية. إن ما يحتاج الناس إلى معرفته عن الكون الذي نعيش فيه هو المبادئ الأساسية التي يعمل بمقتضاها. واعتدت كثيراً في أثناء تدريسي أن أدمم محاولتي لغرس وتلقين هذه المبادئ، بأن أزود طلابي بمجموعة من أسطوانات «دي في دي» المتضمنة لموضوعات ذهنية، والتي يفسر كل منها جانباً من جوانب العالم من حولنا. مثال ذلك أنه إذا حدث أن صادف أحد الطلاب مادة إخبارية عن الخلايا الجذعية، فإنه يستخرج أسطوانة الـ«دي في دي» التي تحمل عنوان «خلايا» ويتصفح القسم الخاص بالنمو وتجليات الجين. وهكذا تتوافر لدى الطالب الخلفية العلمية اللازمة لفهم ما يتعلق بالمادة الإخبارية. معنى هذا عملياً أن الطالب أو الطالبة عرف مفتاح «قوائم وبنود المسألة» التي استخدمناها لتوضيح مفهوم ألف باء الثقافة، أو المعارف الأولية الثقافية.

يقودنا هذا إلى تعريف عام لمعنى ألف باء المعارف العلمية:

المعارف الأولية العلمية هي الإطار المعرفي اللازم لكي يتوافر للمرء فهم كافٍ عن الكون، بحيث يمكنه التعامل مع القضايا التي تعرض لنا في حياتنا، سواء عبر الأخبار أو في غيرها.

وليسمح لي القارئ بأن أتوسع في هذا التعريف في ضوء مثال أقدمه. إنني وأنا أسطر هذا الكتاب يعود الجدل ليحتدم ثانية بشأن موضوع الخلايا الجذعية. وحري أن أشير إلى أن هذا الجدل، كما سوف أوضح في الفصل 3، ليس متعلقاً أولاً وأساساً ولا حتى في الغالب الأعم

بالعلم، بل يتضمن الطريقة التي ينظر بها الناس إلى قيمة الحياة البشرية، وكذا الإجابة عن السؤال: متى يكتسب الحميل أو الجنين صفة وقيمة الكائن الحي؟ لكن الفكرة الأساسية هنا هي أن القارئ إذا لم يكن يعرف ما الخلية الجذعية أو لا يفهم لماذا قد نحتاج إلى استخلاصها من خلايا الأجنة، فإنه ببساطة لن يستوعب موضوع الجدل، ولن يشارك في فهم ما يدور. إن القارئ في هذه الحال سيكون عملياً، أشبه بمن يقرأ النص الذي أسلفنا ذكره ولا يعرف شيئاً عن بنود عملية الغسل. وأدعو القارئ إلى تناول أي جدل دائر آخر -مثل الاحتباس الحراري والأنواع المهددة بالانقراض واستخدام المبيدات- وسوف يتضح له أن أي شخص سيكون بحاجة إلى خلفية علمية محددة لكي تتسنى له المشاركة الجدية والواضحة في الحوار القومي بشأن المسألة.

وطبيعي أن هناك، كما سوف أبين في الفصول التالية، أسباباً أخرى تبرر الحاجة إلى توافر الإطار الثقافي الذي نتحدث عنه، بيد أنه سيفيد كتعريف أولي. إن المحتوى الفعلي للمعارف الأولية العلمية (والذي يمكن أن نسميه تعريفاً إجرائياً) يمكن تحديده بعدد من الوسائل. مثال ذلك أنني في الفصل 12 أضع خطوطاً عامة لتعليم المعارف الأساسية العلمية تأسيساً على المبادئ الأساسية الكبرى التي تربط الرؤية العلمية للعالم بعضها ببعض في بنية واحدة. ويمكن للمرء، في المقابل، أن يتحول إلى «قاموس المعارف الأولية الثقافية» الذي يشتمل على قائمة تفصيلية للمفاهيم ذات الصلة بالمعارف الأساسية العلمية منشورة في 134 صفحة. بيد أننا عند هذه النقطة لسنا في حاجة إلى النزول لهذا المستوى من التخصيص.

ونحن حين ننتقل من تعريف نظري كهذا إلى المشكلات العملية التي تتضمنها عملية تعليم المعارف الأولية العلمية نجد أنفسنا داخل موقف كلاسيكي من «الأخبار الطبية والأخبار السيئة». ونجد من الأخبار الطبية، على عكس الحال في المباحث العلمية الأخرى، قلة الاختلاف في الرأي إلى حد كبير جداً بين العلماء بشأن ما يؤلف لب مبحثهم العلمي. مقال ذلك أنك ستبذل جهداً شاقاً بحثاً عن يدفح بأن قوانين الحركة عند نيوتن أو قوانين الديناميكا الحرارية لا تمثل جزءاً محورياً لفهم الكون. وهنا يحظى معلمو العلم بميزة تميزهم على غيرهم من معلمي الأدب الإنجليزي كمثال، حيث يمكن أن نشهد معارك لا نهاية لها بشأن تحديد أي الأعمال الروائية تندرج تحت قاعدة ما وأيها يخرج عنها.

لكن ثمة أخبارًا سيئة، ويشهد عليها واقع أن مجالات أخرى في المقررات الدراسية أخفقت في تخريج مواطن على حظ وافر من المعارف الثقافية. كما نجد أن العلوم فعلت ما هو أسوأ. وليس لي القارئ بالعودة إلى خبرة أخرى من خبراتي مع مجلة سميثونيان لتوضيح هذه النقطة. اعتادت المجلة -كما ذكرت- مخاطبة مستوى رفيع من الجمهور المتعلم. ومع هذا لم يراودني حلم أن أستخدم كلمة مثل «بروتون» في مجلة سميثونيان من دون كتابة توضيح لها. «...واعتدت دائمًا أن أكتب: «البروتون هو أحد الجسيمات التي تؤلف نواة الذرة».

وأنا أسمي هذا النهج العبارة الوصفية الحاسمة، لأنها تكشف للقراء عن اعتقادي أنهم لا يعرفون معنى الكلمة، ومن ثم فإنهم بحاجة إلى مساعدتي لفهم ما يجري. وأعتقد أن أحد السبل لمعرفة ما إذا كان كاتب ما يرى أن مصطلحًا بذاته يمثل جزءًا من المعارف الأولية الثقافية أم لا هو أن نتبين ما إذا كان الكاتب اعتاد أن يقرن المصطلح بعبارة وصفية حاسمة أم لا. (وأقول هنا من باب التسجيل إن زوجتي اعتادت أن تقول لي إن المصطلح العلمي لمثل هذه العبارة هو كلمة (البديل).

وطبيعي أن بؤس حالة المعارف العامة عن العلم له تأثيراته المهمة في تعريف المعارف الأولية العلمية، ذلك لأنه يستلزم منا أن نكون أكثر التزامًا بالنص هنا عما هي الحال، كمثال في مناقشة الأدب الإنجليزي. وإذا كان لزامًا تعريف المعارف الأولية العلمية في حدود ما يحتاج الناس إلى معرفته لفهم عالمهم، فلن يكون الأمر مجرد سرد قائمة بسيطة بالمفردات التي لنا أن نخصصها كمعارف مشتركة. لكن، على العكس، سيكون نتاج تداول في الرأي بين أفضل العلماء والمعلمين لمعرفة ما حقيقة المعارف التي يحتاج إليها الناس عند التعامل مع العلم والتكنولوجيا بحكم ما لهما من تأثير في حياة المرء.

كما أثار بعض الأكاديميين اعتراضات ضد مفهوم المعارف الأولية الثقافية، نحسب أن هذا النهج في تعلم العلم الذي يؤكد المعارف الأولية العلمية سوف يثير حفيظة علماء كثيرين. وسوف أناقش في الفصل العاشر الأهداف المختلفة التي أوضحها لتعليم العلم في المدارس، وسوف أعرض -بالتفصيل- قضيتي بالنسبة إلى المعارف الأولية العلمية، بيد أنني في هذه المناقشة الاستهلاكية سوف أقصر على بيان عدد قليل من الأمور التي ليست من المعارف الأولية العلمية، ولا تدخل ضمنها.

إنها لا تتعلق بالرياضيات

الرياضيات هي لغة العلم الطبيعية. وليس من قبيل المصادفة التاريخية أن كان لزاماً أن ننظر أول نظرة علمية حديثة عن الكون إلى حين أن ابتكر كل من إسحاق نيوتن وجونفريد ليبنتز حساب التفاضل والتكامل. ولعل القارئ لن يفاجئه قولي أنني كعالم فيزياء نظرية سوف ألتزم هذه النظرة. ولكن حتى لو كان الباحث عالم إحدائيات اعتاد تحمل المشاق ليتسبب عرقاً وتتسخ يده من أعمال الحفر فإنه سوف يستخدم تقنيات رياضية متقدمة لتحليل بياناته. إن العلم في نهاية المطاف علم كمي، وتمثل الرياضيات لغته الطبيعية للتعبير عن التقديرات الكمية. وهذا هو كل ما في الأمر.

لكن هذا لا يعني أن الناس بحاجة إلى امتلاك ناصية الصياغات الرياضية للعلوم لكي نمحو أميتهم العلمية. إن من أهم الأسرار المكونة في العالم حقيقة أن أفكار العلم الأساسية هي أفكار شديدة البساطة، ويمكن لأي امرئ أن يفهمها من دون الرجوع إلى عبارات رياضية طنانة. والمعروف أن الفكرة العامة (وإن لن تكن بالضرورة الفكرة الكمية الجامدة تماماً) يمكن إدراكها والتعبير عنها عادة في جملة بسيطة. ولنأخذ كمثال قانون الحركة الثاني عند نيوتن. نعرف أن وسوف أدفع بأن (القوة تساوي حاصل ضرب الكتلة في السرعة) $F = ma$ صيغته الرياضية هي العبارة القائلة «كلما ازدادت قوة دفعك لشيء ازدادت سرعته» هي عبارة جيدة بما يكفي لتوضيح هذا القانون وفاء بغرض محو الأمية العلمية والإحاطة بالمعارف الأولية اللازمة في هذا الصدد.

إنني، لإيجاز هذه الفكرة، كثيراً ما أتحدث عما يدور في فكري بشأن ما أفعله عند الكتابة عن العلم للجمهور. إن ما أفعله في ضوء ما يدور في فكري هو تناول سؤال باللغة الإنجليزية وأترجمه إلى رياضيات مستخدماً القواعد المحددة بدقة وصرامة، فيما يسمى «القواعد الأساسية» الرياضية للبحث عن الإجابة، ثم أعود في النهاية إلى ترجمة هذه الإجابة إلى اللغة الإنجليزية. وطبيعي أنني في غمرة هذه العملية أسقط من حسابي شرطاً يقضي بأن يكون قارئني قادراً على التعامل مع الرياضيات لكي يتسنى له فهم الأفكار الأساسية عن العلم.

ويصبح هذا التناظر، وبشكل عرضي، مفيداً جداً حين يضطر المرء إلى تفسير أسباب العجز عن الإجابة عن أسئلة لا يمكن ترجمتها إلى رياضيات بينما هي ذات معنى مفيد بالإنجليزية. وخير مثال على ذلك سؤال مثل: «ماذا حدث قبل الانفجار العظيم؟»، وهذا سؤال يتكرر كثيراً.

ويرجع العجز عن الإجابة إلى واقع محدد هو أن عبارة: «قبل الانفجار العظيم» ليست مفهومًا يمكن ترجمته إلى رياضيات. ويعادل هذا السؤال سؤالنا: «ماذا يوجد شمال القطب الشمالي؟»، والمشكلة هنا ليست أنه لا يوجد شيء شمال القطب الشمالي، لكن المشكلة أنه لا يوجد شيء محدد تمامًا شمال القطب الشمالي.

ويعترض البعض على تجنب الرياضيات بهذه الطريقة تأسيسًا على أننا لكي نفهم العلم فهمًا حقيقيًا يلزمنا الاعتماد على الرياضيات. بيد أن بالإمكان أن نسوق حجة مناظرة تقول إن المرء لكي يفهم تولستوي فهمًا حقيقيًا يلزمه أن يقرأه بالروسية، وكذا لكي يفهم هوميروس يلزمه أن يقرأه باليونانية القديمة. وهذه عبارات وأحكام صادقة، لكن هل ثمة سبب يبرر حرمان الطلاب من قراءة أعمال مثل «الحرب والسلام» أو «الإلياذة» مترجمة؟ أعتقد أنه لا سبب يبرر ذلك. وسوف أؤكد أنه لا يوجد سبب يدعونا إلى أن نحرم الطلاب من فهم الكون، حتى وإن ترجمنا هذا الفهم من لغة الرياضيات إلى الإنجليزية. ونحن إذا لم نفعل ذلك فإننا سوف نخلق نوعًا من الصرامة الزائفة، ومن ثم سوف نلحق بهم أذى كبيرًا.

ولا يتعلق الأمر بالممارسة العملية للعلم

وعلى المنوال نفسه أرى أن الفكرة القائلة بأن الهدف الأوحد الصحيح لتعلم العلم هو القدرة على إنجاز العلم عند مستوى ما هي فكرة مضللة. وسوف أناقش مشكلاتي مع هذه الفكرة بتفصيل أكثر فيما بعد. لكن ليس لي القارئ الآن بأن أحاجج عن طريق المماثلة والمناظرة مع مجال آخر، أعني مجال فنون المسرح والسينما.

أذكر وقتما كنت طالبًا أن بعض المقررات الدراسية التي درستها وأفادتني إفادة جمة كانت لها أسماء، مثل التقييم الموسيقي ومدخل إلى الفن والعمارة. وأضافت هذه المقررات الدراسية إلى حياتي الشيء الكثير بما لا يقاس. ولم تقتصر الفائدة على مجرد منحي قدرة على التقييم الأعمق لموضوعاتها، بل وأيضًا عززت عندي فكرة أن الموسيقى والفن أضحيان جزءًا من حياتي على الرغم من واقع الأمر من أن مستقبلتي هو العلم. وعلى الرغم من أنني سليل بيت يعلي من قيمة الموسيقى الكلاسيكية فإن هذه المقررات الدراسية التي أسست على قاعدة من تجارب طفولتي وأكسبت تجارب حياتي نوعًا من إطار العمل الذهني ما كان له أن يتحقق لولاها. وطبيعي أن هذا كان يقينًا الفكرة المستهدفة من هذا النوع من البرامج التعليمية.

والشيء الأهم أنه لم يحدث، ولو لمرة واحدة، على مدى السنوات الطوال التي شاركت خلالها في هذا النوع من البرامج الدراسية أن طلب مني شخص ما أن أعزف على آلة موسيقية، أو أن أؤلف معزوفة أو أن أرسم لوحة. كان المعلمون يدركون أن هدفهم هو مساعدة الطلاب من أمثالي على تعميق خبرتهم بالموسيقى والفن وليس إبداع أيّ منها. وأحسب أن الالتزام بالموقف نفسه سيكون مفيداً عند التفكير في المعارف الأولية العلمية. ونعرف أن العلم، كما سوف أؤكد فيما بعد، قادر مثله مثل الموسيقى والفن على تعميق وإثراء حياتنا. ومن ثم لا معنى لأن نطالب الدارسين من الطلاب بأن يتعلموا تطبيق وممارسة العلم بغية تحصيل واكتساب هذا التقييم، إذ إن هذا لا يختلف في شيء عن أن تطالبهم بأن يتعلموا عزف آلة الكمان قبل الاستماع إلى حفل سيمفوني.

ولا يتعلق بالكفاءة التقانية

عندما يصبح تعليم العلم موضوعاً لحوار عام، خصوصاً في سياق سياسي، نجد من أكثر العبارات المستخدمة شيوعاً، عبارة تقول: «لا أحد يعرف كيف نبرمج جهاز تسجيل الفيديو كاسيت». وثمة اعتقاد أن هذه العبارة توضح إلى أي مدى يكون الأمريكيون أميين علمياً.

لكنني أود أن أختلف هنا. إن القدرة على برمجة جهاز تسجيل فيديو كاسيت، أو إصلاح سيارة، أو فهم وظيفة جميع أزرار جهاز التشغيل من بُعد، يمكن أن تكون قدرة مفيدة في العصر الحديث، لكن لا علاقة لها البتة بالمعارف الأولية العلمية. إن المعارف الأولية العلمية قيمتها ودورها في أن نفهم بنية الكون الذي نسكنه، وأن توفر لنا القدرة على تطبيق تلك المعارف في حياة المرء. ويمكن أن تقترن أو لا تقترن بالمهارة التقانية اللازمة لتشغيل الأجهزة الإلكترونية. وتولف المهارات التقانية، شأنها شأن المهارات الرياضية، بنية من المعارف المستقلة عن المعارف الأولية العلمية.

علاوة على هذا أود أن أدفع بأن لا معنى لمحاولة تضمين هذا النوع من المهارات في المقرر الدراسي كجزء من العلم. نحن على سبيل المثال لا نعلم دروساً في المعارف الأولية عن الهاتف، وذلك لسبب بسيط، هو أن تعلم تشغيل الهاتف أمر يكتسبه المرء خارج المقرر الدراسي. ونستطيع أن نجتمع أطفالاً، وهو ما يحدث فعلاً، لتعليمهم كمبتدئين، تشغيل الحواسيب. بيد أنني أرى بإحساسي أنه حتى مهارة تشغيل الحاسوب أضحت أشبه بمهارة متوافرة لدى الجميع في

مختلف الأقطار، حتى إننا ربما نستطيع القول بعد زمن قصير إن الطلاب (باستثناءات قليلة واضحة) أضحووا على ألفة كبيرة مع الحواسيب شأنهم مع الهواتف. ولكن باستثناء تدريس مدخل عام للحوسبة، فإن تعليم المهارات الخاصة ببرمجة جهاز تسجيل الفيديو كاسيت لن يفيد كثيرًا، لسبب بسيط، هو أن إيقاع التغير في مجال الإلكترونيات سريع جدًا بحيث إن أي شيء يتعلمه الطلاب اليوم سيغدو أمرًا عقيمًا وباليًا حال تخرجهم. وأؤكد، لهذه الأسباب جميعًا، أن الكفاءة التقانية، على الرغم من أهميتها، لا تستحق الاهتمام الذي يجعلها جزءًا من المقرر الدراسي.

وأقول، من باب التسجيل، إنني لم أتعلم قط كيف أبرمج جهاز الفيديو الخاص بي.

* * *

إن وفاء المرء بالتزاماته، بوصفه مواطناً، لن يكون بالأمر اليسير في المستقبل، وهي التزامات سيكون
«من المستحيل الوفاء بها من دون الإحاطة بالمعارف الأولية للعلم

المؤلف

المعارف الأولية العلمية: برهان من حياة المواطنين

التقط أي صحيفة لأي يوم من الأيام، وسوف تجد على الأرجح قصة عن قضية عامة تتضمن حديثاً عن العلم بشكل أو بآخر. قد تكون قصص اليوم عن احتراق كوكب الأرض، وعن مستقبل الطاقة، واستخدام الخلايا الجذعية. ولكن لا أحد في وسعه التنبؤ بما سيكون عليه الحديث بعد عشر سنوات من الآن. بيد أننا قد نكون على يقين بأن أيًا كانت الموضوعات التي ستشغل الناس بعد عشر أو عشرين أو ثلاثين سنة... إلى آخر المدى، فسنجد بعضاً منها على الأقل يستلزم توافر قدر من الفهم الأساسي للعلم. وهذا هو في كلمتين ما أسميه الحجة المستمدة من حياة المواطنين كتبرير للحاجة إلى توافر المعلومات الأولية العلمية.

ولنتأمل معاً الجدل الدائر بشأن الخلايا الجذعية مثلاً لمشكلات المستقبل. نلاحظ للأسف أن هذا الجدل في الولايات المتحدة تداخل مع قضية ربما تكون الأكثر إثارة واستعصاء على الحل على طول مشهدها السياسي، وأعني بها مشكلة الإجهاض. وسبق لي أن عرضت وجهة نظري في هذا الشأن في كتاب شاركت في تأليفه مع صديقي وزميلي هارولد موروفيتس تحت عنوان «حقائق الحياة»، ولكن في إطار مناقشتنا موضوع الخلايا الجذعية ليس مهماً أن تكون مؤيداً لحق الحياة أو مؤيداً لحق الاختيار. إن المرء إذا شاء أن يخلق رابطة جامعة بين آرائه عن الإجهاض والحوار الدائر عن الخلايا الجذعية فلا بد أن يفهم أولاً ما هي الخلايا الجذعية وكيف يجري استخلاصها. وإذا كان لي أن أضع معالم إطار المعارف اللازمة لفهم العلم الكامن وراء الجدل، فإنني سأضمن الإطار المعلومات التالية:

مع انقسام خلايا الجنين المضغة، تصبح الخلايا متخصصة وعاجزة عن التحول إلى أي -1
نوع من الخلايا مكتملة النمو.

تظل الخلايا، حتى نحو ثمانية تقسيمات خلوية، محتفظة بقدرتها على النمو، وتتحول إلى -2 (totipotence) وهذه خاصية تسمى القدرة على التكاثر المتنوع للخلية) أي خلية مكتملة النمو، ومن ثم نسميها خلايا جذعية.

أفضل وسيلة واعدة للحصول على خلايا جذعية هي أن نجعلها من خلال الجنين المضغة، -3. ومن ثم قتله في أثناء العملية.

ولي أن أؤكد هنا أن هذا هو الحد الأدنى للخلفية العلمية اللازمة لكي تسمح بالمشاركة في الحوار. ويمكن للمرء بعد أن تتوافر له هذه المعلومات أن يمضي قدماً إلى الأجزاء غير العلمية من المناقشة. ومن ثم إن كان من أنصار الحفاظ على الحياة، ويؤمن بأن الخلية المخصبة الواحدة هي شخص بشري تتعين حمايته بقوة القانون، فإن هذا يعني أن عملية تجميع الخلايا الجذعية هي في جوهرها جريمة قتل. وإذا كان لا يؤمن بأن مجموعة من بضع مئات من الخلايا بشري تعادل من حيث القيمة الأخلاقية إنساناً مكتمل النمو أو وليداً حديث (DNA) بها دنا الولادة، إذن فإن المنافع الطبية التي سيجندها المجتمع من البحث العلمي -وهي منافع حقيقية للبشر الموجودين على قيد الحياة- سوف تفوق كثيراً جداً أي ضرر ناجم عن قتل الجنين المضغة. وما يمثله هذا من حياة محتملة.

ويمكن لكثيرين من العقلاء المخلصين أن يتبنوا أيّاً من هذين الموقفين. وطبيعي أنه لا مجال هنا لحلول وسط. فإما أن نجعل الخلايا الجذعية وإما لا على الإطلاق. وهذا هو السبب في أنني قلت إنها مسألة عصية على الحل. ولكن الفكرة الأساسية عندي هي أنه من دون فهم شيء ما عن أساسيات بيولوجيا النمو فلن يستطيع المرء أن يشارك في الحوار. وليس من قبيل الحكمة والعقل أن يحكم المرء مشاعره الأخلاقية، وذلك لسبب بسيط، وهو أنه لا يفهم ما يجري الحوار بشأنه.

وثمة وسائل كثيرة لتعريف كلمة ديمقراطية، ولكنني أرى أن التعريف العلمي الأفضل هو القول: إن الناس الذين يتأثرون بقرار ما يجري اتخاذه داخل نظام ديمقراطي لهم كلمة مسموعة من حيث كيفية اتخاذ هذا القرار. ونلاحظ في الولايات المتحدة أن هذه الكلمة تحظى بممارسة واسعة النطاق من خلال العملية السياسية، كما أن الجدل الدائر بشأن القرار تعرضه الصحافة وأجهزة الإعلام المختلفة، وطبيعي أن المرء الذي لم يتهيأ له إطار المعارف، التي نسميها

المعارف الأولية العلمية، سوف يجد نفسه مستبعداً من مجالات حوار واسعة وكثيرة، وسيكون ببساطة عاجزاً عن أن يكون له صوت مسموع.

والحقيقة، أننا إذا شئنا عرض تنبؤات تتسم بالإحباط فسنجد أنه ليس من العسير تخيل بلد يدور حول أيّ من المسارين غير الديمقراطيين سواء بسواء، إذ نجد من ناحية أن بالإمكان النظر إلى الأمور باعتبارها شديدة التعقد، بحيث إن اتخاذ القرارات رهن نخبة تقانية دون سواها. (وكم هو غريب أنني قلما أسمع علماء يحثون على التزام هذا المنهج). ولكن النهج الآخر، ولعله مثير أكثر للمخاوف، هو استبعاد كامل لخيار الحوار العقلاني، ومطالبة الناس باتباع زعماء هم في الحقيقة زعماء فوضويون «ديماجوجيون». وطبيعي أن أيّاً من النهجين يمثل كارثة ما دام ما يعيننا هو الحفاظ على الولايات المتحدة مجتمعاً ديمقراطياً. وإن أضمن سبيل لتجنب أيّ من النتيجتين هو أن نرى المواطنين تسلحوا بالمعارف اللازمة لاتخاذ قراراتهم عن بصيرة ووعي.

المستحدثات التكنولوجية والحوار العام

الحديث هنا لن يكون سهلاً يسيراً، إن نسبة كبيرة من الحوارات السياسية التي سيشهدها هذا البلد مستقبلاً ستكون نتاج المستحدثات المتقدمة في المجالات العلمية والتكنولوجية التي بدأت بوادرها تلوح في الأفق الآن. وتمثل الخلايا الجذعية قمة جبل الجليد في حدود اهتمامنا بالمجال الجديد لعلم التكنولوجيا الحيوية. ولكن مجالات أخرى جديدة مثل تكنولوجيا المعلوماتية والنانو تكنولوجي لن تكون متخلفة كثيراً عن ذلك. وليسمح لي القارئ بأن أستطرد قليلاً هنا لنفكر معاً في بعض القضايا التي من المحتمل أن نواجهها خلال عقد من الآن، وذلك لكي ندرك ملمحاً من ملامح التعقد التي من المحتمل أن تضيفها المستحدثات العلمية على حياتنا السياسية.

تعلمنا في القرن التاسع عشر حقيقة من بين عدد من الحقائق المحورية الكبرى عن المنظومات الحية، وهي أنها تنبني على قاعدة من الكيمياء. ومن ثم ونحن نقول «إن شيئاً ما حي» فإننا نعني بعبارة أخرى «أن ثمة مجموعة مميزة من التفاعلات الكيميائية تدور داخله»، من دون أن يعني ذلك الإشارة إلى أي «قوة حيوية» غامضة. وانتقلنا في القرن العشرين خطوة أخرى على الطريق لفهم كيمياء الحياة، وترتبط هذه ارتباطاً وثيقاً بجزيء اسمه دنا، ونعكف الآن بهمة ونشاط لكشف تفاصيل كيمياء المنظومات الحيوية. وها نحن الآن، وبكل المعنى

الحقيقي للكلمة، نتعلم كيف نكشف الغطاء لنعرف خفايا هذه المنظومات ونتعامل معها ونتحكم فيها وفاء لأغراضنا نحن. وسوف تؤدي هذه القدرة الجديدة، مثلما هي الحال في بحوث الخلايا الجذعية، إلى ظهور طائفة من المشكلات الجديدة تمامًا والتي يتعين على المواطنين أن يتنازعوها الرأي بشأنها.

ولنأخذ الاستنساخ مثالاً. لقد أصبح ممكناً، كما أثبت يان ويلموت عندما أنتج النعجة دوللي في العام 1996، نزع الدنا من بيضة وأبدل دنا آخر به من حيوان كامل النضج لكي تنمو الخلية الجديدة وتصبح كائنًا مكتملاً تمامًا. وعلى الرغم من أن هذه العملية كانت معروفة وحققت نتائج إيجابية عند تطبيقها على الحيوانات البرمائية مثل الضفادع، فإنها صادفت ترحيبًا وتهليلًا في العناوين الرئيسية للصحف، مما يعكس حقيقة واقعة، وهي أن دوللي هي أول استنساخ لحيوان ثديي. ونظرًا إلى أن الأغنام وثيقة الصلة بالبشر على نحو يثير القلق إلى حد ما في شجرة الحياة، فقد أدى الحدث إلى إثارة كل أنواع المشكلات المحتملة.

ولعل أوضح مثال (ومن دواعي السخرية أنه الأقل إثارة للاهتمام العلمي) هو توقع إجراء استنساخ للبشر. وتتابع رؤوس عناوين الصحف تعرض رؤى عن جيوش متقدمة من الاستنساخات المتطابقة، وهي رؤى تمثل نوعًا من الكابوس إذا ما تحقق أحدها. وأكثر من هذا أن صفحات الرياضة راهنت على حدوث مواجهات بين فرق مستنسخة لكرة السلة. وطالعا على الجانب الأكثر تشاؤمًا سيناريوهات لتربية حالات استنساخ للحصول على أعضاء لزراعتها في أجسام مانحي الدنا، مما يذكرنا بموضوعات القصص الخيالي.

ولكن لسوء حظ صحف الإثارة أن هذا النوع من المراهات يُغفل إحدى الحقائق الأساسية المعروفة عن النمو البشري. وربما بدا ذلك أشبه بصدمة لعلماء النفس والاجتماع، ولكن الحقيقة أننا -على مدى العقد الأخير- أدركنا أن قدرًا كبيرًا من السلوك البشري تحدده الجينات، إذ لا يولد شخص صفحة بيضاء، كما يحلو للآباء والأمهات أن يقولوا للباحثين. كذلك في المقابل لا يولد شخص كأنه ماكينة مقدر له أداء التعليمات المثبتة في جيناته ولدًا كان أو بنتًا، ومن ثم فإن التفاعل المعقد بين الجينات والبيئة والمسؤول عن إنتاج إنسان كامل النضج أصبح، إلى حين، مجال البحث الرئيسي. وإذا كان لي الآن أن أضمن رأيًا فإنني أميل إلى القول: إن التقاسم بين الاثنين سيكون تقريبًا مناصفة 50 إلى 50، ومع هذا أوضح أن تطابق الجينات بين شخصين لا يعني أنهما سيكونان متطابقين في الكبر، ولنتذكر هنا التوائم مثالاً. إن ما جعل مايكل جوردان

بطلاً هو موهبته البدنية جزئياً، ولكن الأهم من ذلك تصميمه والتزامه في إصرار لا يكل والذي لازمه طوال حياته المهنية. وطبيعي أن عمل استنساخ مع تاريخ مغاير يمكن أن ينتج بسهولة شيئاً مغايراً. وثمة تعليق ينطوي على دعاية يرى أن من السهل أن يتحول استنساخ مايكل جوردان إلى عازف بيانو بدلاً من لاعب كرة سلة.

ولكن من وجهة نظر المعارف الأولية العلمية نرى أن أهم شيء بالنسبة إلى قصة الاستنساخ أنه ليست لدينا في اللغة الإنجليزية كلمة للدلالة على بويضة بشرية جرى إبدال الدنا الطبيعي لها بـ«دنا» آخر خاص بإنسان ناضج مكتمل. وطبيعي أننا إذا لم تكن لدينا كلمة للدلالة على شيء ما فإننا، كما يقول أي عالم لسانيات، سنواجه مشقة وصعوبة للتعامل معها على المستوى الأخلاقي. أو الشرعي أو الديني أو السياسي.

ويجمع العلماء الآن، وفي هذه اللحظة، على القول: إن الاستنساخ البشري، في ضوء التكنولوجيا الحالية، يمثل مخاطرة كبيرة للغاية، مما يجعله غير مقبول أخلاقياً، وهذا كافٍ تماماً. ومع هذا أجد لزاماً أن أقول للقارئ إنني أحياناً أعجب وأتساءل بشأن هذه العبارة. إنني شخصياً لا أستطيع أن أتخيل لماذا يريد الناس إنتاج مستنسخات لهم. ولكن يوجد كثيرون في العالم من أصحاب الذوات المتضخمة ولذلك فإنني على يقين من وجود أفراد لا يطمعون فيما هو أفضل. إن إجراء عملية الاستنساخ عملياً ليس بالأمر الصعب، إذ كل ما تحتاج إليه هو بناء صغير، وبضعة ملايين من الدولارات لشراء المعدات والتجهيزات اللازمة، وحكومة مستعدة لتجاهل الأمر، وبضع نساء راغبات في منح البويضات اللازمة. ولا يساورني شك كبير في أن بالإمكان عمل الاستنساخ في أي مكان في العالم إذا كان هناك من هو في حاجة ماسة إلى الاستنساخ، وعلى استعداد لتجاهل الجوانب الأخلاقية للمسألة. وأتخيل نفسي ذات يوم جالساً في اجتماع يضم عدداً من العلماء ذوي اللحي البيضاء وهم يناقشون أخلاقيات الاستنساخ البشري، وإذ بشاب يجوس داخل القاعة ويعلن أنه ليس سوى استنساخ، إذن ما الموقف حينها؟

سوف يدور حوار أكثر جدية وأهم شأنًا حول موضوع يحمل اسم الاستنساخ العلاجي ولا تزال هذه التقنية في بداية مراحل تطورها الأولى. وهنا نجد أن شخصاً ما therapeutic cloning. في حاجة إلى عضو جديد يمنح الدنا لإنتاج الخلايا الجذعية. ويستخدم العلماء تقنية بازغة لمجال التي تمكنهم من تنمية هذا العضو بحيث يمكن tissue engineering علمي اسمه هندسة النسيج للجراحين زراعته. ونظرًا إلى أن خلايا العضو الجديد لها الدنا نفسه الخاص بالمريض فإن جهاز

المناعة لن يرفضه، وبهذا تنتفي أهم المخاطر التي تواجهها زراعة الأعضاء اليوم. وهذا هو regenerative medicine «الحلم بفتح مجال جديد اسمه «طب تجديد الأعضاء»

ويمكن القول في هذه اللحظة إن هذا السيناريو مرهون إلى حد كبير بالمستقبل. ولكن ليس عسيرًا علينا أن نتخيل تحوله إلى حقيقة واقعة خلال عقد أو نحو ذلك. وسوف تبرز هنا طائفة جديدة تمامًا من القضايا الأخلاقية. مثال ذلك إذا كنت في حاجة إلى قلب جديد فكيف لي أن أوازن بين القيمة الأخلاقية لإنقاذ حياتي والقيمة الأخلاقية للحميل الذي يتعين وأده لإنجاز الهدف؟ وماذا لو أننا خصبنا كثيرًا من البويضات، ولم نستخدمها كلها، هل نحن ملزمون أخلاقياً بالبحث عن أمهات بديلة للآخرين؟ وهل نخزنها إلى الأبد، أم نلقي بها في المرحاض ونسكب فوقها الماء؟ إنك لا تستطيع أن تتخيل جماعات البشر يتصارعون حول قضايا من هذا النوع ما لم تكن تعرف قدرًا من المعارف الأساسية عن بيولوجيا الجزئيات

وأذكر بهذه المناسبة أن وليام هازيلتاين، وهو أحد رواد طب تجديد الأعضاء، أوضح أن هذا المجال العلمي إذا ما نجح في الوفاء بوعده فإن بعضًا من التساؤلات شديدة البساطة ستبرز وستكون الإجابة عنها شديدة الصعوبة، إذ ماذا عسالك أن تقول إذا سألك شخص ما «كم عمرك؟» إذا ما كانت الإجابة تتباين من عضو إلى آخر من أعضاء جسمك؟

وماذا لو عرفنا ما فيه الكفاية عن علم الوراثة وتعاملنا مع الدنا الخاص بجنين ما لإنتاج شيء نريده؟ وماذا، على سبيل المثال، لو عالجتنا هندسيًا الدنا الخاص ببطل رياضي بحيث ينتج الستيرويدات (*****) الخاصة به؟ هل لنا أن نسمح لهذا الرياضي بالمنافسة في الأولمبياد؟ وماذا لو أن الجينة الجديدة كانت نتيجة لطفرة طبيعية بدلًا من الهندسة الوراثية؟ إننا لن نستطيع حتى الهرب من البيولوجيا الجزيئية في نطاق الرياضة

أي من المركبات العضوية المتعددة التي تذوب في الدهن وتحتوي على 17 ذرة كربون. steroids الستيرويدات (*****)
[المترجم].

إننا لا نكاد نمضي على الطريق لنكشف حقيقة ميكانيكيات الحياة حتى نواجه مشكلات بلا نهاية. لن نجد أكثرنا مشكلة في التعامل مع شخص له كليتان مزروعتان بعد استئباتهما من خلايا جذعية. وطبيعي أن مثل هذا الشخص يكون بشراً سوياً كما هو واضح بغض النظر عن تعريفنا للمصطلح. ولكن ماذا لو تضمن العضو المزروع مكونات حاسوبية؟ ماذا لو أن عملية الزرع التي أجريت له استهدفت جعل الشخص أكثر ذكاء أو أكثر كفاءة وفاعلية وليس فقط إنقاذ

الحياة؟ وماذا لو جرى تغيير أكثر من عضو؟ عند أي نقطة نكف عن وصف مثل هذا الشخص بأنه بشر ليبدأ وصفه بأنه شيء آخر؟ هل نصفه بأنه بشر متحول، أو حتى إنسان خارق للطبيعة؟ وهل وضعنا تعريفاً يحدد مفهوم البشرية تحديداً كافياً مما يسمح لنا بالبدء في التعامل مع مثل هذه الأنواع من المسائل؟

إن هذه المسائل تبدو لنا كأنها ضرب من الخيال العلمي الآن، بيد أنني سمعتها جميعاً على لسان علماء مشهورين أثاروها في مؤتمرات علمية كبرى لها هيبتها. ولا شك في أننا سوف نضطر، نحن أو أبناؤنا، إلى التعامل مع بعضها في المستقبل المنظور. معنى هذا أن وفاء المرء بالتزاماته بوصفه مواطناً لن يكون بالأمر اليسير في المستقبل، وهي التزامات سيكون من المستحيل الوفاء بها من دون الإحاطة بالمعارف الأولية للعلم.

وسوف تثار قضايا مماثلة مع تقدم تكنولوجيا المعلومات. ولك أن تصدق أو لا تصدق أنني سمعت حوارات دائرة بين علماء عما إذا كان وقف عمل الحاسوب في المستقبل يعتبر عملاً مسموحاً به أخلاقياً أم لا. وطبيعي أنه مع التقدم المطرد للحواسيب سيكون من الصعوبة بمكان الإجابة عن سؤال ما إذا كانت الحواسيب تتصف بالذكاء والوعي. ولكنني شخصياً لا أعتقد أن الحواسيب يمكنها أن تحل محل المخ البشري، وهذه نتيجة توصلت إليها بعد أن عالجتها تفصيلاً في كتابي «هل نحن بلا نظير؟» (*****). ومع هذا يبدو واضحاً أن الحواسيب عند نقطة ما في المستقبل ستكون أوثق كثيراً بالوعي كما ندركه عما هي عليه الآن. ولكن عندما تصل إلى هذا المستوى (ولنتذكر الكمبيوتر «هال» في فيلم أوديسا الفضاء: 2001) (*****)، ماذا سيكون حكمنا الأخلاقي عندما نريد غلقها وإيقافها؟ هل يعادل هذا جريمة القتل؟ وماذا لو أردنا إرسالها في رحلة ذهاب فقط بلا عودة إلى كوكب بعيد أو إلى مجموعة شمسية؟ هذه أسئلة ليس من اليسير الإجابة عنها. وإذا ما أصبحت قضية سياسية (ولنتخيل نشأة منظمة تحمل اسم «دعاة معاملة الحواسيب معاملة أخلاقية») فإن الأمر سوف يستلزم قدراً كبيراً من التفكير المتقدم والمعقد من جانب جمهور الناخبين لحسم الأمر. وأعود لأقول كم هو عسير إنجاز هذا كله من دون توافر مستويات عالية من المعارف الأولية العلمية.

نشر ضمن سلسلة عالم المعرفة في يناير 2006. ترجمته إلى العربية د. ليلى الموسوي (*****).

هو أحد أهم أفلام المخرج الراحل ستانلي كوبريك (1928-1999)، 2001: "A Space Odyssey" (1968) (*****) ويحكي قصة صراع بين الإنسان (بومان) وجهاز الكمبيوتر (هال)، حيث يتنافس للوصول إلى خطوة جديدة، وإن كانت مجهولة، نحو التطور. [المحررة]

وها هنا لا أستطيع مقاومة الرغبة في تقديم مثال آخر حتى إن بدا في حقيقته بعيداً عن الموضوع. إن من أهم المستحدثات العلمية المتقدمة التي شهدتها تسعينيات القرن العشرين **Quantum teleportation** (*****). «اكتشاف تقنية جديدة اسمها «النقل البعيد بميكانيكا الكوانتم وتستخدم هذه العملية في الأساس طرق ميكانيكا الكوانتم لتدمير أحد الفوتونات، جسيم ضوئي، في موقع ما، وتخلق فوتوناً مطابقاً في مكان آخر. ولنا أن نتخيل هذا في صورة بدائية لجهاز فهو جهاز خيالي يعمل عن طريق تدمير Star Trek «النقل في المسلسل التلفزيوني «ستار تريك ذرات شخص ما في مكان ما وتجميع ذرات مطابقة في مكان آخر. واستخدام العلماء في أستراليا بالفعل عملية النقل عن بُعد بميكانيكا الكوانتم لإرسال صور فوتوغرافية عبر ألياف بصرية إلى مسافات تبعد أميالاً كثيرة. ولكن لنتخيل معاً أننا تقدمنا إلى حد أصبح فيه بالإمكان إرسال بشر بجهاز النقل الكوانتي. ترى هل الشخص الذي جرى تجميعه على الطرف الآخر والذي تتطابق ذراته واحدة بواحدة مع ذرات الشخص الذي خضع للتجربة هو الشخص ذاته حقيقة أياً كانت وسيلة النقل؟ وأذكر هنا سؤالاً وجَّهه إليَّ أحد زملائي نصف مازح: هل يتعين على هذا الشخص الجديد أن يسدد عنك ضرائب الدخل؟

الكوانتم -وفق نظرية الكوانتم، الطاقة موجودة في شكل Quantum teleportation: النقل الكوانتي من بُعد (*****). وكوانتم الأشعة. Quantum teleportation - وحدات منفصلة، وكل وحدة اسمها كوانتم، والجمع كوانتا الكهرومغناطيسية اسمها فوتون. ونظرية الكوانتم هي التي تحورت حول مفهوم عدم اتصال الطاقة الذي أدخله ماكس بلانك في الفيزياء. وتطورت منظومة ميكانيكا الكوانتم عن هذه النظرية خلال النصف الأول من القرن العشرين. والنقل الكوانتي من بُعد تقنية نقل معلومات من بُعد على مستوى الكوانتم، من جسيم (أو سلسلة جسيمات) إلى جسيم آخر (أو سلسلة جسيمات [المترجم quantum entanglement أخرى] في موضع آخر عبر الترابط الكوانتي).

قضايا واقعية تشتمل على ما هو أكثر من العلم

إننا إذ نحيد هنا قليلاً لندخل مجال الخيال العلمي فذلك لأنه يفيدنا في تأكيد حقيقة مفادها أن ثمة قضايا معقدة تنتظرنا في المستقبل. وسوف تستلزم هذه القضايا توافر مستويات عالية من المعارف الأولية العلمية إذا شئنا أن يكون للمواطنين العاديين بعض من القدرة على التحكم في مستقبلهم. بيد أنها توضح لنا نقطتين أخريين مهمتين تتعلقان بمكان ومكانة المعارف الأولية العلمية (والعلم بعامة) في الحوار العام:

ثمة قضايا مهمة في مجتمعنا لا تشتمل مطلقاً على مسائل محصورة في نطاق العلم -1 والتكنولوجيا وحدهما

إنَّ كَمَّ ونمطَ المعارف العلمية اللازمة للمواطن لكي يؤدي دوره الصحيح محدودان -2

ونشير هنا إلى أن النقطة الثانية سبق أن وضحت جيداً في مناقشتنا السابقة عن الاستنساخ وبحوث الخلايا الجذعية، إذ إن المشاركة في هذه الحوارات تستلزم فهم العلم المعني بإنتاج أعضاء من الخلايا الجذعية واستنساخها. ليس لازماً أن يكون المرء على حظ وافر من المعرفة، إذ ليس ضرورياً أن تتوافر لديه القدرة على فهم الترتيب التسلسلي للدنا لكي يفهم، على سبيل المثال، الاستنساخ العلاجي. عوضاً عن ذلك نرى ضرورة توافر حد أدنى من إطار المعارف اللازمة للمشاركة في أي حوار قد يُثار بشأن هذه القضايا، ولا يكاد إطار الحد الأدنى المذكور يتوافر للمرء حتى تدور القضايا المهمة حول أمور لا يربطها بالعلم سوى رباط عرضي.

ونستطيع هنا في الواقع أن نحدد ثلاثة جوانب متميزة لهذا النوع من الحوار، والتي تتطابق بشكل عام تقريبي مع مسائل تتعلق بالواقع والقيم والسياسة. وتتمركز أولى هذه القضايا حول التساؤل عما إذا كان بالإمكان الإفادة من بحوث الخلايا الجذعية من دون تدمير الأجنة -أي بالوصول إلى طرق لمعالجة أنماط أخرى من الخلايا على سبيل المثال. وهذا سؤال علمي، كما أن فهم الحوار يستلزم توافر مستوى معين من المعارف الأولية العلمية. ولكن لا يكاد هذا المستوى يتوافر لنا حتى نجد أنفسنا داخل ساحة علاقتها بالعلم واهية جداً. إننا جميعاً، وكما أوضحنا سابقاً، لا نكاد نفهم موضوع الحوار (مسائل تتعلق بالواقع) حتى يكون لزاماً علينا البحث عن وسيلة لتطبيق قيمنا الأخلاقية على الموقف (مسائل تتعلق بالقيم)، ونقرر ماذا في وسعنا أن نفعل بشأنها (مسائل تتعلق بالسياسة). ويستطيع القارئ أن يتخيل، فيما يتعلق بحالة الخلايا الجذعية، أفراداً يدعمون ويحبذون كل شيء وأي شيء ابتداءً من الدعم المكثف للبحوث الرسمية وحتى القول بتجريم المجال كله.

ولنا أن نطبق الرؤية نفسها على القضايا الأعمق، وثيقة الصلة بالتقدم، في فهم ميكانيكا الحياة. ونعود لنقول إن العلم يفيد كمدخل للجدل، ولكن المسائل الواقعية تشتمل على شيء آخر. مثال ذلك إذا ما كان القارئ بصدده مواجهة تساؤلات عن ماهية الكائن البشري، وبيان الحد الفاصل بين ما هو كائن بشري وما هو غير ذلك، فإن كل ما يستطيعه العلم هو أن يمضي بك وصولاً إلى هذا الحد. وكذلك بالمثل إذا ما كنت بصدده معالجة القضية الأهم شأنها وهي القيمة الأخلاقية التي نعزوها إلى كائن بشري في طور النمو وهو يتقدم على مراحل من بويضة ملقحة إلى جنين ثم حميل، فإنك هنا لن تحقق المرجو منك اعتماداً على العلم وحده.

وليسمح لي القارئ بأن أتناول بقدر من التفصيل هذا الرأي وبشكل موجز وسريع، ذلك لأنه يوضح بجلاء الفكرة التي أحاول بيانها. نلاحظ بشكل أساسي أن قضية الإجهاض (وجميع القضايا ذات الصلة) تتعلق في التحليل النهائي بمسألة التمييز بين مصطلحي «الكائن البشري» و«الشخص». ونعرف أن عبارة «كائن بشري» مصطلح بيولوجي يشير إلى كائن عضوي حي من نوع الهومو سابينس. إنه مصطلح يمكن تحديده وتعريفه على أساس البنية الفيزيائية أو تسلسل الدنا، ومن ثم فإن عبارة «كائن بشري» هي مصطلح يمكن تعريفه بشكل كامل وتام في ضوء المصطلحات العلمية.

ولكن كلمة «شخص» شأن آخر، إنها مصطلح قانوني، وتشير إلى شخص ما له حق الحماية القانونية. ويتحدد تعريف الشخصية وتميزها على نحو مختلف من مجتمع إلى آخر. مثال ذلك أننا في مجتمعنا نضفي صفة الشخصية تحديداً منذ الميلاد، ومن ثم فإن الجدل بشأن الإجهاض ينصب أساساً على ما إذا كان إضفاء الصفة ينبغي أن يكون قبل الميلاد أم لا. ولكن ثمة مجتمعات أخرى تضيف صفة الشخصية المميزة بعد الميلاد بفترة ما. ونذكر على سبيل المثال اليابان في العصر الوسيط، إذ تضيف صفة الشخص على الكائن البشري مع أول صيحة للوليد. وإذا حدث أن قتلت القابلة طفلاً مشوهاً قبل هذه الصيحة لا يعتبرها القانون قاتلة. ونلاحظ في الواقع أن مجتمعات غير غربية كثيرة اعتادت أن تعتبر الطفل الوليد المشوه «شبحاً»، ومن ثم ارتاعوا حين أخبرتهم الإرساليات التبشيرية المسيحية بأن قتله يصل إلى حد جريمة القتل. معنى هذا أن القرار الذي يحدد متى يصبح الكائن البشري شخصاً ليس بالأمر الذي يجري تحديده علمياً، بل تتعين إعادة تحديده بوصفه مسألة رهن القيم المجتمعية وليس الحقيقة الواقعة.

وجدير بالذكر أن فقه الإلهيات التقليدي في المسيحية يربط مشكلة إضفاء الشخصية بعملية نفخ أو نفث الروح. ويحدد إطار المسألة في ضوء التساؤل عن متى يكتسب الجنين روحاً في أثناء عملية النمو. وبنى توما الأكويني (1225-1274 م) حجته على أساس ظهور الأجنة الجهيضة وحدد الزمن بأربعين يوماً للذكور وتسعين يوماً للإناث (لا تسأل لماذا!!). ولكن البابا بيوس التاسع أعلن في العام 1869 باسم كرسي الأسقفية في المجلس الأول للفاثيكان أن نفخ الروح يحدث مع لحظة الحمل، وبهذا هيأ الساحة للسجال الراهن بشأن الإجهاض. وعلى الرغم من أن الحاليين تضمنتا في البدء كثيراً من المصطلحات العلمية (متى تظهر على الجنين أول

معالم صورة بشرية؟) فإننا نجد في النهاية قفزة من البشرية إلى الظهور المتميز للشخصية، وهي قفزة لا علاقة لها بالعلم.

ونستطيع أن نرى هذه النقلة للتحويل من المحاجاة العلمية إلى المحاجاة غير العلمية متحققة في كل حوار تقريباً يتضمن محتوى علمياً أو تكنولوجياً. ومثالاً على ذلك الجدل الدائر الآن بشأن استخدام الطاقة النووية، فنحن نعرف أن الحوارات بشأن الطاقة النووية تمس موضوعات كثيرة هي من صميم العلم والتكنولوجيا: طبيعة الإشعاع، وإنتاج الوقود النووي، وتوليد الكهرباء من بخار عالي الضغط. معنى هذا أن المواطنين في حاجة إلى معرفة شيء ما عن كيفية عمل المفاعل النووي، وما الأجزاء المشتركة بين المفاعل والمولدات الأخرى، وأيهما مختلف، وينبغي أن تكون لديهم معرفة ما بالنشاط الإشعاعي من مثل ما هو النشاط الإشعاعي، ولماذا يمكن أن يكون خطراً، وما الخطوات اللازمة لحماية البشر منه. وطبيعي أن مثل هذه الحقائق والمفاهيم تؤلف معاً الإطار المعرفي الذي يعتبر الخلفية الأساسية لكل الحوار.

ولكن مع توافر هذه المعارف يمكن أن تطفو على السطح القضايا الواقعية. مثال ذلك أنه بعد أن اكتمل الحوار التقني في السبعينيات، الذي دقق في كل صغيرة وكبيرة، تحول الجدل بشأن الطاقة النووية إلى سؤال بسيط: ما حجم المخاطرة المسموح بها بغية الحصول على كهرباء رخيصة؟ وحُسم هذا الجدل لمصلحة رفض المخاطرة، ولم يصدر هذا البلد ترخيصاً بمفاعل جديد منذ عقود. وعلى الرغم من إيماني بأن ما حدث هو الخيار الخاطئ، فإن المسألة حُسمت بشكل عام بناء على خيار ديمقراطي.

ويبدو عملياً أن هذا الجدل تحديداً بدأ يتصاعد ويحتدم ثانية، ولكن دافعه هذه المرة الوعي باحتمالات احتراق كوكب الأرض ودور حرق أنواع وقود الحفريات مثل الفحم في تفاقم هذا الخطر. وطبيعي أن الحوار الجديد سوف يستلزم توافر مزيد من الموضوعات التي تدخل ضمن المعارف الأولية العلمية ذات الصلة. هذه المرة، بدیناميات المناخ والتغيرات البيئية، وإن ظلت الفكرة الجوهرية واحدة في جميع الحالات. وغني عن البيان أننا لا نكاد نشارك في الحوار بعد توافر الحد الأدنى اللازم من الخلفية العلمية لفهم القضايا موضوع المناقشة حتى يصبح بإمكان كل امرئ منا أن يبني خياراته تأسيساً على القيمة التي نعزوها إلى البيئة مقابل قيمة الطاقة الرخيصة نسبياً. مثال ذلك هل الأهم لنا حماية الناس من أي مخاطر يمكن أن تنشأ نتيجة بناء مفاعلات جديدة أم حماية البيئة من إضافة مزيد من ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي؟

ونعود لنقول إن الحوار ليس مقصوراً بالكامل على العلم، بل يتضمن قضايا يتعين علينا جميعاً بحسمها وفق أفضليتنا الأخلاقية.

ونستطيع أن نسترسل ونقدم مزيداً من الأمثلة، بيد أنني أرى أن الفكرة واضحة، إذ نرى أن بإمكان أي مواطن يعتزم المشاركة في حوار ما أن يحدد بداية حدّاً أدنى للإطار المعرفي عن هذا الحوار واللازم لفهم موضوعه وما يدور حوله. وأحسب أن هذه المعرفة نوع من جواز المرور إلى مضمار الحياة المدنية. ولكن لا يكاد المرء يدخل الساحة حتى ينتقل الحوار نقلة أخرى، وتحتل القضايا العلمية مكاناً خلفياً لتترك الصدارة لقضايا أقل من حيث إمكان التقدير الكمي، وهي قضايا تحظى بقيمة شخصية وإن بدت في إطار الجدل أكثر أهمية.

وجدير بالذكر أن هذا النمط، كما سوف أبين في الفصل العاشر، له دلالاته المهمة لتحديد نوع التعليم العلمي الذي نقدمه لطلابنا؛ نظراً إلى أنه سبيلنا للوصول إلى تحديد تقريبي لمحتوى المعارف الأولية العلمية. ولكن في حدود هدفنا المرسوم هنا أريد أن أشدد على الحد الأدنى لطبيعة المعارف الأولية العلمية اللازمة للمواطن لكي يؤدي دوره المنشود. ووصولاً إلى هذا الغرض أرى أن أهئ فرصة لإطلاع القارئ على سر ينطوي على قدر قليل من اللا أخلاقية داخل المجتمع العلمي.

ثمة أسطورة شائعة تفيد بأن العلماء حين يشرعون في المشاركة في حوار مدني عن مسألة ما فإنهم يفعلون ذلك من موقع الكبرياء المعرفية، بدعوى أنهم الأعلام بالجوانب التقانية للمشكلات موضوع المناقشة. وهذا صحيح غالباً (وليس دائماً) بالنسبة إلى من يظهرون على الشاشة كأنهم القمم وأئمة الفكر ويعرضون على المشاهدين وجهات نظر علمية خاصة ومميزة. بيد أن هذا لا يصدق على المجتمع العلمي بعامة، إذ ما لم يصادف أن يكون موضوع الحوار داخلاً ضمن نطاق البحث الخاص بالمرء فإن الأرجح أنه لن يكون عارفاً بكل جوانب الموضوع أكثر مما يعرف المواطن العادي المثقف. ومن ثم فإن طرفاً من هذا السر هو أن العلماء عادة يكونون في القارب نفسه وعلى قدم المساواة مع جميع المشاركين حين يتعلق الأمر بإطار المعارف اللازمة للمشاركة في الحوارات العامة.

وأراني في حاجة إلى أن أصارح القارئ وأقول إن إدراكي هذه الحقيقة كان بمنزلة صدمة لي. حدث هذا في سبعينيات القرن العشرين وأنا لا أزال حديث عهد (وسادجاً) بالحصول على درجة دكتوراه الفلسفة. وكان موضوع الحوار العام الدائر آنذاك هل ينبغي على الولايات المتحدة أن

تقتدي بزيادة فرنسا وبريطانيا لمشروع تطوير طائرة تجارية أسرع من الصوت؟ وحدث هذا في الفترة ذاتها التي بدأت تسود فيها فكرة تدعو إلى ضرورة التفكير في الآثار البيئية الناتجة من استخدام التكنولوجيات الجديدة. وشرع فريق من العلماء في التعبير عن انزعاجهم من التدمير المحتمل لطبقات الجو العليا، بسبب اطراد تدفق عادم النفاثات على ارتفاعات عالية. (وأذكر أن من أبرز خصائص الطائرة المقترحة أنها سوف تحلق على ارتفاعات أعلى كثيراً من الارتفاعات التي تبلغها الطائرات العادية بغية الحد من مقاومة الرياح).

كنت آنذاك عضواً ضمن فريق صغير من علماء الفيزياء النظرية العاملين في مجال استكشاف تمثل المكونات الأساسية لمادة (quarks) «وتطوير فكرة تفيد بأن أشياء نسميها «كواركات إذ strings كانت الفكرة مقبولة عملياً وإن حلت محلها اليوم أشياء أخرى نسميها الأوتار). الكون يقترح العلماء أنها المكونات الأساسية للكواركات... وكما يقول المثل: دوام الحال من المحال، كنت آنذاك عالماً بكل معنى الكلمة، ولكني لا أملك دليلاً يهديني إلى (ومجد الدنيا إلى زوال حقيقة موضوع الحوار

أو النظرية الخيطية، string theory ونظرية الأوتار، quarks كواركات (*****).

الكوارك: جسيم افتراضي له مقابله جسيم مضاد. بدأ الافتراض على يدي موراي جيل-مان، إذ قال بوجود ثلاثة جسيمات أولية افتراضية ويقابلها ثلاثة جسيمات مضادة، ثم زيدت إلى أربعة جسيمات. والمفترض وفق نظرية الكواركات أن المواد جميعها وكان الظن أنها هي الجسيمات الأولية الحقيقية دون سواها. ثم جاءت نظرية leptons مؤلفة إما من كواركات أو لبتونات الأوتار، وهي مجموعة من الأفكار عن تركيب الكون وتستند إلى معادلات رياضية معقدة. وترى أن المادة مكونة من أوتار أو خيوط حلقية مفتوحة وأخرى مغلقة متناهية الصغر ولا سمك لها، وأن الوحدة البنائية الأساسية للدقائق العنصرية من إلكترونات ونيوترونات وكواركات هي أوتار حلقية من الطاقة، وهي في حالة تذبذب وعدم استقرار، وتتحدد وفقها طبيعة وخصائص الجسيمات الأكبر. وتضع النظرية في الحسبان عند تصورها هذا جميع قوى الطبيعة معاً: الجاذبية [المترجم] M- theory والكهرومغناطيسية والقوى النووية فتوحدها في قوة واحدة ونظرية واحدة تسمى النظرية الفائقة

سبب ذلك بسيط، ذلك لأنك إذا أردت التحدث عن آثار التلوث في طبقات الجو العليا يتعين عليك أن تعرف: (1) ما الكيماويات المحتملة إضافتها؟ (2) ماذا سيحدث لها في تلك البيئة؟ والإجابة عن المسألة الأولى سهلة، إذ يكفيك اليوم إلقاء نظرة إلى جوجل. ولكن المسألة الثانية جد معقدة، لأنها تتضمن تفاعلات كيميائية بين عناصر غير مألوفة في غاز بارد رقيق للغاية سيفيض بكميات هائلة مصحوباً بأشعة فوق بنفسجية صادرة عن الشمس وربما تقترب ببلورات ثلجية منتشرة وتجعل الصورة خادعة. وطبيعي أن الحوار تركز حول ما هو محتمل أن يحدث إذا ما ألقينا كميات هائلة من الكيماويات وسط هذا الخليط

وكانت معلوماتي عن التفاعلات الكيميائية، شأني شأن الأغلبية العظمى من الفيزيائيين، ترجع إلى المقررات الدراسية عندما كنت طالبًا بالجامعة ولاحظت أنه لا شيء في هذا الحوار تحديدًا له علاقة، ولو من بعيد، بما تضمنته بحوثي الخاصة. وفيما عدا المعارف العامة عن التفاعلات الكيميائية، فإن ما تلقيته من تدريبات علمية لم يسعفني بأي معلومات أكثر، حول هذا الموضوع، مما هو متوقع أن يعرفه طالب جامعة متوسط.

إن ما عساي أن أفعل؟ ها هنا مكن السر الذي ينطوي على قليل من اللا أخلاقية. تطلعت بناظري إلى المشتركين في الحوار، وسألت الأصدقاء والزملاء متأملًا حديث كل منهم داخل المجتمع العلمي. وتصادف أن كان أحد الحضور من أصحاب الموقف المعارض في الحوار، وهو الحاصل على جائزة نوبل، والمشهور عنه أنه أحد عمالقة الفيزياء، Hans Bethe الراحل هانز بيث الحديثة، فضلًا عن أنه كثيرًا ما كان المستشار الرسمي للحكومة في الشؤون العلمية. وكان يحظى باحترام عميق من جانب العلماء، وهو شعور أتفق معهم فيه، وقد تولد في نفسي بعد بضعة لقاءات معه. لذلك أنصتُ إليه مليًا حين تكلم. كنت على يقين بأنه يسبر غور الموضوع ويعرفه حق المعرفة، ومن ثم قرر أن الحجج المناهضة لمشروع الطائرة الأسرع من الصوت هي الأصوب والأرجح من تلك الحجج المؤيدة له.

ولكن وضح في النهاية أن الحجج الاقتصادية هي الأهم عمليًا في مسيرة الحوار، وهي الحجج التي لم أهتم بها كثيرًا آنذاك. ونعرف أن الطائرة الكونكورد الأسرع من الصوت حين حُلقت أخيرًا في الجو كانت كارثة مالية، ومن ثم أوقفت الحكومات الراعية المشروع. ولكننا إذا قصرنا اهتمامنا على الجانب العلمي وحده من الحوار، فإن العلماء -وهنا النقطة التي أريد أن أبرزها- لا يملكون معرفة سحرية، تهيي لهم مكانة أسمى عند مناقشة قضايا الحياة المدنية. وجدير بالذكر أن أغلبية العلماء إذا التزموا الأمانة في هذا الصدد فإن في وسعهم أن يقصوا على القارئ مزيدًا من القصص المماثلة لقصتي. لذلك يمكن القول إنه باستثناء القلة ممن يتصادف أن تكون بحوثهم منصبة على جوهر موضوع النقاش، فإن العلماء في حاجة إلى المعارف العامة ذاتها التي يحتاج إليها كل امرئ حال مشاركته العملية بدوره بوصفه مواطنًا.

وثمة حقيقتان: الأولى أن المعارف العلمية اللازمة للمشاركة في حوار عام هي الحد الأدنى منها. والثانية أن العلم نادرًا ما يكون العامل الوحيد المؤثر في اختيار الناس. بيد أن هذا لا يغير

الحجة المحورية، وهي أنه من دون هذه المعرفة لا أحد يستطيع أن يقدم اختيارات معقولة بشأن القضايا موضوع الحوار.

The Demon-Haunted World: «وعبر كارل ساجان عن هذا بأسلوبه في كتاب: «العالم المسكون بالشیطان»

خططنا لحضارة كوكبية تعتمد أكثر عناصرها حسماً على العلم والتكنولوجيا. وخططنا كذلك لأمر بحیث لا أحد يفهم العلم والتكنولوجيا. وهذه وصفة لكارثة»(1)

* * *

إن إصرار فلاسفة ما بعد الحداثة على أنهم مؤهلون للحديث عن موضوعات صعبة، تأسيسًا على قراءات «لكتب شعبية رانجة، من شأنه أن يجعل العلماء يحجمون عن أخذهم مأخذًا جادًا».

المؤلف

المعارف الأولية العلمية: برهان من الثقافة

هل العلم حقيقةً جزءٌ من الثقافة؟ أحسب أن الإجابة عن السؤال رهن بما يعنيه المرء بكلمة ثقافة. إذا فهمنا الثقافة، في أكمل صورها، بأنها الشبكة الاجتماعية والفيزيائية التي يعيش فيها جميع البشر، فإن العلم من دون أدنى شك سيكون بعضها. وأقول، ما سبق أن أوضحت في الفصل الأول، إن القدرة على فهم العالم الطبيعي والتعامل معه هي تحديدًا القسمة المميزة لنوع البشر (الهومو سابينس) عن بقية الأنواع الأخرى.

ولكن كلمة ثقافة تُستخدم في جميع الأحوال بمعنى أكثر محدودية؛ أي بمعنى ما يمكن أن نسميه «الثقافة الرفيعة». وسوف أحدد هذا بأنه جماع المعارف التي يحتاج إليها المرء في مجتمع ما، لتكون له حيثية، وليكون مقبولاً وسط مجموع المثقفين. معنى هذا أن أي امرئ في أمريكا القرن الواحد والعشرين، لم يسمع في حياته عن شكسبير أو موتسارت سوف يعتبره المجتمع غير مثقف، من دون اعتبار لكم الأموال التي يملكها. وطبيعي أن مثل هذا الشخص تصفه اللغة الدارجة بأنه «كمالة عدد» أو غير ذي حيثية.

طاف بخاطري، وأنا أكتب هذه الفقرة، مشهد من عرض كوميدي تلفزيوني شاهدته منذ سنوات، إذ رأيت ممثلًا كوميديًا يجسد دور رئيس قطاع الطرق، ولكن بعد أن تاب وأتاب وكف عن نشاطه. وقد رفضته فوراً امرأة لأنه «فظ جلف»، بعد ذلك سأل قاطع الطريق أصدقاءه عن معنى هذا الوصف فقالوا: «هذا يعني أنك تفتقر إلى اللباقة يا سيدي». أخرج كمية من أوراق النقد التي انتزعها من بين رزمة كبيرة يحملها وقال: «أذهبوا إلى سوق المدينة واشتروا لي بعضاً منها. خذوا الشاحنة

معنى هذا أن أحد سبلنا للوصول إلى هذه الفكرة عن الثقافة هي أن نسأل: ما الذي يجعل امرأ ما في أمريكا الحديثة أهلاً للتحدث فيكشف كلامه عن ذكاء ويحول دون وصفه بالفظ الجلف؟ ثمة بعض الشك في أن الفنون، الرسم والموسيقى كمثالين، ستدخل ضمن هذه الفئة، كذلك حال الكتابات في مجالات فرعية، والتي تندرج تحت مسمى الأدب.

ونظرًا إلى أنني مؤلف ألف كثيرًا من الكتب، فقد اعتدت دائمًا أن أصاب بالدهشة حين ألقى نظرة على قائمة المؤلفين والكتّاب المدعويين للحديث في مناسبات من مثل معارض الكتب والحفلات الأدبية، إذ يمكن للمرء أن يستخلص من هذه القوائم نتيجة مؤداها أن الأدب يتألف جله تقريبًا من الرواية والشعر. وأكاد أجزم بأنني لم أطلع قط اسم مؤلف غير روائي في أيّ من هذه القوائم، ومن ثم لم أجد ضمنها يقينًا أي مؤلف عن العلم. ولا يظن أحد أنني مجنون أو مذعور، ولكن الانطباع الذي تشكل عندي على مدى سنوات هو أن العلم -ببساطة شديدة- ليس موضع ترحيب (وربما أيضًا ليس موضع تقدير) داخل أوساط من يرون أنفسهم مثقفين. وأقول إن أحد الأسباب التي استهوتني بشدة بشأن مشروع المعارف الأولية الثقافية هو الحاجة إلى العمل عن وعي ذاتي من أجل تضمين العلم جزءًا من هذه الثقافة عينها.

وأزعم في النهاية أن هذا هو لب دراستي وحجتي في هذا الفصل. وأرى أن من البديهيات القول بأن تطور العلم على مدى القرون الثلاثة هو الذي صاغ المجتمع الغربي. لذلك يبدو لي أن تضمين معرفة العلم ضمن العتاد الفكري الذي يتسلح به المثقفون في مجتمعنا حري بأن يتحقق تلقائيًا في الواقع، أو ما يسميه طلابي مسألة بغير حاجة إلى تفكير. وواقع الحال أن عدم النظر إلى العلم على هذا النحو هو أحد الأسباب التي تجعل الناس أميل إلى قبوله كمسألة طبيعية، ولكن بمجرد أن نشرع في التفكير في الأمر جدّيًا حتى يبدو غريبًا، لذلك فإن أول سؤال يجب أن نسأله هو: هل يتأتى لقوة مهيمنة في مجتمعنا، وربما يقول البعض القوة الوحيدة المهيمنة، أن تتوارى في زاوية مظلمة داخل الصرح التعليمي؟ وسوف أعرض فيما يلي مرحلتين تاريخيتين مهمتين من التفكير في هذه المسألة، ثم أتحدث بعد ذلك عما يمكن أن يفيد به تعلم المعارف الأولية العلمية لكي يغدو العلم أكثر محورية في الثقافة.

سي. بي. سنو والثقافتان

يستحيل على المرء أن يمضي بعيداً في مناقشة العلم والثقافة من دون الإشارة إلى العمل الرائد الذي، شننا أم أبينا، حدد مصطلحات الحوار على مدى نصف القرن الأخير، ذلك أنه في العام 1959 كان الدور على عالم الكيمياء والروائي والموظف الرسمي البريطاني تشارلز ذات المكانة والمهابة في جامعة كمبريدج، (Rede) (*****) «بيرسي سنو، ليقدم محاضرة «ريد واتخذ عنواناً للمحاضرة هو «الثقافتان والثورة العلمية»، ونشرها بعد ذلك في كتاب يحمل العنوان ذاته. واعتمد فرضية أساسية هي أن الثقافتين، العلمية والأدبية، نشأتا وتطورتا (في إنجلترا على الأقل) بحيث تنفي إحداهما الأخرى، واستدل بالأنماط الأدبية لإدانتها بأنها تمادت عامدة في الجهل بوحدة من أهم قوى تشكيل المجتمع. وعرض رؤيته على النحو التالي في فقرة: من كتابه، أصبحت فيما بعد هدفاً لكثيرين لاقتباسها والاستشهاد بها

موعد سنوي لتقديم محاضرة علمية عامة في جامعة كمبريدج. سُميت بهذا الاسم: Rede Lecture محاضرة ريد (*****) نسبة إلى قاضي القضاة سير روبرت ريد في القرن السادس عشر. بدأت في صورة سلسلة محاضرات منذ عام 1668 إلى نحو عام 1858، وتشمل تقديم ثلاث محاضرات سنوياً، إحداهما عن المنطق، والثانية في الفلسفة، والثالثة في البلاغة. وأصبحت منذ عام 1858 محاضرة واحدة سنوياً يقدمها عالم يحده نائب رئيس الجامعة. [المترجم]

شاركت مرات كثيرة جداً في تجمعات يوصف أصحابها، بمعايير الثقافة التقليدية، بأنهم أصحاب ثقافة رفيعة، والذين أعربوا بأسلوب يفيض حيوية عن تشككهم إزاء أمية العلماء. واستفزني الحديث مرة أو مرتين، ومن ثم سألت المشاركين معي: كم منهم بوسعه أن يعرفني ما هو القانون الثاني للديناميكا الحرارية؟ جاءتني إجابة محبطة ومثبطة للهمم، إذ كانت سلبية أيضاً. هذا على الرغم من أنني أسأل عن شيء هو المعادل علمياً لسؤالك: «هل قرأت عملاً من أعمال شكسبير؟» (1)

ومن نافلة القول أن هذه الرؤية فجرت جدلاً ضارياً وسط رموز الأدب الإنجليزي. وتضمنت شن هجوم شنيع بعيد عن كل اعتبارات العقل والمنطق وجَّهه «إف. آر. ليفيس»، وهو أحد رواد الدراسات الإنسانية في البلاد. ونجد من بين أقل تعليقاته حقداً ومرارة اتهامه بأن سنو «أبعد ما يكون عن وصفه بأنه متميز فكرياً» (2). (وعلى الرغم من أنني أعدت قراءة هذه الكلمة بعد مضي نصف قرن فإنني لاحظت أن ليفيس لم يُشير البتة إلى أن لديه أي معرفة -ولو بدائية وبسيطة- عن ماهية القانون الثاني للديناميكا الحرارية)

ورغبة مني في الارتفاع بمستوى العرض قبل أن أستطرد، أستأذن القارئ في أن أوضح أن أكثر المعلومات الشائعة عن القانون الثاني تفيد بأن أي منظومة منعزلة لا يمكن أن تصبح أكثر انضباطاً وانتظاماً مع الزمن. ولنحاول معاً أن نتأمل سلسلة متوالية لمجموعة من الصور الفوتوغرافية على فترات زمنية مختلفة لحجرة نوم فتى في سن المراهقة حتى تتضح الفكرة تماماً. وغني عن البيان أن القانون الثاني له تجليات ونتائج هائلة في حياتنا، مثال ذلك أن يقضي بأن ثلث الطاقة بالكامل الناتجة عن احتراق الفحم لتوليد الكهرباء لا بد من أن نفقده في صورة حرارة مبددة أو عادم ينطلق في الجو، ويشكل أحد العمد المحورية للعلم الحديث. (إن كل من يريد الاطلاع على مناقشة شائقة وممتعة لهذا الموضوع أنصحه بأن يقرأ الكتاب المدهش من تأليف هانز فون باير وعنوانه «شيطان ماكسويل: لماذا يشيع الدفاء ويمضي؟» [*****](#)).

[*****](#) Hans von Baeyer: Maxwell's Demon: Why Warmth Disperses and Time Passes.

بعد أن تناولنا القانون الثاني تمكن العودة إلى الفرضية الأساسية عند سنو، وتفيد بأن ممارسي العلوم والإنسانيات أقاموا جداراً أصم عازلاً فيما بينهم. وأظن أن هذه الظاهرة كانت (ولا تزال) أكثر شيوعاً داخل أوساط المفكرين البريطانيين أكثر منها بين الأمريكيين. بيد أنني، مع هذا، كثيراً جداً ما صادفت عداء للعلم في عدد من اجتماعات ومؤتمرات الكلية، ما جعلني أدرك أن كثيراً من المواقف التي انتقدها سنو لا تزال شائعة.

وليسمح لي القارئ بأن أبدأ بالحديث عن زملائي العلميين. نلاحظ في أغلب الجامعات الأمريكية أن طلاب العلوم والهندسة ملزمون بتلقي مقررات خارج مجالهم. وتسمى مستلزمات المجال، وذلك حتى يتسلموا درجاتهم العلمية. وتعتمد بعض المؤسسات إلى أن تولي اهتماماً بالمقررات التي يدرسها الطلاب، ولكن الشائع أكثر أن تتجاهل الهيئة التدريسية الأمر وتسمح للطلاب بتبني نهج يتضمن تشكيلة واسعة ومتباينة من الموضوعات في مجالات الدراسة غير العلمية. واعتدت حين أحضر الاجتماعات التي يناقش فيها أعضاء مجلس الكلية المشهود لهم بعمق الفكر أن أ طرح بين الحين والآخر سؤالاً بسيطاً على طاولة الحوار هو: «ما التدريب الذي تريدون أن يتدرب عليه طلابنا خارج مجال التخصص؟»

وغالباً ما تأتي الإجابات على النحو التالي من دون تغيير: 1- نريد لهم أن يكونوا في وضع أفضل من حيث الاتصال، خصوصاً عند الكتابة والتأليف. 2- نريد أن يتوافر لديهم تقييم أفضل

لدور كل من العلم والتكنولوجيا في المجتمع، سواء في الماضي أو الحاضر. 3- نريد أن تتوافر لديهم رؤية شاملة عن كل العلوم بحيث يتسنى لهم فهم كيف يتلاءم مجال تخصصهم مع المجالات الأخرى. (وتصادف أن حصلت على قائمة تكاد تكون مطابقة لهذه الأجوبة عندما أشرت السؤال نفسه مع علماء من قطاع الصناعة الخاص).

وبعد أن تستمر المناقشة مع زملائي في الكلية لفترة من الزمن ألقى عليهم سؤالاً مختلفاً تماماً، إذ أقول: «وهو كذلك، إذا كان هذا ما تريدونه فما رأيكم في التفاوض مع قسم اللغة الإنجليزية بشأن إضافة فصل دراسي لمقرر مدته 3 ساعات يخصص للتأليف للمتخصصين في دراسة العلم؟». هنا، وعند هذه النقطة، ترى الجميع وقد خرجوا عن المسار ويقولون: «لا، لا». «المقرر الدراسي لا يكاد يفسح مكاناً لذلك».

بيد أنني أحياناً، وبدافع الرغبة في الإثارة، أبدأ في التمادي أكثر: أليس في الإمكان أن نعهد بمثل هذا المقرر الدراسي التقني إلى مدرسة عليا؟ ما رأيكم في خفض العدد اللازم من البرامج الاختيارية في العلم والرياضيات بحيث نفسح مجالاً للكتابة أو لمقرر دراسي عن العلم والمجتمع؟ ويؤسفني هنا أن أقر بأنني على مدى عملي الأكاديمي، وعلى مدى ساعات لا حصر لها قضيتها في لجان المقرر الدراسي، عجزت تماماً عن دفع المناقشة بحيث تتجاوز هذه النقطة.

والجدير ذكره أن زملائي لا يعوزهم الذكاء وحضور البديهة، إن لديهم هدفاً واضحاً يشغل تفكيرهم: يريدون تخريج أفضل العلماء والمهندسين قاطبة قدر الاستطاعة. ونتيجة ذلك يركزون اهتمامهم على حشو المقرر الدراسي بأكبر كمية من المعارف الفنية، ويؤدي هذا، كما توضح المناقشة سالفة الذكر، إلى الحد من الساعات التي يمكن أن يقضيها الطلاب لاكتساب مهارات من خارج التخصص.

وأزعم أن هذا هو السبب في وجود العالم النمطي غير الاجتماعي العازف عن كل شيء عدا بحوثه. ويؤكد الواقع العملي أن المقرر الدراسي شديد التخصص يضر ضرراً بالغاً بطلاب الدراسة العلمية، ذلك لأن أقل القليلين منهم هو من سيقضي كل حياته العملية عاكفاً على طاولة المعمل أو شاشة الحاسوب، إذ سيتغير عملياً موقعهم في العمل ويبدأون في التفاعل مع الإدارة والجمهور، وهنا عند هذه النقطة ستكون مهارات مثل مهارات الاتصال أمراً غاية في الأهمية. زد على هذا أن النهج المنغلق على تعليم العلم والهندسة، الذي أشرنا إليه، من شأنه أن يخلق

ظواهر من أشد الظواهر التي أعرفها غرابية، وهي الحقيقة التي أشرت إليها في الفصل الثالث، بأن العلماء العاملين يؤلفون فريقاً هو من أكثر الفرق الأمية علمياً في مجتمعنا.

وليسمح لي القارئ، بعد أن فرغت من كل ما ذكرت، بأن أبدي ملاحظة أخرى، إذ على الرغم من كل هذه الأنواع من القيود المفروضة على المقررات الدراسية فإن خبرتي توضح أن العلماء يشاركون في الثقافات الأدبية والفنية أكثر من أغلبية الجماعات الأخرى. اذهب إلى حفل موسيقي أو مسرح أو أوبرا في أي جامعة، سوف تشهد نسبة كبيرة من الحضور هم من الكليات العلمية. لدي انطباع عام -في الواقع- بأنه من المرجح أنك سوف تجد أن نسبة المشاهدين والحضور من الأقسام العلمية أعلى كثيراً من الحضور من أبناء أقسام الفلسفة أو اللغة الإنجليزية. ونلاحظ أنه لسبب ما اكتسب كثيرون من العلماء -فيما يبدو- قدرة على تذوق الفنون، ربما بسبب ما تلقوه وهم لا يزالون طلاباً، من مقررات خاصة بالتذوق والتقييم الموسيقي.

وثمة تراث شعبي معين يدعم هذا الزعم، إذ يقال إن هناك رابطة أسطورية بين الفيزياء النظرية (وهي من أنشطة النصف الأيسر من المخ)، وبين الموسيقى (التي تعمل تأسيساً على النصف الآخر من المخ). وخير مثال يجسد هذه الرابطة قد نجده في أداة الكمان عند ألبرت أينشتاين. بيد أنني شاهدت ما يكفي في حياتي لكي أدرك أن أينشتاين أبعد من أن يكون استثناء. وأذكر أنه في أثناء تعاظم موجة الرقص الشعبي (الفولكلوري) خلال سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، وقد كنت معلماً للرقص ومخرجاً مسرحياً، اعتدت أن أجد أن جل الراقصين الذكور هم من العلماء أو الباحثين الرياضيين أو متخصصي برامج الحاسوب. ويذهب بي الظن إلى الاعتقاد أن ثمة نوعاً من الراحة التي يستشعرها المرء عند الانتقال من نشاط عقلائي خالص إلى نشاط بدني.

ولكن ثمة سبباً آخر يجعل العلماء يشعرون بأن من اليسير نسبياً عليهم تجاوز الفاصل بين الثقافتين. وهذا السبب في كلمة واحدة هو اللغة. وسبق أن أوضحت أن اللغة الطبيعية للعلماء هي الرياضيات، وهي لغة عالية التخصص، تستلزم استخدام قدر كبير من التدريب. ونعرف من ناحية أخرى أن اللغة الإنجليزية هي اللغة الطبيعية للإنسانيات في أمريكا، وهي الشيء الذي نتعلمه جميعاً في أمريكا وفي بريطانيا منذ الطفولة. معنى هذا أنه إذا ما أراد عالم معرفة شيء عن مسرحية لشكسبير (وهنا نعود إلى سي. بي. سنو) فما عليه إلا أن يلتقط المخطوطة أو (وهو الأفضل) أن يشاهد المسرحية. حقاً ربما هذا لا يهيئ للشخص فهماً عميقاً للمسرحية،

ولكن فقط مجرد وصف بسيط. ونشير إلى أن سنو حين سأل الحضور لم يكن يطلب من أيّ منهم فهماً عميقاً للقانون الثاني للديناميكا الحرارية.

أحسب أن هذا الفارق اللساني الطبيعي هو الذي يفسر لنا وجود معيار مزدوج غريب يفصل بين الثقافتين. نحن نعرف جميعاً أن كل شخص مشارك في حفل غداء فكري مهياً، كما هو متوقع، لكي يتحدث حديثاً فيه ذكاء وفهم عن رواية أو فيلم جديد، وليس عن أحدث نتائج تلسكوب الفضاء هابل أو عن نظرية الأوتار. وأجد لزماً أن أقول إنني كثيراً ما سمعت كثيرين من زملائي العلميين يعربون عن هذا النوع من الغضب نفسه الذي أشعر به إزاء هذا الموقف. إنه يبدو لي غير منصف. بيد أنني مضطر إلى أن أقول أيضاً إنه في حالة افتقاد نوع الإصلاحات التي أقرحها في الفصل الثاني عشر فإنني لا أرى أن الموقف سوف يتغير في المستقبل القريب.

وماذا عن الوجه الآخر للفاصل بين الثقافتين؟ ليسمح لي القارئ بأن أستهل بالإشارة إلى أنه مثلما يشارك كثيرون من العلماء في الفنون، فإن كثيرين من زملائي في مجال الإنسانيات والعلماء الاجتماعيين لديهم إمام ومعرفة بأحدث التطورات العلمية. مثال ذلك أن دون هيرش، بالإضافة إلى كونه مبتكر مفهوم المعارف الأولية الثقافية، هو أيضاً واحد من أكثر من شاهدتهم فهماً ومعرفة بالإنجازات العلمية والتكنولوجية على الرغم من واقع أنه أستاذ للغة الإنجليزية. في جامعة جورج ماسون، فإنه عالم في السياسة James Piffner كذلك زميلي جيمس فيفندر متخصص في دراسة التحولات الرناسية وحريص على أن يرسل إليّ باستمرار جذاذات لكي أطل على اطلاع دائم على أحدث التطورات في مجال تخصصي. علاوة على هذا لم أصادف إلا قليلاً من المتعترضين المتكبرين، كالذين أثاروا غضب سنو بشدة منذ نصف قرن مضى، وربما سبب ذلك يرجع إلى أنني قضيت جل حياتي العملية داخل الولايات المتحدة.

وعلى الرغم من هذا كله، أحسب أن فكرة سنو الأساسية، وهي أن المشتغلين بالإنسانيات ممن هم على الجانب الآخر من الهوة الفاصلة بين الثقافتين يجهلون كثيراً عن العلم، هي فكرة صحيحة اليوم مثلما كانت كذلك في العام 1959. ويمكن للمرء أن يتبين أحد أسباب ذلك عندما يلقي نظرة على مستلزمات التخصص في الجانب العلمي في الجامعات الأمريكية، الجانب المثير في الشروط هو أن يتلقى العلماء والمهندسون برامج دراسية خارج مجال تخصصهم. ونلاحظ أن هذه الشروط التي لم تتغير منذ أيام سنو تطالب، وبشكل شبه دائم، بأن يقضي الطالب سنة في تلقي مقررات في العلم. والجدير ذكره أنه عادة لا توجد مؤشرات تحدد محتوى هذه المقررات،

ولذلك فإن برنامجًا دراسيًا عن تاريخ الحركة الأمريكية للحفاظ على البيئة يمكن في بعض المؤسسات أن يفي بالغرض، مثله مثل مقرر دراسي في العلم الطبيعي.

وليس عندي الآن اعتراض على تعلم تاريخ حركة الحفاظ على البيئة، ولكن برنامجًا كهذا ينبغي ألا يشغل نصف مدة التعليم المقررة لتعلم العلم في الكلية، مثله مثل برنامج تعليمي متخصص في فن إضاءة المسرح، وهو برنامج دراسي قيم، ولكن يتعين ألا يشغل نصف وقت العالم للاطلاع على الإنسانيات.

والجدير ذكره أن عدم اطلاع المشتغلين بالإنسانيات على العلوم أفضى، على نحو غريب، إلى إضعاف الحياة الفكرية الأمريكية. مثال ذلك أننا ونحن عاكفون على تجميع مادة «قاموس المعارف الأولية الثقافية» أرسلنا نسخًا إلى كثيرين من زملائنا (أصدقاء أو نقاد)، وكانت نسبة مئوية كبيرة من هؤلاء أعلام فكر مشهورين، مؤرخين ومعلمين ومعلقين سياسيين وغيرهم، وردَّ أكثرهم بإرسال دراسات تحليلية عميقة ومطولة تناولوا فيها عملنا الذي نحن بصدده. ولكن ما أذهلني عند قراءة هذه الإجابات أنه في الوقت الذي قدم فيه العلماء تعليقات تناولت هيئة التحرير، عمد آخرون إلى الاسترسال في تفاصيل كثيرة عن قسمة الأدب والسياسة، ثم التعقيب على هذا بجملة اعتذار من مثل «ولكن من الطبيعي أنني في الحقيقة لست مؤهلًا للحديث عن العلم». وحقيقة فإن هؤلاء الأعلام المشهورين تعوزهم الثقة لتحليل العلم بالطريقة نفسها التي يحلون بها كل جوانب الثقافة الأمريكية، مما يؤكد اطراد الهوة الفاصلة بين الثقافتين في عصرنا. الحديث شأن كل شيء أعرفه في الحياة.

الثقافتان اليوم: انعطافة ما بعد الحداثة

لتكن الحياة الأكاديمية على ما هي عليه، فثمة أيضًا رؤية جديدة مطروحة بشأن الهوة بين الثقافتين ظهرت خلال العقدين الأخيرين، رؤية لم يكن ليحلم بها سنو. وأشير هنا إلى شيء تطور إلى ظاهرة تسمى حروب العلم في أواخر تسعينيات القرن العشرين.

ولا عليك إن لم تكن قد سمعت شيئًا عن هذه الحروب، وذلك لأن أغلبية العلماء لم يسمعوا عنها أيضًا (وكثيرًا ما تساءلت في دهشة عما إذا كان بالإمكان القول بأن ثمة حربًا قائمة بينما أحد طرفيها لا يدري بها)، يمكن القول في البداية إن حروب العلم نشبت بفعل فلسفة ما بعد الحداثة غير التقليدية التي سرت كالعنكبوت داخل أقسام الإنسانيات في الجامعات الأمريكية في

أواخر القرن العشرين (ويقال لي إنها الآن في سبيلها إلى الخمود). وتأسيسًا على النظرية الأدبية الفرنسية فقد أكدت وجهة النظر هذه البناء الاجتماعي للمعرفة، ومن ثم تنكر عادة صواب فكرة الحقائق الموضوعية. ونعرف أن أشد دعواتها تطرفًا (وما أكثرهم!) قد انحدروا إلى صورة مبتسرة من الذاتية أو الأحادية المطلقة؛ مستخدمين حججًا من النوع الذي استخدمه صمويل جونسون حين رفس صخرة بقدمه قائلاً: «ولهذا أنا أفنّدها [فلسفة الأسقف بيركلي]» (3) [\(*****\)](#).

جورج بيركلي (1685-1753)، وهو فيلسوف وأسقف أنجليكاني إيرلندي كان من أهم مساندي الفلسفة اللامادية [\(*****\)](#) أو الجوهرية التي تنفي وجود شيء اسمه المادة. وترى أن العالم المادي، كما يفهمه البشر، لا يعدو كونه فكرة في عقل الله. [المترجم].

وسبق لي أن أوضحت في الفصل الأول أن العلم مختلف عن الأنشطة الفكرية الأخرى، لأنه يعتمد على حكم منزه للأفكار الطبيعية ذاتها. فبالنسبة إلى العالم، بمجرد أن تنطق التجربة، ينتهي النقاش. وهذا الجانب تحديدًا من العلم، الذي أدفع بأنه لب المشروع برمته، هو ما يهاجمه فكر ما بعد الحداثة.

وأود أن أقول، قبل أن نسترسل: إنني لا أشك حقيقة في أن ثمة مكونًا اجتماعيًا في العلم، إن العلماء يتحدثون بعضهم إلى بعض، وتتطور أفكارهم وسط سياق اجتماعي. زد على هذا أن العلم ثاوٍ في بطن الثقافة الأوسع نطاقًا، ومشارك في المفاهيم المسبقة وأنماط الفكر السائدة. مثال ذلك أن إسحاق نيوتن لم يكن بوسع أن يتصور مبادئ النسبية بقدر ما لم يكن بوسع تآليف مقطوعة من موسيقى الرباب. علاوة على هذا فإن العمليات الاجتماعية والسياسية يمكن أن تؤدي إلى تسريع أو إبطاء تقدم مجال معين من مجالات العلم. ويكفي -كمثال- أن نتأمل الموقف الأمريكي الراهن من موضوع الخلايا الجذعية. ومن ثم لا يوجد أدنى شك في أن المناخ الاجتماعي العام له تأثيره في العلم.

ونظرًا إلى أن العلماء يشكلون -فيما بينهم- مجتمعهم الخاص بهم، هناك أيضًا قيود داخلية على البحوث داخل كل مبحث علمي، وهي قيود ليست لها علاقة كبيرة بمتطلبات العلم ذاته. مثال ذلك أنه في مطلع القرن الواحد والعشرين أصبح شبه مستحيل على العلماء الذين اعتادوا التشكك في عقيدة احترار كوكب الأرض أن ينشروا أعمالهم في كبريات الصحف. وساد اتجاه عام بأن التعبير عن الشكوك حول التنبؤات الذائعة يشتغلها السياسيون لتجاهل تحذيرات عموم الباحثين. ويميل مثل هذا السلوك إلى أن يؤدي إلى نتائج عكسية، وإن كنت أجد به شخصيًا سببًا للعار

يلحق بالمسؤولين عن التحرير. ونعرف أن من دواعي البهجة الكبرى في الحياة العلمية أن صحيفة مهمة مضطرة إلى تغيير سياستها في مواجهة معلومات كاسحة. وجرى بنا أن ندرك أن المحررين هم في نهاية الأمر علماء، وأنهم مثل جميع العلماء سيقبلون عملياً، ولو على مضض، حكم العالم الطبيعي.

وأذكر حادثة وقعت في ثمانينيات القرن العشرين توضح لي حدود السيطرة الاجتماعية على العلم. حدث هذا وقت بداية تصدر الفكرة القائلة إن حيوان الديناصور انقرض تحت تأثير كويكب كبير، وتحتل هذه الفكرة الآن مكاناً لها في المراجع الدراسية، ولكن كثيرين من الباحثين الجيولوجيين آنذاك رأوا أنها فكرة تثير اضطراباً عميقاً. ويرجع قلقهم إلى سبب تاريخي في الأساس. ونبعت صراعاتهم الأساسية في مجال علمهم من محاولات قدامى الجيولوجيين الذين حاولوا ترجيح ومناصرة فكرة تقول بالتطور التدريجي لسطح الأرض. وهذه فكرة واجهت معارضة شرسة من القائلين بأن الأرض شهدت أحداثاً كارثية مثل طوفان نوح. وإذ حقق الجيولوجيون انتصاراً كبيراً في هذه المعركة التاريخية بعد جهود جبارة خلال القرن الثامن عشر، فقد كانوا حريصين أشد الحرص على ألا يسمحوا لأبيّ كان، خاصة علماء الفيزياء، بتسريب نوع آخر من الكوارث في تاريخ كوكب الأرض.

وبسبب هذه البنية الذهنية الفلسفية، حدث كثير من مظاهر التردد بشأن نشر كتب ذات علاقة اضطرت إلى سحب مقال Smithsonian Magazine بتأثير الكويكب. وأذكر على سبيل المثال أن مجلة يتعلق بهذا الجدل بسبب أن أحد كبار المحررين بالمجلة، وهو عالم إحاثي، اعترض على أن تنشر المجلة موضوعاً شَبَّهه بمثلث برمودا.

على أي حال، وقتما احتدم الجدل وبلغ ذروته كنت أشارك في حلقة بحث تحدثت فيها عالمة معنية بعلم اجتماع العلم. عرضت دراسة تفصيلية عن المناقشة السياسية التي تضمنتها عملية الترويج للفرض الخاص بالكويكب؛ من تحدث مع مَنْ من المحررين، ومن حاول إعاقة نشر ورقة بحث ما، وما إلى ذلك. وبدا تحليلها مصداقاً حقيقياً للمثل القديم عن صناعة المقائق: الجمال في تذوقه لا في مشاهدة عملية إعداده... أُوليس جميلاً في أغلب الأحيان أن نشاهد تفاصيل ميلاد فكرة علمية؟

والمثير أن أحداً من العلماء في القاعة لم يُبدِ دهشة إزاء التحليل الذي قدمته، إذ كنا جميعاً على وعي كامل بأن مجتمعنا له نهجه المميز في سياسته. ولكن ما صدمنا حقاً هو أن المتحدث

بدأت لنا كأنها ترى أن الاستغراق في السياسة هو الذي فرض صدق الغرض الخاص بالكويكب. وتضاعف شعورنا بإنكار ما ذهبت إليه، حتى إن أحد كبار علماء الإحاثة لم يستطع صبراً وتكلم «أخيراً. وقف ووجه إليها سؤالاً: «هل يعرف علماء الاجتماع أن هذه المعلومات مهمة؟»

يبين هنا أن السياسة في رأي العلماء الحاضرين في القاعة تمثل تفاصيل غير جوهرية بحيث إن تأثيرها أضعف ما يكون بالنسبة إلى الفرض الخاص بالكويكب. إن ما يعيننا هو تراكم المعلومات التي دعمت الفرض، ذلك لأننا عرفنا أن الفوز يكون للمعلومات في نهاية المطاف. بيد أن زميلتنا صاحبة اتجاه ما بعد الحداثة ترى أن المعلومات (حتى إن بدأت في غير موضعها) تمثل جانباً غير جوهري في العملية. وبدا أنها تؤمن بوضوح بأن ما حفز المجتمع العلمي على قبول هذا الفرض هو كل المكالمات الهاتفية التي جرت من وراء الكواليس مع المحررين وما إلى ذلك.

وهكذا تتمخض هذه المعلومات بشأن الثقافتين عن الحاجة إلى التساؤل بشأن ما ترى المجتمعات المختلفة أنه مهم من وجهة نظرها. ويمكن القول -بوجه عام- إن العلماء لا يعترضون على أن يدرس الناس أساليب وعناصر العمل الداخلية في مجتمعنا. هذا على الرغم من أن أغلبنا، إذا ما صدقنا القول، يجد في هذا بعضاً من أسباب الضجر. ونلاحظ أن من تأسروهم سياسة العمل والعاملين لن يختاروا في النهاية على الأرجح الاشتغال بالعلم. ولكن المعلومات هي الشيء المهم بالنسبة إلينا في النهاية. ونحن نصر على وجود فارق أساسي بين شيء مثل القانون الثاني للديناميكا الحرارية والاتفاق الاجتماعي على أن الضوء الأحمر في المرور يعني «قف».

ولكن من يشغلون الجانب الآخر في حروب العلم، أو على الأقل من هم في الطرف الأقصى منه، غالباً ما ينكرون وجود فارق حقيقي بين الاثنين. عندهم أن العلم، بكل صورته، هو بناء اجتماعي مثله مثل قوانين المرور. ويشعر العلماء بإحباط كامل تجاه هذه النظرة. وأدى هذا الشعور بأحد علماء الفيزياء إلى دعوة خصم له في أثناء حوار معه -إلى عمل اختبار للبناء الاجتماعي للجاذبية بالقفز من شرفة بناء مرتفع حيث يجري الحوار.

وأشعر بأنني مدين لأستاذ اللغة الإنجليزية بجامعة أوكلاه، البروفيسور بريان بويد، نظراً إلى دراسته التحليلية الرائعة لهذه المشكلة في مقال له في العام 2006 نشرته مجلة الباحث: إذ لخص مخطط ما بعد الحداثة في ضوء مُسَلِّمَتين، 'The American Scholar' الأمريكي

أي المذهب القائل بأنه لا شيء، بما في ذلك العلم، 'antifoundationalism' لا قاعدة أساسية -1
بوسعه أن يقوم على أساس من حقيقة محصنة ضد النقد والهجوم

الاختلاف، وهو المبدأ القائل بأن جميع أحكام الحق والصدق نابعة وفق معايير محلية، -2
ومن ثم لا يمكن أن تكون حقائق كلية (وهذا الأخير هو ما أسميه على نحو مجمل البناء
الاجتماعي).

ونحن في إمكاننا الدخول إلى لب الموضوع إذا ما تركنا جانباً القضية المنطقية الخاصة
بادعاء حقيقة كلية، وأن لا مجال لصواب الزعم بوجود مثل هذه الحقيقة. وإذا ما عدنا إلى
تفسيرى السابق للمنهج العلمي في الفصل الأول لوجد القارئ أن الجوهر الحقيقي في هذا
المنهج هو أن العلم محوره الاختبار المطرد للأفكار. معنى هذا أنه لا يوجد الآن في العلم، ولم
يكن هناك قط في الماضي، شيء اسمه الحقائق الكلية للعلم، بل يوجد فقط اقتراب أفضل وأفضل
باطراد نحو الواقع. معنى هذا أن مقولة «إنه لا قاعدة أساسية ثابتة» هي إلى حد كبير جزء من
العلم، بحيث إننا لم نعد نتناولها بالحديث. ويتهم بويد في الحقيقة أصحاب ما بعد الحداثة بأنهم
«يكتشفون» شيئاً خاصاً بالعلم هو في جوهره جزء من صلب العلم منذ زمن طويل. ويتتبع هذه
الفكرة ويعود بها إلى داروين. وسوف أعود بها أنا إلى أبعد من ذلك، إلى نيوتن بكل تأكيد،
وربما إلى ما قبله أيضاً.

وجدير بالذكر أنني حين قرأت مقال بويد ومضت فجأة في ذهني الأسباب التي من أجلها
شعرت بغضب شديد حين استمعت إلى تلك العبارات المغرورة على لسان أصحاب ما بعد الحداثة
في كثير من الندوات والمؤتمرات. وهذا هو الشعور نفسه الذي ينتابك حين ترى صبيّاً في بواكير
المراهقة يزهو بنفسه كأنه أول من اكتشف الجنس في تاريخ البشرية. ألا يُنتج العلم حقائق
خالدة لا تقبل التغيير؟ إن طلابي سوف يجيبون عن ذلك بقولهم: «آه... طبعاً. لست في حاجة إلى
حقيقة أبدية خالدة لإحداث تحورات عميقة في الوضع البشري أو للوصول إلى فهم واسع رحب
«الأفق عن الكون الذي نعيش فيه. إن مقارباتنا الراهنة كافية تماماً في هذا الصدد، وشكراً لك

ولنا أن نقول بوجه عام، وكما أسلفت، إن حروب العلم أثرها واهٍ جداً في العلوم ذاتها. وهذا
موقف غريب إذا ما فكرت فيه. وقد اعتدت دائماً أن أستشعر بعضاً من الغرابة لوجود مجالات
بحث علمي معترف بها تحمل أسماء مثل سوسولوجيا (علم اجتماع) العلم، وفلسفة العلم. ولكن

هذه الميادين ليس لها أي تأثير في عملية العلم ذاته، لسبب بسيط هو أن علماء قليلين هم من يولونها قدرًا كبيرًا من اهتمامهم.

ويرجع هذا إلى أسباب كثيرة أحدها أن بعضنا، ممن حرصوا على تأمل أدب ما بعد الحداثة، لم يتأثروا بما عاينوه في قليل أو كثير. واعتدنا أن نجد -في أحيان كثيرة- تحليلات مدفوعة بأجندة سياسية يسارية بوجه عام، مقرونة بمعلومات انتقائية بهدف تعزيز مواقف محددة مسبقًا. مثال ذلك أن كثيرًا من الدراسات الاجتماعية عن الجماعات التجريبية في مجال الفيزياء عالية الطاقة تضمنت معلومات مصدرها فكر نسوي، حيث تكشف عن أن أداء الفرق هو أداء «ذكوري» و«تنافسي». ونظرًا إلى أنني شاركت مع جماعات كثيرة من هذه الجماعات في أثناء عملي، أراني مضطرًا إلى أن أصرح بأنني لا أرى في هذا التحليل تلك الفرق التي أعرفها. هل أعضاء هذه الجماعات متنافسون؟ نعم بكل تأكيد، ولكنهم أيضًا متعاونون. هل هم عدوانيون في علاقاتهم بعضهم ببعض؟ نعم يقينًا، ولكنهم أيضًا داعمون بعضهم لبعض. صفوة القول إن هذه الجماعات مثلها مثل أي من الجماعات البشرية الأخرى المشاركة في أداء مهمة جمعية معقدة. إن المرء إذا شاء -متعمدًا- البحث عن نمط سلوكي محدد فسوف يجده على الأرجح بغض النظر عن نمط هذا السلوك. وإذا ما توقف عند هذا الحد، من دون البحث عن أنواع أخرى من السلوكيات، فإنه سيحصل في النهاية على صورة شائهة عما يجري في الواقع. وأنا في الحقيقة كلما قرأت هذه الدراسات فإنني أتساءل: هل هذا ما يمكن أن تشعر به الذرة إذا كان بوسعها أن تقرأ كتابًا مرجعيًا في الفيزياء؟ وأقول ختامًا إن أغلبية العلماء أكثر ميلًا إلى تجاهل انتقادات ما بعد الحداثة، وذلك لسببين: الأول أنها تبدو لنا كأنها تركز على قضايا هامشية. والثاني أنهم حين يحاولون وصف أشياء نعرفها ونألفها نحن العلماء فإنهم يخطئون.

وهناك عمليًا جانب آخر من حروب العلم أتردد في التطرق إليه، ولكن له دورًا في تحديد موقف العلماء تجاه جماع مشروع ما بعد الحداثة. وأقول من دون مجاملة إن ثمة شعورًا بأن معايير الدراسة في هذا المجال ليست عالية جدًا.

وأذكر أن آلان سوكال، وهو عالم فيزياء بجامعة نيويورك، أصبح معنيًا أشد العناية بهذا الجانب مما بعد الحداثة، ما دفعه إلى أن يجري تجربة بسيطة: جمع عددًا من الصفحات لبحث يحمل عنوان «اختراق الحدود: نحو تأويل تحولي للجاذبية الكوانتية». ونلاحظ أن ورقة البحث مكتوبة بأسلوب ما بعد الحداثة المتعطر والمسيّس، ومن ثم كان محاكاة سافرة، وبدا مثيرًا

للضحك لأقصى حد. وأذكر للحقيقة أنني لا أعرف عالم فيزياء تأتي له أن يقرأ أكثر من فقرة من دون أن ينفجر ضاحكاً، حتى الهوامش كانت مضحكة. وعلى أي حال أرسل سوكال ورقة البحث وهي 'Social Text' «إلى صحيفة تنتمي بفكرها إلى فكر ما بعد الحداثة اسمها «سوشيل تكست التي قبلت نشرها. وبعد أن ظهر المقال مطبوعاً كتب سوكال مقالاً آخر عنوانه «تجارب عالم Lingua Franca» «فيزياء مع الدراسات الثقافية» وأرسله إلى صحيفة منافسة هي صحيفة «لينجوا فرانكا» وأعلن سوكال في مقاله هذا أن الأمر كله خدعة. ووضح أن الصحيفة كانت سعيدة جداً لحصولها على مقال لعالم فيزيائي جشم نفسه مشاق تعلم لغتها، ما حداها إلى نشر المقال من دون السؤال عما إذا كان فيما يقوله أي معنى مفهوم.

ولكن ما أذهلني من عواقب هذه المغامرة كلها هو رد فعل محرري صحيفة سوشيل تكست ومن يدعمونها. إنهم بدلاً من أن يشغلوا أنفسهم باستبطان حالهم وفهم أنفسهم وتوجيه بعض الأسئلة الأساسية -كأن يسألوا أنفسهم، على سبيل المثال: لماذا لم يعرضوا المقال على عالم فيزياء؟ قنعوا بلوم سوكال لأنه «أساء استخدام ثقتهم». وأكدت هذه القصة -في نهاية المطاف- الرأي السائد داخل المجتمع العلمي، وهو أن النقد بعد الحداثي برمته غير جدير بأن نأخذه مأخذاً جاداً.

وهذا سيئ أشد السوء، وذلك لأن مفكري ما بعد الحداثة استسلموا في فورة حماسهم لفكرة أن العلم، شأنه شأن النقد الأدبي، تحكمي وذاتي، وبذلك فإنهم عملياً عمدوا بذلك إلى توسيع الهوة بين الثقافتين من دون ضرورة. ولنا أن نقول في إطار منظور تاريخي إن العلماء من أصحاب الفكر المتميز أولوا اهتمامهم لكل ما قاله الفلاسفة عن مبحثنا الدراسي. ونحن اليوم أيضاً كثيراً ما نسمع إحالات إلى مفكرين من أمثال كارل بوبر وتيار دي جاردان، وذلك حين يشارك العلماء في حوارات واسعة النطاق. والجدير ذكره أن الهوة الراهنة بين العلوم والإنسانيات لا تفيد أياً من المجالين بل إنها تسد الطريق أمام أحد مصادر النمو للاثنتين.

وأحسب أن القارئ لن يدهش حين يراني أوجه اللوم إلى المفكرين الإنسانيين بعد الحداثيين لمسؤوليتهم عن هذا التقسيم الحديث. إن إحدى الأفكار الأساسية في النقد الأدبي بعد الحداثي هي «أن لا شيء خارج النص». معنى هذا عندي أنهم يؤمنون بأن الأسلوب الصواب لتحليل أي رأي هو النظر فقط إلى ما هو مسطور عن هذا الرأي، وأن يحدث هذا بخاصة بغية الكشف عن الانحيازات والأهواء التي يخفيها المؤلف ويسكت عنها. ولكن العلماء يرون أن السبيل لاختبار

أحكام ما هو إجراء التجارب لاستبيان صدقها من عدمه. ومن ثم يبدو لي أن الوقوع في أسر النص أمر غير ذي صلة بالموضوع على أحسن الفروض، وغريب شاذ في أسوأ الأحوال.

وفي رأينا أن الكلمات المستخدمة عملياً لتقديم زعم ما، من مثل المكالمات الهاتفية مع المحررين، والتي أشرنا إليها سابقاً، لا علاقة لها تقريباً بصوابه، ولا للمفاهيم المسبقة الخفية علاقة بذلك أيضاً. إن المهم هو الزعم نفسه، حتى إن كان صاحبه رجلاً أبيض عنصرياً، مصاباً وكارهاً للنساء، أو فاقداً للحس والشعور (هل من أوصاف أخرى، homophobic بخوف من المثلية تركتها؟). إن صدق الرأي أو زيفه رهن قدرته على الثبات أمام الطبيعة، أو لنقل بعبارة أخرى إن أي زعم علمي بمجرد أن ينطق به صاحبه يتعين فصله عن قائله، وعليه أن يثبت أو يسقط بذاته. وتفسر هذه الحقيقة الواقعة أحد جوانب السلوك العلمي الذي كثيراً ما يحير غير المشتغلين بالعلم. والجدير ذكره أن بالإمكان أن يشتبك عالمان في حوار صاحب بشأن فكرة بعينها تتعلق بنظرية أو تجربة ما ثم يخرجوا ليتناولوا غداء مشتركاً بوصفهما صديقين حميمين. وسبب ذلك أن المحاجاة خاصة بزعم لا علاقة له بشخصية من يقدمونه وي طرحونه للبحث، ولهذا لا تأخذ المحاجاة صفة شخصية (ومن الطبيعي أن نقول: نظراً إلى أن العلماء بشر مثلهم مثل بقية البشر فقد يحدث أحياناً أن تتطور هذه المواجهات وتتحول إلى مواجهة شخصية. ووجهة نظري أن هذا ما ينبغي ألا يحدث، وغالباً ما لا يحدث).

ويفسر لنا تركيز ما بعد الحداثة على الكلمات شيئاً آخر يثير قلق العلماء. إنني حين أطلع ما يكتبه كُتَّاب ما بعد الحداثة عن موضوعات مثل النسبية أو ميكانيكا الكوانتم (وهي موضوعات أعلمها بشكل منتظم في قسم الفيزياء في مؤسستي) أجد المناقشة غريبة، إذ يبدو لي أن المؤلفين يعرفون بعضاً من الكلمات الطنانة الرائجة التي تتضمنها هذه المجالات، ولكنهم -على ما يبدو- لا يمتلكون ناصيتها. وحين أشرع في تصفح المراجع أكتشف أن الكلمات العلمية الواردة هي كلمات وعبارات عامة رائجة وليست من أساسيات العلم.

أرجو ألا يسيء القارئ فهمي، إذ إنني لست ضد شيوع ورواج العلم، وأنى لي أن أكون كذلك وقد اجتهدت بنفسى كثيراً من أجل هذا الهدف! وأريد أن أدفع، بالإضافة إلى ذلك، بأن مثل هذا التعميم له دور مهم في نشر ورواج المعارف الأولية العلمية. ولكن ثمة مسافة طويلة فاصلة بين توافر المعلومات الأولية العلمية للمواطن العادي وبين عرض دراسة علمية تستهدف حضوراً

من أكاديميين متخصصين. ومن ثم لنا كل الحق في ضرورة أن تعتمد الثانية دون الأولى على معايير رفيعة المستوى.

ويبدو لي أن أقل ما يمكن أن نتوقعه من شخص يزعم الحديث عن الدلالات الفلسفية العميقة لميكانيكا الكوانتم هو أن المتكلم يفهم ما هي ميكانيكا الكوانتم. وكما أوضحت خدعة سوكال، فإن إصرار فلاسفة ما بعد الحداثة على أنهم مؤهلون للحديث عن موضوعات صعبة، تأسيسًا على قراءات لكتب شعبية رائجة، من شأنه أن يجعل العلماء يحجمون عن أخذهم مأخذًا جادًا. ولهذا أعود لأقول إننا نعيش هوة بين ثقافتين، بيد أن العلماء هذه المرة هم من يعمدون، ولديهم المبررات الكافية، إلى إغفال بعض، إن لم نقل كل، ما يقوله أصحاب الدراسات الإنسانية.

المعارف الأولية العلمية تسد الهوة

أحسب أن هذه الهوة التي صنعتها فلسفة ما بعد الحداثة أقل خطرًا من تلك التي كانت موجودة أيام سنو. ويرجع ذلك إلى أمر واحد هو أنها تطورت خلال فترة أقصر، وضمت فقط عددًا صغيرًا نسبيًا من الباحثين من الجانبين. وثمة سبب آخر ذكرته فيما سلف وهو إحساسي بأن الانعطافة بعد الحداثيّة برمتها على الطريق لتصبح في عداد الماضي في كثير من المباحث العلمية. ولكن يبدو لي واضحًا كل الوضوح أن سنو كان بصدد أمر مهم، أمر لا تزال أصدائه ودلالاته وتأثيراته ماثلة في التعليم اليوم.

وليسمح لي القارئ بأن أبدأ بتعليم العلماء والمهندسين، وأعود لأقول ما قلته سابقًا، وهو أن النظام التعليمي الحالي ينطوي يقينًا على جوانب أتمنى تغييرها، بيد أنني أعتقد -فيما يتعلق بمسيرتنا من أجل سد الهوة الثقافية- أننا لم نتعثر كثيرًا فيما يخص هذا الجانب من المعادلة. إنني لا أرى في محيط العلماء أي بحث منهجي على مستوى المعارف الأولية الثقافية يناظر الدراسات التي ناقشتها في الفصل السادس، الخاصة بالمعارف الأولية العلمية. بيد أنني، على الرغم من ذلك، إذا ما تأملت النظام التعليمي إخال علماء المستقبل سوف يتلقون، بنجاح، قدرًا كبيرًا من التدريب نفسه في الإنسانيات وعلماء الاجتماع شأن أي إنسان آخر. مثال ذلك أن باحثًا كبيرًا في الفيزياء سوف يطلع على قدر كبير من الأدب مثله مثل عالم الاجتماع، وكذا عالم الكيمياء سوف يطلع على قدر كبير من علم الاجتماع على مستوى الباحث الكبير في الأدب. ويذهب بي الظن، بناء على ما سبق، إلى أنه إذا ما، وعندما تتحقق وتكتمل الدراسات الخاصة

بالمعارف الأولية الثقافية، فسوف يتحسن أداء العلماء ويعادلون في إنجازهم غيرهم من طلاب الجامعة.

بعد أن فرغت من هذا أود أن أضيف، على عجل، أنني لا أعتقد أن أيًا من طلاب الجامعات الأمريكية اطلع على قدر كافٍ من الإنسانيات أو العلوم الاجتماعية، وثمة قصص مروعة عن ذلك، مثل قصة الطالب الذي ظن أن تورنتو هي عاصمة إيطاليا. ولا ريب في أن هذه القصص ترجع في أساسها إلى مثل هذا السبب. ونقول من باب الإنصاف إن هذه المشكلة ذائعة في كل ميادين الدراسة. ونقول في عبارة أخرى، لا شيء خاصًا يتعين تغييره في تعلم الإنسانيات والعلوم الاجتماعية لمصلحة علماء ومهندسي المستقبل دون أيٍّ من الدارسين الآخرين.

ولكن أعود لأسأل سؤالاً أكرره باستمرار في هذا الكتاب، وهو: ماذا عن الأغلبية الساحقة؟ ماذا عن تعلم العلم بالنسبة إلى غير العلماء؟ أود أن أؤكد أن هذه الفئة لم تتلقَ الخدمة الجيدة من النظام الراهن، إذ يتخرج الطلاب وحصادهم شذرات معرفية عن العلم، ثم يجدون طريقهم إلى المجتمع حيث يتعين عليهم إصدار قرارات في قضايا تتضمن مجالات بحث لم يطلعوا عليها، فكيف لنا أن نتوقع من امرئ أن يدلي بتعليق فيه ذكاء وفهم عن أحدث نتائج تلسكوب الفضاء هابل، أو عن مكانة نظرية الأوتار، إذا كان كل حصاد قراءاته عن العلم لا يتجاوز برنامجًا تعليميًا.

«مثل كتاب المبادئ الأولية لتعليم الجيولوجيا والمعروف باسم «جيولوجيا 101»

وأعتقد أن أفضل سبيل لسد الهوة الفاصلة بين الثقافتين هو التيقن من أن جميع الطلاب، بمن فيهم طلاب الجامعات، درسوا الإطار الأساسي للمعارف التي نسميها المعارف الأولية العلمية. وأحسب أنه هنا، وهنا فقط، سوف يحتل العلم مكانه اللائق والصحيح تاليًا لبقية المباحث الفكرية، باعتباره جزءًا أصيلًا من ثقافتنا.

إذا اتجهنا بمناظيرنا من التلسكوبات بعيداً عن مجموعتنا التي تمثل بيتنا الصغير الدافئ، فسوف نرى سلاسل غائمة من المجرات، ممتدة في منتصف الكون، وفي داخلها نجوم متفجرة ومجرات وليدة تنفث طوفاناً من الطاقة لا يمكن تخيله. تُرى من يوازن بين هذا الجلال المهيب والرؤية الفقيرة بالعين «المجردة»؟

المؤلف

المعارف الأولية العلمية: برهان من علم الجمال

يبدو لي، ولأسباب لم تتضح لي تماماً، أن ثمة اعتقاداً تاريخياً بضرورة وجود صراع دائم بين العلم والفنون. وإذا تأملنا هذا الرأي فسنتكشف أنه أمر يصعب فهمه، إذ نعرف في النهاية أن كلاً من المبحثين زاخر بمبدعين على مستوى رفيع، عاكفين على أداء مهام شبه مستحيلة، وهي محاولة استكناه معنى الكون. وهنا قد يرى المرء أن الأولى أن يتحقق نوع من التعاطف المتبادل بين الاثنين على أقل تقدير. ليس معنى هذا إنكار أي فوارق بينهما، هناك فوارق بالفعل. ويؤكد باحثون كثيرون أن العلم في جوهره إنجاز عام يعتمد، على الأقل من حيث عرض النتائج، على الاستدلال المنطقي، بينما الفنون تجمع بين كونها أكثر خصوصية وأكثر باطنية، ولعل هذا هو ما ألهم عالم البيولوجيا الفرنسي كلود برنار حكيمته البليغة التي تقول: «الفن هو أنا، أما العلم فهو نحن».

والشيء اليقيني أن الصورة النمطية في الأذهان عن العالم والفنان تكون على النحو التالي: العالم حابك لباسه، أو نراه مرتدياً سترة المعلم ويتحدث بأسلوب منطقي، بينما الفنان متحرر غير متمسك بالتقاليد في ملبسه وشكله، لا تخلو سترته من بقع الألوان فضلاً عن أنه مزاجي. وإذا كان الواقع يؤكد أن هذه الأنماط محدودة في الحياة الواقعية فإن هذا لا يغير من حقيقة مؤكدة، وهي أنها أنماط موجودة. والسؤال هو كيف نتعامل معها في ضوء المعارف الأولية العلمية

وأريد أن أقدم في هذا الفصل مقترحين يناقضان كلاً من الغرض الخاص بالأنماط والصراع التاريخي المزعوم: (1) إن المفاهيم «المعتدلة المألوفة» عن الجمال كان لها دائماً دور مهم في العلوم؛ (2) إن توافر فهم للعلم يمكن أن يؤدي عملياً إلى تحسن التقييم الجمالي لدى الشخص العام بشأن جمال كل من الطبيعة وأعمال الفنانين، بل ويمكن في بعض الحالات أن يكون عاملاً مساعداً للفنانين أنفسهم. أو لنقل بعبارة أخرى، إن علم الجمال لا يمثل فقط جزءاً مهماً من العلم، بل إن نمط المعارف التي نسميها المعارف الأولية العلمية يمكن أن يمثل هو أيضاً جانباً مهماً من الخبرة الجمالية ذاتها.

جدير بالذكر هنا أن المقترح الأول القائل بأن «مفهوم الجمال - أي المعايير الجمالية - ليس دخليلاً على العلم» قد يبدو غريباً إلى حد ما في نظر كثيرين. إنهم كثيراً ما تصيبهم الدهشة إذا عرفوا أن كثيراً ما يمكن أن نسمع علماء يتحدثون عن الجمال باعتباره جزءاً متكاملًا وواحدًا مع مبحثهم الخاص، وسوف أدفع أن مصدر هذه الدهشة واقع أن استخدام المعايير الجمالية عملية ثانوية في أعماق العلوم، وهو ما لا يكاد يحدث أبداً عندما نتناول موضوع العلم في أحاديثنا العامة.

ولقد كان المقترح الثاني موضوعاً لبعض الحوارات التاريخية، خصوصاً في أوج الحركة الرومانسية خلال القرن التاسع عشر. مثال ذلك أن بعض الشعراء زعم أن المعارف العلمية يمكن عملياً أن تدمر قدرتنا على تقييم المميزات الجمالية للعالم. وحتى أكون أميناً أقول: إنني لم أصادف قط في حياتي فناناً أو موسيقياً أو راقصاً ساوره مثل هذا الشعور، لكن القوائد موجودة وتستثير مشاعري بحيث لا أستطيع أن أقاوم رغبتني في أن أقول شيئاً عنها. وسوف أؤكد أن العلم أبعد شيء عن أن يكون عائقاً، بل هو عون حقيقي لنا في التقييم الجمالي للطبيعة. أكثر من هذا أن نوع المعارف العلمية، التي نذهب في أفضل تقديراتنا إلى أنها تؤدي إلى تحسن تقييمنا الجمالي للعالم، هي تحديداً المعارف ذاتها التي نحن في حاجة إليها للعمل كمواطنين نشطين وواعين، ألا وهي نمط المعارف التي سمينها المعارف الأولية العلمية.

أخيراً سوف أختم المناقشة ببعض التعليقات على المساعدة المباشرة التي يمكن للعلم والتكنولوجيا أن يقدمها لممارسات الفنان في حياته الفنية.

الجمال في العلم

الجمال في عيني المشاهد، وقد يحتاج المرء أحياناً إلى بعض التدريب ليراه. وحيث إنني هاوٍ مغرم مدى حياتي بكرة القدم، فإني كلاعب ومشاهد أرى أن من اليسير نسبياً عليّ أن ألتقط التفاصيل -أو لنقل جمال اللعب- في الصراع بين لاعبي قلب الهجوم، وهو ما يبدو في نظر زوجتي ضرباً من العشوائية، لأنها هاوية جديدة ساذجة. ونجد من ناحية أخرى أنني حين أشاهد لعبة رياضية غير مألوفة لي في الأولمبياد -مثل لعبة التزلج على الجليد المعروفة باسم الكرلنج- أفقد أي تقدير لجمال يزعم الآخرون بوجوده. وأحسب أن الإحساس بالجمال في الاشتغال بالعلم قد يكون على المنوال نفسه، أعني شيئاً يستلزم خلفية ما من المعارف لكي يدركه المرء ويقدره.

وواقع الحال أن العلماء في الحقيقة يحسون جمالاً فيما يدرسونه. وبعض هذا الجمال واضح: بريق البلور وعظمة المجرة البعيدة، فهذه وتلك لهما جمال مثير. بيد أنني أريد التحدث عن نوع من الجمال أعمق شأنًا، وهو جمال ليس واضحًا بذاته تمامًا للحواس. أريد أن أتحدث عن الجمال الفكري للأفكار العلمية.

اختتم داروين كتاب «أصل الأنواع» بتعقيب نصه: «ثمة جلال نستشعره في هذه النظرة (التطورية) عن الحياة». وهذه عبارة استعارها ستيفن جاي جولد لتكون عنواناً لأعمدته التي تحمل عنوان «هذه النظرة إلى الحياة»، والتي واصل كتابتها سنوات كثيرة في صحيفة «التاريخ الطبيعي». أراد داروين أن يؤكد لنا أن التطور البطيء الذي يكشف عن ذاته باطراد على مدى ملايين السنين كان بكل معنى الكلمة أكثر جمالاً وجلالاً وأكثر إثارة للاهتمام من قصة التكوين في التوراة. وعبر عن هذه المشاعر توماس بيرنيت عندما ألف في العام 1684 «النظرية المقدسة: عن الأرض»، في العبارة التالية:

إن صانع الساعة التي تدق دقاتها بانتظام كل ساعة بفضل الزنبركات والعجلات التي وضعها في داخلها، نراه أفضل من صانع ساعة آخر يضطر إلى دس إصبعه كل ساعة ليجعلها تدق(1)

وبعد أن رصد داروين 14 فصلاً يكس خلاها الأدلة والبراهين مؤكداً فرضيته، اختتم دراسته بمناشدة لتلمس الجانب الجمالي في التطور. وعلى الرغم من أن كثيرين اقتبسوا عبارته هذه مرات عديدة فإننا نلاحظ أنه كثيراً ما أغفلت الحقيقة التي تكشف عنها، وهي أن بالإمكان الحكم على نظرية علمية تأسيساً على جمالها. ويرجع سبب الحذف، كما ذكرت آنفاً، إلى واقع أن

الفكرة متأصلة راسخة للغاية في النظرة العلمية إلى العالم، مما جعل من العسير على العلماء الالتفات إليها، بينما تبدو غريبة وشاذة في نظر غير العلماء بحيث يأبون حتى اعتبارها مجرد إمكانية.

لكن ليس علينا أن نرجع إلى داروين من دون سواه لنتلمس معيار الجمال في العمل. ليس لي القارئ بأن أضرب مثلاً من النظريات الأعمق المحيطة بنا، والتي يراها الفيزيائيون نظرية من أجمل النظريات قاطبة. نعرف أنه حين اقترح ألبرت أينشتاين نظريته عن النسبية العامة العام 1916 بدت النظرية معلماً لتغير أساسي في طريقة تفكير البشر في الكون. (ولم يكن مصادفة أن أطلقت مجلة تايم في عددها الصادر في 31 ديسمبر العام 1999 على أينشتاين اسم شخصية القرن). ونلاحظ أن المبدأ العميق الذي تنبني عليه النظرية مبدأ جميل بقدر ما هو عميق: أكد أينشتاين أن الكون الممكن الوحيد هو الكون الذي لا تؤثر فيه وجهة نظر المشاهد (أو حتى نكون علميين، الإطار المرجعي) في قوانين الطبيعة التي يدركها. أو لنقل بعبارة أخرى إن الكون الوحيد الممكن هو الكون الذي يدرك فيه جميع المراقبين القوانين الفاعلة فيه ذاتها بغض النظر عن أين هم وكيف يتحركون.

وهذا مفهوم جميل وقوي لأنه يسمح لنا أن نستبعد جميع أنواع الأكوان الممكنة التي يمكن أن نحيا فيها. مثال ذلك إذا حدث أن اقترح شخص ما نظرية يكتشف فيها عالم قوانين فاعلة في نجم قنطورس الرئيسي، ومختلفة عن القوانين التي نعرفها على كوكب الأرض، فإن مبدأ النسبية يسمح لنا بأن نطرح تلك النظرية جانباً من البداية. ويفيد المفهوم أيضاً بأن كون نيوتن الميكانيكي البسيط ليس بوسعه أن يفسر لنا عالماً تتحرك فيه الأشياء بسرعات تقارب سرعة الضوء. وهكذا استلزم مبدأ النسبية مراجعة جذرية لفكرنا عن نظرتنا العلمية إلى العالم، هذا بطبيعة الحال إذا ما كان المبدأ الأساسي صواباً.

وها هنا المحك، ذلك لأننا إذا عدنا إلى الفصل الأول وراجعنا خطوات المنهج العلمي فسيتبين لنا أنه قبل أن يتسنى لنا قبول أي فكرة عن العالم يلزم اختبارها على أساس الملاحظة والتجربة. وطبيعي أن النسبية، شأن أي فكرة علمية أخرى، لا بد من وضعها على المحك مع الطبيعة، وإذا لم تنجح في هذه الاختبارات، فإن هذا يعني، بكلمات منسوبة إلى كل من عالم البيولوجيا البريطاني «جي. بي. إس. هالدين» وتوماس هكسلي: «إننا إزاء نظرية جميلة أخرى دمرها واقع قبيح». ونحن لكي نفهم ما حدث بعد أن نشر أينشتاين نظريته أجدني مضطراً إلى عمل

انعطافة قصيرة عند هذه النقطة، لكي أتحدث وأبين كيف يمكن اختبار مثل هذه النظرية. وأرجو من القارئ أن يعتبر، إذا شاء، الفقرات القليلة التالية بمنزلة محاولة من جانبي لاستكمال جزء صغير من إطار المعارف الأولية العلمية الخاصة به.

والمشكلة هي أنك إذا نظرت إلى التكنولوجيا المتاحة العام 1916 ثم ألقيت نظرة إلى الفارق بين ما كان يمكن أن يتنبأ به كل من أينشتاين ونيوتن بشأن نتيجة قياس محدد، فستجد أن الاختلافات موضوع التنبؤ أقل كثيرًا جدًا من دقة الأدوات المتاحة. وسيبدو وكأنك عمدت إلى التفرقة بين نظريتين كل منهما تتنبأ عن مدى الزمن الذي يمكن أن تستغرقه عملية ما، وإذا بالفارق ليس سوى بضع ثوانٍ، بينما كل ما تملكه لقياس الزمن مَزُولة، أي ساعة شمسية، ولا شيء آخر. وواضح أنه لن يتسنى لك الكشف عن أي اختلافات بين التنبؤين حتى على الرغم من وجود اختلافات. ولقد كان الموقف هو نفسه، فيما عدا بضعة اختبارات مذكورة فيما بعد، من حيث العالم النيوتوني القديم والكون النسبي الذي صاغ صورته أينشتاين، إذ لم تكن هناك ببساطة اختلافات واضحة بين الاثنين بما يسمح بالتفرقة بينهما.

كان هناك مكانان في العام 1916 تظهر فيهما الاختلافات بين النظريتين واضحة تمامًا عن طريق الأدوات المتاحة. تضمّن المكان الأول قدرًا قليلًا من الاضطراب في فلك الكوكب عطارد. وكان علماء الفلك يعرفون هذا الاضطراب منذ عقود، ولكنهم عجزوا عن تفسير مصدره. لكن النسبية هيأت دفعة على الطريق لتجعل الكوكب يكشف عن التفسير. وإذا شئنا الوصف الدقيق نقول إن العلماء لا يستخدمون مصطلح التنبؤ لوصف هذا التتالي للأحداث، بل يستخدمون كلمة لوصف موقف أمكن فيه حل مشكلة لم يتسَنَّ حلها في السابق، لكن retrodiction بيان ارتجاعي أمكن حلها في ضوء نظرية جديدة. ويبدو واضحًا، مع هذا، أن تفسير فلك عطارد يتطابق مع روح المنهج العلمي.

لكن الاختلاف الآخر بين نيوتن وأينشتاين قاد إلى تنبؤ حقيقي، إذ تنبأت النسبية العامة أن الضوء حين يمر بجوار جرم ضخم مثل الشمس، فإن مساره سوف ينحني، لهذا فإن المصدر سيظهر وكأنه تحرك قليلًا بالمقارنة بهذا المصدر نفسه، إذا نظرنا إليه لو لم تكن الشمس موجودة على مدار المسار. وطبيعي أننا عادة لا نستطيع أن نرى ضوء نجم عند مروره قرب الشمس، إذ يحجبه ضوء الشمس. ونذكر أنه في العام 1919 قاد عالم الفلك البريطاني آرثر إدنجتون بعثة كشفية لتصوير السماء في أثناء حالة خسوف وهو فوق جزيرة برينسيب قبالة

الشاطئ الغربي لإفريقيا. واكتشف تحديداً نوع النقلة التي تنبأ بها أينشتاين. وأدى إعلان هذه الواقعة إلى الارتفاع بمكانة أينشتاين ليصبح النجم العالمي الأعظم (أشعر في الواقع بالدهشة إذ اكتشف أنه لا يزال حتى اليوم محتفظاً بهذه المكانة. ويكفي أن نعرف أن صور أينشتاين المطبوعة على ورق كبير تباع بانتظام في مكتبات كليات الجامعات ومعرضة جنباً إلى جنب مع صور همفري بوجارت ومارلين مونرو).

وأذكر بهذه المناسبة، ما يتسق مع موضوعي في هذا الفصل، أن إندجتون أعلن اكتشافه أمام بعض من أصدقائه محاكياً رباعيات الخيام:

دع الحكمة تقارن، وتقيس، وتزن

.اليقين، على الأقل، أنه للضوء وزن (2)

وكان 'retrodiction' وهكذا توافر لدينا بحلول العام 1919 تنبؤ ناجح، أي بيان ارتجاعي ناجح فوزاً عظيماً. وطبيعي أن هذا لم يكن في الماضي دليلاً كافياً لقبول نظرية، لكن في حالة النسبية كان كافياً. وجدير بالذكر أنه على مدى 40 عاماً سلم المجتمع العلمي بالنظرية على الرغم من ندرة أسباب التأكيد. وسبب ذلك بسيط: ذلك أنه توافر الاستعداد المسبق للتسليم بها نظراً إلى أن العلماء أدركوا جمالها. ويمكن القول بمعنى من المعاني إن جمال النظرية جعل العلماء مهينين للتسليم بها أكثر مما هي الحال عادة.

ولنا أن نقارن بين هذا الموقف وموقف آخر حدث في خمسينيات القرن العشرين عندما برز والذي يمثل نظريتنا الراهنة عن بنية 'plate tectonics' على المسرح علم تغيرات القشرة الأرضية وديناميات الأرض. لم تكن النظرية جميلة على نحو محدد، علاوة على تناقضاتها مع عدد من المعتقدات التقليدية عن الكوكب، ومن ثم اضطرت في هذه الحالة إلى الاستعانة بأطلال من المعلومات لكي تحفز المجتمع العلمي على القبول. وحدث أن كانت المعلومات في المتناول، وانتصرت الأفكار الجديدة خلال بضع سنين. وأود أن أؤكد أن حالة علم تغيرات القشرة الأرضية (التغيرات التكتونية) تكاد تكون حالة نمطية لأسلوب عمل العلم وأقرب إلى أسلوب العلم من حالة النسبية، إذ كان العائق في الأولى أعلى، وكم المعلومات اللازمة أكبر كثيراً، بينما العائق في الثانية أدنى بسبب جمال النظرية.

وحتى أكون على يقين من أنني لم أترك لدى القارئ انطباعات زائفة، أجد لزاماً أن أضيف أنه تم خلال الفترة الأخيرة مزيد من الاختبارات للنسبية العامة، وحققت النظرية تجليات وحظيت بمزيد من التقدير. مثال ذلك أنه في خمسينيات القرن العشرين حققت التكنولوجيا تقدماً إلى الحد الذي استطعنا معه أن نسجل القدر الضعيف الذي نتنبأ بفقده من الطاقة في شعاع ضوء حال صعوده إلى أعلى في نطاق جاذبية الأرض. ولكن اليوم نجد أن نظام الملاحة العالمي orbiting يستخدم بشكل منتظم وعادي معادلات النسبية لتصحيح الساعات المدارية (*****GPS) التي هي قلب النظام. ولنا أن نقول في الواقع إن النسبية انتقلت خلال نصف القرن clocks .الماضي من عالم النظرية إلى عالم الهندسة.

هو نظام استحدثته الولايات المتحدة الأمريكية لتوفير Global Positioning System نظام الملاحة العالمي (*****). معلومات دقيقة عن المواقع والتوقيت، يتكون النظام من ثلاثة أجزاء: أقمار اصطناعية تدور حول الأرض، ومراكز رصد ومراقبة على الأرض، وأجهزة استقبال لدى المستخدمين، ويوفر النظام خدمة شائعة ومجانية يستخدمها الأفراد والمؤسسات حول العالم. (المحررة).

وطبيعي أن كون النظرية جميلة لا يعني أن أحداً لم يحاول اكتشاف أخطاء فيها. جدير بالذكر أنني طوال حياتي العملية كثيراً ما فكرت في أن كل القصص البطولي عن النسبية مثله مثل أفلام الكاوبوي القديمة، ولعل القارئ يعرف الفيلم الذي يحكي قصة سلسلة من الفتية الصغار الذين وفدوا إلى مدينة ليببرهنوا على أنهم أسرع من حامل سلاح متمرس. ونجد، بالطريقة نفسها، مفكرين شباباً يعمدون الواحد بعد الآخر إلى حشو مسدساتهم (في عبارة مجازية طبعاً) وينتقدون أينشتاين في غطرسة وكبرياء، لا لشيء إلا لتمزيق نظريته الصاعدة إلى نثار.

لكن لماذا تحديداً نجد شيئاً مثل النسبية جميلاً؟ أود أن أؤكد هنا أن ذلك للأسباب ذاتها التي نرى من أجلها ندف الثلج جميلة. إن جمال ندف الثلج يكمن في تناسقها وتمائلها، بحيث إنك إذا حركتها حركة دائرية 60 درجة فإنها تبدو على الصورة نفسها التي بدأت بها. ونحن لأسباب معينة (ربما لها علاقة بالبنية المعمارية العميقة لمخ الإنسان) نجد المنظومات المتماثلة جميلة وتبعث السرور في النفس. ويجسد مبدأ النسبية نوعاً من التماثل أيضاً. وترى أن الكون سيبدو على النحو ذاته من الاتساق والتماثل بغض النظر عن الموقع الذي ننظر منه إلى الكون، سواء على سطح الأرض، أو في سفينة فضاء، أو ونحن على سطح أحد كواكب المجرة البعيدة. وهكذا نجد الكون عند أينشتاين متسقاً في تماثل شأن ندف الثلج.

وحتى نمضي بهذه الفكرة إلى زماننا الحاضر نقول إن النظريات الراهنة عن الطبيعة الأخيرة للمادة -وتتنوع أسماؤها من مثل نظريات المجال الموحد، ونظريات كل شيء، ونظرية الأوتار- تفترض كوناً أكثر تماثلاً واتساقاً. وتتأسس على فكرة مؤداها أن الكون الممكن الوحيد هو كون لا يهم فيه كيف نعرف أشياء من مثل الشحنة الكهربائية وغير ذلك من كميات. إنها في واقع الأمر تفترض تماثلاً يستلزم أن تكون الطبيعة محايدة ليس فقط إزاء الإطار المرجعي للمراقب، بل ومحايدة أيضاً إزاء الإطار العقلي للمراقب. ولسوء الحظ أن التعقد الرياضي الذي تتصف به نظرية الأوتار حال حتى الآن دون أصحابها وتقديم أي تنبؤات يمكن اختيارها. ولهذا السبب بقيت طي نوع من النسيان العلمي. ويؤكد هذا حقيقة أن الجمال، في ذاته ولذاته، ليس كافياً لضمان قبول نظرية علمية. إنما يحتاج العلماء على الأقل إلى بضع معلومات ثابتة لتكون المشجب الذي يعلقون عليه قبعاتهم، وكما قال عالم الإحاثة إن المعلومات جد مهمة

التمرد الرومانسي- الفن قبالة العلم

تعتبر الحركة الرومانسية التي شهدتها القرن التاسع عشر عادة ردة فعل ضد التنوير. وأذهب إلى ما ذهب إليه زميلي ريتشارد فلوريدا الذي يقول: حيثما وجدت قوة أساسية فاعلة ومؤثرة في مجتمع ما نجد يقيناً في المقابل قوة موازية. لنحاول أن نجعل العالم أكثر عقلانية وقابلية للفهم، وإذا بنا يقيناً نجد جماعات تظهر هنا وهناك لتؤكد الطابع اللا عقلاني والأسطوري. وحيث إنني شخص كثيراً ما اتهمني البعض بأنني رومانسي (وصفة رومانسي ليست للمجاملة دائماً خصوصاً حين نصف بها عالم فيزياء)، فإنني لا أشعر بأي مشكلة محددة تجاه هذه الحقيقة خصوصاً، وكما أوضحت في الفصل الأول، أنه ليس بالإمكان تناول جميع القضايا وفق المنهج العلمي. ولكن ثمة وجهاً ثانوياً آخر للنظرة الرومانسية إلى العالم والتي تثير ثائرتي حقاً وأريد أن أتناولها هنا. تلك هي الفكرة التي تقضي بأننا إذا عرفنا بشكل ما كيف يعمل وجه معين من أوجه الطبيعة، فإننا بذلك ندمر قدرتنا على تقييم جمال هذا الوجه

وليسمح لي القارئ بأن أستعرض قصيدتين مشهورتين توضحان هذا الزعم. القصيدة الأولى:
من نظم وردزورث

،حلوّة المعارف التي تجود بها الطبيعة،

عقلنا الفضولي

يفسد جمال أشياء

نقلها لنحلها(3)

:والقصيدة الأخرى من نظم والت ويتمان

عندما سمعت عالم الفلك العلامة

عندما توالى أمام عيني، صفوفًا، أعمدة البراهين والأشكال

وعندما عرضوا أمامي الخرائط والرسوم لتجمع وتقسم وتقاس

وعندما سمعت جالسًا عالم الفلك، الذي حظيت محاضراته

بالتصفيق الحاد مرات ومرات

داخل قاعة المحاضرات

سرعان ما أحسست، لسبب غير معروف، بالتعب والغثيان

المخلفات تتراكم عالية وتتدافع منحدرًا، طوفت شاردًا

وسط هواء الليل الأسطوري الرطب، وبين لحظة وأخرى

.تشرىب نظراتي في صمت مطبق إلى نجوم السماء(4)

وحتى أكون منصفًا في حديثي عن وردزورث أقول إن الباحثين أوضحوا أن أبيات الشعر جرى اقتباسها من قصيدة خاطب بها الشاعر صديقًا له يوصف بأنه دودة كتب. ومن ثم لنا أن نكون دعاة خير هنا لنقرأ البيتين وكأنهما مناشدة ونصيحة ودية لصديق تقول له: «هلم استيقظ من غفلتك واستمتع بشم أريج الأزهار». ومع ذلك فإن أي امرئ سار على درب وردزورث ونظم قصيدة بعنوان «البواخر والجسور والقطارات» لا يمكن اعتباره من أنصار «لود» المتطرفين [\(في مذهبهم\)](#).

جماعة من العمال البريطانيين نشطت فيما بين العامين 1811 و1816، قاموا بتظاهرات ودمروا [Luddite](#) مآكينات النسيج والغزل اعتقادًا منهم أن التكنولوجيا الجديدة ستؤدي إلى البطالة، ونيد لود شخصية وهمية اعتقد البعض أنها دمرت آلي نسيج في نهاية القرن الثامن عشر. [المترجم]

وحرى بنا أن نتذكر أن القرن التاسع عشر كان القرن الذي سادت فيه الرأسمالية الصناعية الفجة، وذلك قبل زمن طويل من صدور التشريعات الخاصة بعمل الأطفال أو قبل انتشار الوعي البيئي. وها نحن اليوم يمكننا أن نشاهد جسرًا لعبور قاطرات السكك الحديدية مقامًا وسط ساحة

ريفية خضراء واسعة ويضفي عليها جمالاً. لكن ليس عسيراً أن نفهم كيف اختلفت مشاعر الناس آنذاك وأنحوا باللوم على العلم، وظنوا أنه المسؤول عن إفساد جمال الطبيعة. ولن ننسى بطبيعة الحال المصانع المقامة هناك أيضاً

وماذا لو أن القدس كانت قد شيدت هنا

.وسط هذه المصانع الشيطانية الظلامية؟(5)

إنني كلما استمعت إلى هذين البيتين من نظم الشاعر بليك إخال أنني أسمع جدي يتحدث عن شيكاغو في منعطف القرن التاسع عشر، وقتما كان يضطر هو وأصدقاؤه إلى السير على الأقدام ستة كيلومترات ليصلوا إلى الحظائر يومياً بغية البحث عن وظيفة. (ويا للغرابة، إنه لم يشاركني المشاعر ولم يشجع في ثورتي في صباي ضد ما في هذا الوضع من ظلم، بل على العكس حملت ذكرياته مشاعر مودة وألفة حميمة)

وهكذا فإن كلاً من معلوماتي عن التاريخ والأساطير التي عرفتتها في أسرتي يسّرت لي فهم ما في هذه القصائد من دعوة إلى العزوف عن العقلانية والعلم. كم هو يسير علينا وسط صخب وضجيج الحياة الحديثة أن نعود بأنظارنا إلى ما نظنه عصرًا ذهبيًا في الماضي تخيلنا الحياة فيه بسيطة نقية، ومن ثم نُنحي باللائمة على العلم والتكنولوجيا لمسؤوليتهما، في ظننا، عن تدمير ذلك العالم الخالي من الهموم. وغني عن الذكر أن قدرًا كبيرًا من الكتابات الحديثة عن البيئة ومشكلاتها مبني على مثل هذا النوع من الأفكار التي تُحدثنا عن جنة عدن. وطبيعي أن بالإمكان نقض حقيقة هذه الرؤى الخيالية عن الماضي: إنني حين أشرع في عرض هذه الفكرة كثيرًا ما أُلجأ إلى حسابات عن كم السماد الذي يتخلف عن الخيول في لندن أو نيويورك في تلك «الأيام الخوالي الجميلة»، إنه كم هائل. لكن الحقيقة المجردة التي تؤكد أن جنة عدن لم تكن عمليًا موجودة تجسد أحلام عصر ذهبي مضى ليست هي الشيء المهم، بل الأحلام هي الشيء المهم، والأحلام هي رصيد ومحور اهتمام الشعراء

وكم كان يسيرًا دائمًا الهجوم على الرومانسيين لتعلقهم بعالم الماضي، ولعل أكثر الأعمال الهجائية الشعرية تدميرًا جاءت على لسان جيلبرت وسوليفان في مسرحيتهما الموسيقية الشعبية التي تحمل اسم «الصبر»، حين صدحت الشخصية الرئيسية بونثورن بأغنياتها التي تقول:

طبيعي أن تزدرى كل ما هو طازج وجديد

وتعلن أنه فحج ووضيع

لأن الفن قد انتهى في بلاط الثقافة الرفيعة للإمبراطورة جوزفين

وسيقول كل امرئ

وأنت ماضٍ في طريقك الغامض

إن لم يكن ما يرضيني يرضيه

فلا بد أن يكون من ذلك النوع المثقف جداً من الشباب (6)

ولكن بعد أن قدمت هذه الرؤى السهلة البسيطة، فماذا عسانا أن نفعل إزاء الحجة الأعمق التي تتضمنها هذه القصائد، والتي تقول إن فهم شيء ما، خصوصاً الفهم العلمي، من شأنه أن يؤدي بشكل أو بآخر إلى تدمير الخبرة الجمالية؟

العلم والخبرة الجمالية

أحد سبلنا لتناول هذه المسألة أن أحكي خبرتي الشخصية. قضيت فترة غير قصيرة من حياتي أعيش في حضن الطبيعة: أدير مربى للماشية في منطقة مونتانا روكيز، وأبني بيتي بيدي أنا في منطقة جبال بلو ريدج، وهكذا. وأود أن أقول إنني في الحقيقة ارتبطت بالطبيعة برباط أقوى من الرباط الذي ينعم به أغلب الرومانسيين (وأقوى يقيناً من العلاقة التي تتمتع بها الأغلبية الساحقة من المحدثين من دعاة الحفاظ على البيئة). وأعتقد أنني أقيّم الحس الجمالي لغروب الشمس أو لتحول ألوان أوراق الشجر في الخريف شأني في هذا شأن كثيرين. وحرى أن أذكر أن كوني أفهم لماذا يتحول لون السماء إلى اللون الأحمر أو أفهم الكيمياء التي تسبب ألوان الخريف الزاهية لا يؤثر في حقيقة تقييمي الجمالي على الإطلاق. وهنا أقول إن المعارف تكون محايدة في مثل هذه المواقف.

لكن ثمة مواقف كثيرة أضفت فيها معارفي العلمية إضافات قيمة لخبرتي الجمالية، وذلك لأنها، ببساطة، جعلتني أرى أشياء يمكن أن تمر من دون أن يلحظها أحد. وأتذكر على سبيل المثال يوماً وأنا راكب القطار في شيكاغو ذات شتاء وقت غروب الشمس، ولاحظت زوجاً من وهي بقع من الضوء الباهر تظهر في السماء على يمين ويسار Sun dog الشموس الكاذبة الشمس نفسها. وأعرف أنها نتيجة انكسار شعاع الشمس عبر بلورات ثلجية في عنان طبقات

الجو العليا وتكون، حال ظهورها، على بُعد نحو 22 درجة عن الشمس، وتتبع الشمس كأنها كلب وراءها ساعة الغروب، وهذا ما يفسر الاسم.

على أي حال، نظرًا إلى أنني أعرف حقيقة بقع الضوء، استطعت أن ألفت إليها أنظار رفاقي (من غير العلميين)، وبدا أيقنت بأنهم استطاعوا تحصيل قدر أكبر من خبرة غروب الشمس عما لو كانوا غير عارفين بها. ولحظت أنه لم يكد يتوافر لديهم الفهم الأساسي حتى تحولت أفكارهم بعيدًا عما في المدينة من أقدار وأسمنت، واتجهت إلى الأفق البعيد حيث يبدأ الفضاء، وحيث يمكن أن نرى النجوم في النهار، وحيث شلالات بلورات الجليد تلعب بأضواء الشمس. وهنا تغيرت رؤيتهم إلى العالم، وأضحت ثرية بالمعاني، لا لشيء إلا لأنهم أثروا قليلًا بقدر يسير من الفهم لما يشاهدونه.

وأوضحت خبرتي على نحو عملي أن استخدام معارفي العلمية، لكي ألفت انتباه الناس إلى بعض مظاهر الطبيعة التي لم يكونوا يلحظونها في السابق، يمثل شيئًا يحظى منهم بالتقدير. وأذكر ذات مساء في مونتانا أنه ظهر قوس قزح ثلاثي (نادر جدًا) ليغطي الجبل في أثناء التدريب على رقصة. أوقفت التدريب بضع دقائق ودفعت كل الموجودين إلى الخارج لكي يشاهدوه، وقدمت تفسيرًا لحقيقة الظاهرة وأسباب ندرتها. ومضت السنون وإذا ببعض أعضاء الفريق يذكّرني بالتجربة ويقول كم كان تقديرهم كبيرًا جدًا للتعليقات التي قلتها آنذاك.

وفي الوقت نفسه تقريبًا، كتبت سلسلة من الأعمدة القصيرة لإحدى المجالات المعروفة بأن قراءها من مالكي الشاحنات وسائقها، وهي الشاحنات الضخمة التي تنتقل ما بين الولايات. نسيت الآن اسم المجلة، لكن العمود الذي كنت أكتبه يتناول تأمل سائق لمشهد الطبيعة على امتداده، يقود سيارته عبر هذا الطريق ولديه قدر من الفهم عن تاريخ هذا المشهد وكيف أصبح على ما هو عليه. مثال ذلك أن سائق شاحنة يسير عبر ناشفيل بوسعه أن يتأمل طبقات الجير الحجري التي كشفت عنها الحفريات على جانب الطريق، ويعرف ما يثير إعجابه ودهشته من أن الصخور، وعلى امتداد ألف ميل من أقرب محيط حديث، تشكلت من هياكل عظمية لكائنات حية عاشت في بحر اختفى منذ زمن طويل. وأعود لأقول إنني تلقيت كميات كبيرة من الرسائل من السائقين، ليؤكدوا أن خبراتهم ازدادت عمقًا وتغيرت بفضل المعارف التي اكتسبوها. وأكثر من هذا أنني تلقيت رسائل ترجو مزيدًا من التفاصيل عن الجيولوجيا المحلية والتي، أقول صراحة، لا

أعرف شيئاً عنها (على الرغم من أنني عادة ما كنت أنجح في الاهتداء إلى زميل يقدم لي العون والمساعدة).

وأكثر من هذا أن خبرة بسيطة عادية، مثل تحليق طائرة، يمكن أن تكون مصدر تنوير بفضل قليل من المعارف الأساسية. مثال ذلك أنك إذا بدأت رحلة من الساحل الشرقي فإن أول بنية جيولوجية أساسية ستشاهدها في طريقك إلى الغرب هي جبال الأبلاش. وإذا تأملت الجبال بعين فاحصة، فإن أول ما يلفت النظر ويثير دهشتك هو أن كل السلاسل الجبلية موازية بعضها لبعض، بينما الوديان تنحدر من الجنوب الغربي متجهة إلى الشمال الشرقي. (وبوسع القارئ عملياً أن يرى الشيء نفسه واضحاً على خريطة الطرق السريعة العادية نظراً إلى أن الطرق الرئيسية تتبع في مساراتها الوديان). ولكي نفهم هذه السلاسل الجبلية والوديان يتعين أن نعود بفكرنا إلى أكثر من 300 مليون سنة، وقتما كانت اليابسة التي نعرفها اليوم باسم قارة إفريقيا تندفع بقوة في حركتها إلى ساحل أمريكا الشمالية، ناحية جهة قريبة من ولاية جورجيا الآن. وحدث أن طبقات الصخر الكثيفة التي تتشكل منها القشرة الأرضية انبجعت وطويت وكأنها مفرش طاولة تكرمض وتكون الشكل الذي نراه من نافذة الطائرة. جدير بالذكر أن هذه التلال الخضراء المستديرة حيث تشكلت أول مرة كانت عالية وكثيرة المنحدرات مثلها مثل جبال الهيمالايا، ولكن عملية التعرية البطيئة بفعل الرياح أدت إلى تآكلها وانخفاضها لتصبح على الشكل الذي نراه اليوم. ويمكن للمرء أن يتتبع «مفرش الطاولة المطوي» إلى أن يصل إلى تلال أوهايو الشرقية. ومع تقدم الطائرة جهة الغرب تتغير قصة الأرض تحتنا، وإن ظل سحر الطبيعة باقياً، الخلاصة: ليس عليك أن تغلق النافذة وأن تشاهد الفيلم السينمائي.

توضح جميع هذه الأمثلة استخداماً واحداً للعلم في مجال الخبرة الجمالية: المعارف الأساسية تلفت أنظارنا إلى أمور تغفلها العين غير الخبيرة. وإن ما كنا نظنه ضوءاً ضبابياً في سماء المدينة نكتشف أنه شمس كاذبة. وحسبنا أن ننظر بعين فاحصة مدققة لنرى أطراف الضوء الباهتة الناتجة عن أثر البلورات الثلجية حين تكسر شعاع الشمس الوافد وتحولّه إلى ألوانه الأولية، ويشبه هذا كثيراً ما فعله إسحاق نيوتن مع المنشور الثلاثي منذ سنوات بعيدة. وهكذا فإن مشهداً طبيعياً جميلاً يعز وصفه يصبح فجأة مشهداً منظماً ومفهوماً، ومن ثم نبدأ في ملاحظة التفاصيل: ضوء الشمس يعكس تلالوه انحناءة النهر، أو كتل السحاب الأبيض تصطف بحذاء قمم سلاسل الجبال، أو الضباب في الصباح الباكر وهو يغطي الوديان.

ومن الأهمية بمكان أن ندرك أن تعزيز خبراتنا ليس أبداً رهن توافر فهم علمي تفصيلي للظواهر موضوع اهتمامنا. مثال ذلك أنه ليس ضرورياً أن يكون بوسع المرء حساب مرور شعاع ضوء عبر بلورة ثلجية لكي يقيم الشمس الكاذبة، أو أن يعرف تاريخ أمريكا الشمالية الجيولوجي بالتفصيل لكي يستمتع بمشهد الأحجار الجيرية في ناشفيل أو سلاسل جبال الأبلش. إن كل ما يلزم هو النوع ذاته من الإطار المعرفي العام الذي حددناه بأنه المعارف الأولية العلمية، لكي نعمق تقييمنا وإدراكنا للظاهرة الطبيعية ونوجه اهتمامنا إلى تفاصيل مرت في السابق من دون أن تثير انتباهنا.

رؤى جديدة

إذا كان مجرد أن تصبح الظواهر في مجال اهتمامنا هو الإسهام الوحيد من جانب العلم للخبرة الجمالية، فإن هذا وحده كافٍ لتبرير ما أسميه الحجة تأسيساً على علم الجمال. بيد أنني أعتقد أن ثمة إسهاماً آخر مهماً يمكن أن يقدمه العلم في مجال الفنون، ليس إسهاماً كبيراً للجمهور العام بقدر ما هو كذلك للفنانين أنفسهم.

لنتوقف لحظة ولنأمل الطريقة التي ندرك بها العالم نحن البشر. لدينا خمس حواس، ولكن، مع الاعتذار الواجب لخبراء المآكل والمشارب والعمطور، أقول إن أهم حاستين تخصان الخبرة الجمالية هما السمع والبصر. تعتمد كل من هاتين الحاستين على عمل عضوين للإحساس وصلا إلى مستوى عالٍ رفيع من حيث التطور والتخصص، ألا وهما العينان والأذنان. تطوّر هذان العضوان على مدى ملايين السنين من تاريخ التطور لكي يكون لكل منهما وظيفة واحدة، وأقول وظيفة واحدة فقط: أن تسمح كل منهما لأسلافنا بالبقاء حياة أطول في مناطق السافانا الإفريقية، حتى يتسنى لهم توصيل جيناتهم إلى الأجيال التالية. إن العيون والأذان لم تتطور بهدف السماح لنا بتقييم موسيقى ومسرح الأوبرا أو سماع السيمفونية، تماماً مثلما أن أمخاخنا البشرية لم تتطور لتهيئ لنا الفرصة لاستحداث ميكانيكا الكوانتم.

وبسبب هذه الحقيقة يتمتع كل من هذين العضوين الحسيين بمجال محدود. ولنأمل العينين على سبيل المثال. تمثل العين البشرية، من وجهة نظر الفيزيائي، أداة قادرة على تسجيل الإشعاع الكهرومغناطيسي الذي يتراوح طول موجته ما بين طول 4000 و8000 ذرة، وهو ما نسميه الضوء المرئي. وكان من المفيد لأسلافنا اكتساب هذا النوع من القدرة على التسجيل لأننا

(1) نعيش في غلاف جوي شفاف لهذه الأطوال الموجية تحديداً، (2) لأن كوكب الأرض يدور حول نجم يصدر الجزء الأكبر من طاقته في صورة ضوء مرئي.

ونظرًا إلى أن الإبصار أو الرؤية بالعين تبدو أمرًا طبيعيًا وعاديًا لنا، فإننا نكون بحاجة إلى جهد قليل جدًا لكي ندرك أن عيوننا لا نخبرنا في الحقيقة إلا عن نزر يسير جدًا عن الكون، وعن قدراتها المحدودة التي حددت خصائصها البيئية التي تحيط بنا. ولناخذ الفكرة الأولى التي ذكرناها آنفًا، وهي شفافية الغلاف الجوي. إنني حين أفكر في هذا الجانب من الكرة الأرضية تستعيد الذاكرة ذكرى ليلة باردة في الصحراء منذ سنوات طويلة، حينما كنت واقفًا فوق هضبة مستوية السطح منحدره الجوانب في لوس آلاموس، واستطعت من هناك أن أبصر أضواء شوارع البوكيركي التي تبعد عني نحو 90 ميلًا. وأحسب أن القارئ عاش خبرة مثل خبرتي هذه. ولنتأمل حين نكون داخل طائرة ليلاً ونرى أضواء مدينة بعيدة. إن هذا النوع من الخبرة يعني أن الضوء يمكنه أن يمضي بسرعة 100 ميل في الغلاف الجوي من دون أن يمتصه الجو. وهذا حدث مذهل حين نفكر فيه. لكن توجد أنواع أخرى من الموجات الكهرومغناطيسية -مثل الميكروويف والأشعة تحت الحمراء- لا يمكنها ذلك، إذ يمتصها الغلاف الجوي سريعًا. وهكذا فإن الكائنات الحية التي تطورت في جو من نوع آخر يمكن أن يكون لديها قرون استشعار بدلاً من العيون، ومن ثم «ترى» عالمًا مختلفًا تمامًا. ونجد بالمثل أن الكائنات التي تطورت على سطح كوكب يدور في فلك نجم أحمر معتم ربما تحتاج إلى عيون أكبر حجمًا بكثير لكي يصلها قدر كافٍ وأذكر بهذه المناسبة أن هذا) من الإشعاع ذي الأطوال الموجية، الأطوال التي تبصر ما حولها هو السبب في أن ملاحى الأطباق الطائرة يحملون دائماً هذا النوع من العيون. ويسمى الخبراء (LGM أو Little Green Men هذه الكائنات ذات العيون الضخمة باسم الأقزام الخضر).

ولنا أن نقول الشيء نفسه عما نسمعه، إذ تكيفت آذاننا لالتقاط موجات صوتية تسري عبر الهواء عند مستوى البحر (أو قريبة جداً منه). وطبيعي لو أننا تطورنا في جو مغاير لتغيرت الآذان. مثال ذلك أن آلهة النار والصناعة أو الفولكان في مسلسل ستار تريك القديم ظهوروا ولهم آذان كبيرة مستدقة، لأن الهواء حول كوكبهم الخيالي كان، وفق ما هو مفترض، رقيقاً وهم في حاجة إلى جهاز استقبال أضخم حجمًا لالتقاط الصوت.

معنى هذا أن التطور كحدث تاريخي جهزنا بأعضاء حس قادرة على أن تسجل فقط جزءًا صغيرًا جدًا مما هو موجود فعلاً في عالمنا. ونجد بالمثل أنه نظرًا إلى أننا كائنات متوسطة الحجم

-أضخم من الميكروبات وأصغر من النجوم- فقد تطورت أعضاء الحس هذه نفسها بحيث يمكنها أن تسجل فقط أشياء أخرى متوسطة الحجم. وهذا واقع من شأنه أن يحد أكثر من رؤيتنا للكون

وها هنا يمكن للعلم أن يكون عوناً للفنان، لأننا نستطيع بفضل العلم أن نفتح كل تلك العوالم، وأن نتهيأ لنا صور جديدة لا تدركها حواسنا مباشرة. ولناخذ الميكروسكوب (المجهر) كمثال. إن أنطون فان ليفنهوك حين رأى لأول مرة «الكائنات الحية الدقيقة» السابحة في قطرة من ماء غدِير في القرن السابع عشر، إنما كان يؤكد في الحقيقة أنه وسَّع من نطاق قدرة البشر على رؤية العالم في صورة أنماط لم تكن متاحة للعين المجردة. ولنا أن نقول، على المنوال نفسه، إن علم الفلك يعيش الآن عصرًا ذهبيًا إذ لأول مرة في التاريخ نستطيع بناء مرصد فلكية في الفضاء في طبقات أعلى من طبقات الغلاف الجوي المحيط بكوكب الأرض.

منذ أن بدأ الزمان، والكون يرسل تجاه كوكب الأرض كل أنواع الإشعاع الكهرومغناطيسي، ابتداء من الموجات اللاسلكية وعبورًا بالأشعة السينية وحتى أشعة جاما. وتدلنا كل واحدة من هذه الأنواع المختلفة من الإشعاعات عن جانب مختلف من الكون الذي نعيش فيه. ونعرف أن هذه الأشعة حين تصل إلى كوكبنا عبر مسافة (ربما) تصل إلى بلايين السنوات الضوئية لكي تحط هنا وتمتصها، خلال بضعة الأميال القليلة الأخيرة من رحلتها، طبقة الهواء الرقيقة المحيطة بنا. ويا لها من مأساة! لكن الآن وبفضل التقدم في تكنولوجيا الفضاء أمكن الاحتفاظ بجزء صغير جدًا من هذه الإشعاعات من خلال أجهزة كشف مدارية ثم تحليلها، وبذا تعطينا ولأول مرة نظرة إنني ألتزم جانب الحيطة قليلاً هنا لأن باستطاعتنا، أو سيكون باستطاعتنا) شبه كاملة عن الكون قريباً جداً، اكتشاف أنواع أخرى من الانبعاثات الصادرة عن هذه الأجرام البعيدة. أشياء مثل والأمواج الثقالية [دقائق ذرية متعادلة كتلتها دون كتلة الإلكترون] neutrinos النيوترينات (gravitational waves).

ولننظر إلى الأمر من زاوية أخرى: عندما ذهب ويتمان «أليرونو متأملًا في صمت تام إلى النجوم» ربما استطاع أن يشهد ألفين من النقاط المضيئة في السماء. حدث هذا في الأيام السابقة على ظهور كثير جداً من المصابيح الكهربائية التي تضيء سماء المدن، وهو ما يسميه علماء الفلك «التلوث الضوئي». ويا لها من خبرة مثيرة لا يزال بإمكان المرء أن يستمتع بها إذا أراد وانطلق بعيداً عن المدينة! ومع هذا نقول إن سماء الليل، بقدر ما تبدو للرائي ساحرة مذهلة، ليست سوى جزء صغير مما هو قائم حقيقة في الواقع هناك.

ونبدأ معًا بالحديث عن المجموعة الشمسية. بدت الكواكب في نظر ويتمان أشبه بنقاط ضوء ساطعة، وربما بدا لون المريخ ضاربًا إلى الحمرة. تُرى كم كان بإمكانه أن يرى أكثر مما رأى لو توافر لديه أكثر التلسكوبات تواضعًا؟ وهو أداة كان بإمكان معلمه «عالم الفلك الكبير» أن يوفره له. لقد كان باستطاعته أن يرى بفضل هذه الآلة الكوكب زحل والذي يؤكد الجميع أنه المشاهد الأكثر إثارة في المجموعة الشمسية. وكان بوسعها أن يرى عالم الكوكب نبتون البارد ذي اللونين الأزرق والأخضر، ويرى كذلك السحب المحيطة بكوكب الزهر «فينوس» وأقمار كوكب المشتري. وهكذا يتسع عالمه المشاهد كثيرًا وأكثر مما يعتقد.

وها نحن اليوم أطلقنا تلسكوب الفضاء هابل ليدور في مداره، فضلًا عن مجسات الفضاء التي تدور حول زحل وهي في طريقها إلى بلوتو. طبيعي أنه كان سيرى بفضل هذه المستحدثات أكثر كثيرًا جدًا مما رأى. وتتضمن الوديان والأحواض فوق سطح المريخ شهادة على وجود المياه التي جرت على سطحه، وربما شهادة دالة على الحياة التي كانت موجودة هناك قبل أن تلفه برودة الفضاء. ونلاحظ أن الثلج المتكسر فوق سطح الكويكب يوروبا يغطي محيطات خافية تحت السطح بنحو ميل، وتسود الكويكب تيتان حول زحل موجات من سائل الميثان وتتكسر فوق شواطئ بحار يستحيل القول بوجودها. وإذا اتجهنا بمناظيرنا من التلسكوبات بعيدًا عن مجموعتنا التي تمثل بيتنا الصغير الدافئ، فسوف نرى سلاسل غائمة من المجرات، ممتدة في منتصف الكون وفي داخلها نجوم متفجرة ومجرات وليدة تنفث طوفانًا من الطاقة لا يمكن تخيله. تُرى من يوازن بين هذا الجلال المهيب والرؤية الفقيرة بالعين المجردة؟

وأود أن أصرح بأنني تساءلت دهشًا أحيانًا: تُرى هل الرسامون وغيرهم من الفنانين المشتغلين بالفنون البصرية أحسوا يومًا ما بالقلق، إذ يشقون على أنفسهم بحثًا عن نماذج وتصميمات لفنهم؟ أعني بذلك أن أسأل: كم عدد الوسائل المختلفة التي يمكن بها رسم واجهة كاتدرائية؟ إن العلماء إذ يخترقون عوالم جديدة إنما يوفرون في الحقيقة للفنانين موضوعات جديدة لتفسيرها. أدركت هذه الفكرة واقتنعت بها حين صادفت لوحة رسمتها الفنانة جولي نيودول وتحمل اسم «شيفا كنيوميريز داخل أنشودة تيلومير»(7)*****). ويبدو واضحًا أنها استلهمت لوحاتها من صور للبيولوجيا الجزيئية الحديثة. وتبين الرسوم الرب شيفا في العقيدة الهندوسية التقليدية داخل فتحة أنشودة تمثل التيلومير، وهي بنية تظهر عند طرف الكروموزومات. ويبدو لي أن هذا التلاحم بين المعارف القديمة وأحدث صور الميكروسكوب

الإلكتروني إنما هو أعجوبة المستقبل، المستقبل الذي تتجسد فيه الصور التي يكتشفها العلم في فنون بصرية.

هو أحد مكونات (Telomere) التيلومير (Telomerase) الكروموزوم والتيلوميريز هو إنزيم يتحكم بالتيلومير، ولهذا الإنزيم دور في عملية الشيخوخة التي تصاب بها الخلايا. [المحررة]

وعلى الرغم من أنني تعمدت صوغ المناقشة حتى الآن في ضوء عمل الفنانين دون الجمهور العام، فإن ثمة مزايا أخرى واضحة لرؤيتنا الموسعة عن الكون والتي يفيد بها الطرف الآخر، إذ كثيراً ما قيل كمثال، في معرض المحاجاة، إن صورة الأرض من الفضاء أوضحت كوكبنا وكأنه نقطة زرقاء شاحبة وسط الاتساع الهائل للفضاء، وإن هذه الصورة كان لها دور رئيسي في حفز حركة أنصار البيئة في سبعينيات القرن العشرين. وتفيد خبرتي الخاصة بأن غوامض الكون من مثل المادة السوداء والثقوب السوداء ما هي إلا مظاهر للإثارة البسيطة للطلاب، إذ يجدون فيها أنواعاً من المفاهيم المثيرة للاهتمام. ولعل هذا هو السبب في أن كتب الفلك الشعبية أكثر مبيعاً من كتب البيولوجيا الجزيئية، حتى على الرغم من أن هذه الأخيرة تتناول موضوعات مباشرة وقريبة أكثر من الأخرى. وأعود لأقول إن ما يحتاج إليه المرء لكي يستمتع بفوائد هذه الرؤية الجديدة للكون ليس دراسة العلم المعني بالموضوع وفهمه تفصيلاً، إذ ليس ضرورياً أن يكون بوسع المرء حساب منحنى دوران إحدى المجرات لكي يقيم الدلالات الفلسفية للمادة السوداء، ولكن ما يحتاج إليه المرء بدلاً من هذا هو نوع من الإطار العام من المعارف التي نسميها المعارف الأولية العلمية.

لكل ما سبق لا أعتقد أن مساهمات العلم للفنون تقتصر على توفير صور جديدة. إن التكنولوجيات الجديدة والمواد الجديدة والطرق الجديدة في إنتاج الصوت تجسدت دائماً وأبداً في تقنيات فنية. مثال ذلك أن الباحثين أكدوا أن تطوير واستحداث صبغات جديدة قادرة على البقاء زمناً طويلاً على لوحات الرسم هي التي هيأت إمكانيات لظهور الحركة الانطباعية برمتها. ونسأل كمثال ثانٍ: أين كان يمكن أن نرى النحت الحديث من دون طريقة اللحم القوسي أو مشغل القطع بالأكسجين الأسيتيليني؟

وتألفت منذ عهد قريب مع الطرق الغريبة التي تؤثر بها التكنولوجيات الحديثة في الفنون، وذلك حين حضرت حفلاً موسيقياً لسماع إنتاج جديد لصديق لي يدعى جيرزي سابيوفيسكي. وجيرزي أستاذ موسيقي في الجامعة الأمريكية، كما أنه مؤلف موسيقي موهوب وعازف بيانو.

ولديه اهتمام دائم بالبحث عن سبل لتوحيد الموسيقى بالفنون الأخرى. شاهدت في هذا الحفل الذي حضرته اثنين من الرسامين يعملان على لوحات القماش بينما أجهزة تسجيل بالأشعة تحت الحمراء تعابير حركة فرشاة كل منهما. وجرى تلقيم إشارات أجهزة التسجيل هذه إلى أجهزة لتوليد صوت، بينما ينظم عازف البيانو/ قائد الفرقة الموسيقية أجهزة synthesizers لتوليف الصوت، ويصوغ ويدمج الجمل الموسيقية معًا. جوهر المسألة أن الرسامين أصبحا موسيقيين التوليف، وفنانين يعملان بالفنون البصرية؛ أي أنهما عملياً جزء من الفرقة الموسيقية.

لا أملك الآن سبيلاً إلى معرفة ما إذا كانت الطرق التي اكتشفها صديقي وأمثاله سوف تقودنا إلى إبداع حركات موسيقية جديدة مهمة، أم أنهم سيلحقون بأعمال من مثل أعمال أخرى يضمها متحف الأفكار وأخفقت في التطور. بيد أن ما أعرفه هو أن الاكتشافات من نوع الاكتشاف الذي عرضه جيرزي هي عصب حياة الفن. إذا توقفنا عن تجربة الأفكار الجديدة، فإن الفن (شأن العلم) ستصيبه حالة ركود. وأعرف كذلك أنه من دون كثير من التكنولوجيا فسوف يستحيل إجراء مثل هذا النوع من التجارب.

ملاحظة ختامية

بعد أن فرغت من كل ما سبق، أود أن أذكر القارئ (وأذكر نفسي) بأن المعارف العلمية الأولية لا يمكنها أبداً، في ذاتها وبذاتها، أن تهيي كل عناصر الخلفية الأساسية اللازمة للمرء ليحسن تقييم الخبرة الجمالية. إنها يمكن أن تكون على أحسن الفروض طرفاً مشاركاً بدور بسيط في مسرحية أكبر حجماً. ومع ذلك فإننا إذا تأملنا الصورة الكبرى للخبرة الجمالية، فإن هذا من شأنه أن يدعم فكرة مهمة عرضنا لها في الحديث عن المعارف الأولية الثقافية، وتدعم بالتالي المعارف الأولية العلمية.

وهناك في الحقيقة تاريخ طويل من الدراسة الفلسفية عن طبيعة ومعنى الخبرة الجمالية. وتزخر الكتابات الكلاسيكية بأفكار عن التصنيف والتماثل في التنسيق الجمالي، كما سبق أن ناقشنا النزوع الحسي لدى الرومانسيين. وغني عن البيان أن عالم فسيولوجيا الأعصاب الحديث سوف يتناول وصف الخبرة من زاوية مختلفة تماماً، تتمثل في تنظيم المعلومات على أجهزة إلكترونية تنقل النبضات العصبية، وأنماط لصور الرنين المغناطيسي للأداء الوظيفي للمخ البشري. ولكن هذه الأنواع من التجريدات، على الرغم من أهميتها في مواقع بحث أخرى، فإنها

ليست مستخدمة كثيرًا في موضوعنا هنا. إنها تلقي ضوءًا قليلًا على نوع التعليم المفضل علميًا لتعزيز قدرة المرء على تقييم الفن أو الطبيعة. لذا قررت، نتيجة لذلك، أن أتحدى وأتناول المشكلة مباشرة، وأسأل بعض الموسيقيين والفنانين المحترفين سؤالًا بسيطًا: ما صفات الشخص الذي تفضله أكثر من غيره ليكون من جمهورك مستمعًا أو مشاهدًا؟

ولحسن الحظ، كنت أنا وزوجتي نقضي معًا عطلة نهاية الأسبوع برفقة بعض من أصدقائنا القدامى في ولاية كونكتيكت. أذكر من بينهم مارتن بيكوتش، وهو قائد فرقة موسيقى سيمفونية، والذي سافر إلى روسيا وقاد كثيرًا من الحفلات. وكذا زوجته إليزابيث فولك، وهي مخرجة ومديرة لعديد من المسرحيات والأوبرات. وتزوج الاثنان في الحقيقة ليكون الزواج جزءًا من حفلٍ تضمّن إخراجهما لأوبرا جياتي سيكيكي، وأوبرا بوتشيني «ميس دي جلوريا». وضم حفل العشاء عديدًا من الموسيقيين وفنانًا وشابًا يملك مشروعًا مزدهرًا لصناعة آلات الهابسيكورد. لذلك تصورت أن هذا أفضل مكان أحصل منه على المعلومات التي أريدها. وطرحت سؤالًا بعد أن فرغنا من العشاء.

بعد نقاش مفعم بالحيوية، توافقت الآراء التي لخصها مارتن في عبارة «أفضل أن يكون جمهوري من الحاضرين هم ممن اعتادوا حضور حفلات الموسيقى». وأرى أن هذه العبارة البسيطة لخصت مناقشة جد معقدة. إن ما قاله الفنانون الجالسون إلى المائدة هو أن جمهورهم المثالي هم من لديهم قدر من الألفة للموسيقى؛ أي قدر من الفهم والإحساس بخلفية المقطوعات التي سوف يسمعونها، مع قدر من التوقع لطبيعة ما يؤلفه المؤلفون في فترة بذاتها، علاوة على قدر من الفهم للسياق الاجتماعي والتاريخي للموسيقى. إنهم لم يأملوا أن يكون جمهور الحاضرين على ألفة بالموسيقى التي سيتم عزفها ليلة الحفل تحديدًا، ولم يأملوا يقينًا أن يكون الحضور عازفين موهوبين.

ولنقل بعبارة أخرى إن هذا الجمع من الفنانين أراد جمهورًا لديه تحديدًا نوع الإطار العام من المعارف التي أسميها المعارف الأولية الثقافية. إنهم لم يتوقعوا جمهورًا قادرًا على إنتاج موسيقى، إنما فقط على الإنصات باهتمام وفهم. وأود أن أقول، على المنوال نفسه، إن العلماء ليس لهم أن يحاولوا إنتاج جمهور قادر عمليًا على إنجاز العلم. ومن ثم فإن ما ينبغي أن ننشده بدلًا عن ذلك، هو جمهور قادر على مناقشة القضايا ذات الصلة بالعلم مناقشة الفاهم الواعي؛ أي بعبارة أخرى، جمهور توافرت لديه المعارف الأولية العلمية.

* * *

إن تزايد عدد المعنيين بالبحث عن معلومات خاصة بالعلم هو في الحقيقة القوة التي أثارت الاهتمام لزيادة»
 «عدد ما نسميه «الصحافة العلمية»».

المؤلف

حالة المعارف الأولية العلمية

لم نكد نقرر أن هدفنا المنشود هو إعداد مواطنين توافرت لديهم المعارف الأولية العلمية حتى سألنا أنفسنا مباشرة عن ماهية الحالة الراهنة للمعارف الأولية العلمية بين الناس، حيث إن هذا هو ما سوف يحدد لنا نقطة الانطلاق. وأصبح لزاماً أن نبدأ في الواقع بالسؤال عن كم عدد المواطنين الذين لديهم معرفة صحيحة بالعلم الآن. وهذا سؤال تصعب الإجابة عنه وتستلزم معالجته الاستعانة بمهارة عالم اجتماع.

ولكي نفهم مدى الصعوبة التي ينطوي عليها قياس المعارف الأولية العلمية بين الناس حري أن نفكر فيما يلي: نعرف كم هو يسير علينا استبيان ما يعرفه الطلاب عن موضوع ما بعد استكمال مقرهم الدراسي، وهذه هي وظيفة الامتحان آخر العام. بيد أن هذه المعلومات، على أهميتها، لا تخبرنا بشيء ذي قيمة عما سوف يحتفظ به هؤلاء الطلاب أنفسهم عندما يقرأون صحيفة بعد ذلك ببضعة شهور (أو بضع سنين).

يعرف كل معلم ظاهرة تآكل أو تناقص المعارف مع الزمن. وأرجو من القارئ، على سبيل المثال، أن يعود بفكره إلى أيام أن كان طالباً بالمدرسة الابتدائية: كم من مهارات القسمة المطولة اكتسبتها بشق الأنفس في أثناء العام الدراسي السابق، وكنت تستطيع مع نهاية الصيف أن تستعيدها مع أول يوم في العام الدراسي الجديد؟ ويدرك الأغلبية العظمى من المدرسين على مستوى الجامعة حقيقة تناقص المعلومات، إذ يفترضون أن الطلاب نسوا كل ما تعلموه من مقررات دراسية في المدرسة الثانوية بعد تخرجهم.

وأقول في النهاية: إن المعارف الأولية العلمية تتألف من المعارف التي جرى استبقاؤها والاحتفاظ بها وليست المعارف المكتسبة. ولكن المعارف المستبقاة لا يمكن اختبارها مستخدمين

تقنيات المدارس والجامعات. ومن ثم يتعين استحداث طرق تقييم جديدة للتعامل مع هذه القضية، طرق تتضمن متابعة الكبار الذين أنهوا تعليمهم الرسمي.

وعلى الرغم من المناقشات بشأن تعليم العلوم في بلدنا، فإن الشيء المثير للدهشة هو أن نعرف أن مهمة اكتشاف معيار كمي لقياس المعارف الأولية العلمية لدى كبار السن لم يُنهض بها إلا أخيراً. وجدير بالذكر أن أول دراسة استقصائية تسنى لي العثور عليها ومعنية بكبار السن الأمريكيين هي دراسة أُجريت في العام 1957 تحت رعاية الرابطة الوطنية لكتاب العلوم. ويمكن القول في ضوء المعايير الحديثة إن تصميم الدراسة يتصف بالبساطة وليس وراءه جهد فكري عميق. ويطلب التصميم من المشاركين التحدث عن أربع قضايا سائدة وقتذاك: إضافة الفلوريد إلى الماء (مَنْ مِنَ القراء يتذكر هذا؟)، وعنصر الإسترنتيوم 90 (منتج من اختبارات الأسلحة الذرية في طبقات الجو)، ومصل شلل الأطفال (مكتشف حديثاً)، والأقمار الاصطناعية في الفضاء (التي كانت نادرة آنذاك). وطبيعي أن المشكلة مع مثل هذا النوع من الدراسات الاستقصائية أن القضايا الساخنة والملحة اليوم سرعان ما تصبح رؤوس موضوعات الأمس. وغني عن البيان أن لا أحد اليوم سوف يثير قضايا مثل قضية إضافة الفلوريد إلى الماء، أو عنصر الإسترنتيوم 90، فضلاً عن أن الأقمار الاصطناعية والأمصال أضحت شائعة حتى إنها نادراً ما تشغل الوعي الحديث. معنى هذا من وجهة نظر قياس المعارف الأولية العلمية أن مشكلتنا مع هذا النوع من الاختبار هي أنه لا سبيل إلى مقارنة إجابة العام 1957 عن السؤال عن إضافة الفلوريد بالإجابة حديثاً عن سؤال عن بحوث الخلايا الجذعية. وواضح أن هذا النوع من الاستقصاء لا يحقق لنا تقدماً ما دام أن من أولى مهام العالم الاجتماعي تحديد خط الأساس المقابل لأي تغير يمكن قياسه.

جون ميلر وميلاد التقييم الكمي للمعارف الأولية العلمية

تطبيق مناهج علم الاجتماع على مشكلة تقييم المعارف الأولية العلمية هو مجال أسسه، كما يشار إليه بعامة، جون ميلر، وهو الآن جون هانا أستاذ الدراسات التكاملية بجامعة ولاية ميشيجان. وجون رجل ضخم الجسم، ذو خصلة شعر بيضاء، وحاجبين كثَّين مهببيين، يكاد من يراه يشعر بالرهبة لولا ما لديه من حس فكاهي، وابتسامته التي لا تفارقه، وما لديه من مدد قصصي حلو لا ينتهي. تعاوناً معاً في الماضي لإنجاز عدد من مشروعات المعارف الأولية

العلمية. لذلك حين تحدثت إليه بشأن تضمين أعماله في كتابي هذا رتبنا لقاء مشتركاً عند عودته إلى واشنطن لإجاز بعض أعماله، والتقينا في إحدى ليالي الخريف الممطرة بينما كان لا يزال جون متأثراً بفارق الزمن بعد رحلته إلى الصين، وجلسنا معاً في مطعم لبناني هو المطعم الأثير لديّ، وذلك لمناقشة الكيفية التي يمكن بها تأسيس مجال جديد للاستعلام الفكري

قال: «لم أبدأ حياتي بالاهتمام بالمعارف الأولية العلمية... في الحقيقة كانت أطروحتي لنيل درجة الدكتوراه (في جامعة نورث وسترن) دراسة عن طريقة الأطفال في اكتساب مفهوم الجنسية القومية»، وأعرف أن جون بدأ عملياً عمله الدراسي الجامعي بجامعة شيكاغو، حيث حصل على درجة الماجستير وتعلم كيف يُجري بحثاً استقصائية. واكتسب أيضاً المهارات الرياضية المعيارية للعالم الاجتماعي الحديث. ونتيجة لذلك فإنه حين قرر أن يقضي فترة من الزمن خارج نطاق دراسته لاكتساب قدر من خبرة الحياة العملية الواقعية في الحكومة، كان المديرون يقاطعونه مباشرة بغلظة فيما يعرف الآن باسم «مكتب الإدارة والميزانية»، و«مكتب سياسة العلم والتكنولوجيا». قال ضاحكاً: «بعد ذلك أخبروني أنهم في حاجة إلى رجل يعرف كيف يحسب. ولم يكن الأمر شأن المسلسل التلفزيوني وست ونج(*****)، فقد سمحوا لنا «بدخول الطابق الأول في البيت الأبيض فقط».

أو الجناح الغربي: هو مسلسل درامي عُرض فيما بين العامين 1999 و2006، ويتناول، The West Wing (*****) يوميات العاملين في البيت الأبيض تحت إدارة رئيس الحزب الديمقراطي. والجناح الغربي هو المبنى الذي يضم مكاتب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، ومن بينها المكتب البيضاوي. [المحررة]

كان يشعر ببهجة غامرة وهو يحكي قصة عن حدث خاص في هذه الفترة من حياته؛ اقتضى عمله أن يعرض الميزانية المقترحة للبرامج التي يشرف عليها، وذلك في اجتماع رسمي، وتضمن طلبه عدداً من الوظائف الجديدة كمفتشين للأغذية في الموائ، وكان يعرف أن مدير مكتب الميزانية المسؤول عن إدارة لجنة الاستماع مدمن على شرب القهوة ونادراً ما ترى يده من دون كوب قهوة، ونتيجة لذلك فإنه حين حان وقت عرض البند الخاص بالمفتشين شرع في تقديم شرح لكيفية تجفيف حبوب البن في إفريقيا عن طريق الاكتفاء بتعريضها للشمس فترة من الزمن، وأوضح أنه خلال هذه الفترة من المتوقع -بطبيعة الحال- أن تحلق الطيور فوقها، وطبيعي أيضاً، كما تفعل الطيور عادة، أن تضيف بعضاً من ملوثاتها إلى الحبوب. وقال إن العدد الزائد المطلوب من المفتشين لا بد من وجوده للتأكد من أن مثل هذه الحبوب الملوثة لن تدخل

السوق الأمريكية. حرق المدير بنظرات ملؤها الشك في كوب القهوة الذي في يده وزمجر متحدثاً
«إلى مساعده: «عليك أن تتأكد من وجود المفتشين للمراقبة

استمتع جون بعمله الحكومي، غير أن أحد رؤسائه أسدى إليه نصيحة جيدة جداً، إذ قال له:
«إذا لم تترك العمل وتعمل على نيل درجة الدكتوراه فسوف تظل إلى الأبد مساعداً». وهكذا عاد
أدراجه إلى مقاعد الدراسة

وفي نورث وسترن بدأ أول اهتمام له بالمعارف الأولية العلمية. كان على علاقة بامرأة
صاحبة آراء سياسية يسارية متطرفة، «أذكر أن عملت أنا في الحملة لمصلحة كنيدي، بينما هي
كانت تعمل لمصلحة ألدريدج كليفر»، وفي الوقت نفسه لعب التنس مع فريق من الرجال الذين
يدرسون ليكونوا مهندسين متخصصين في الهندسة النووية. وأذكر أن قضية الطاقة النووية
تصدرت الاهتمام العام آنذاك، ودخل أصدقاء جون في محاجاة شديدة في هذا الشأن. «وانتهى
بهم الأمر إلى أن كان كل منهم يقذف الآخر بطعامه». وأثارت هذه القضية ثأرتة، ومن ثم بدأ
يقرأ عن الموضوع باهتمام. وتذكر قائلاً: «اكتشفت أنه لا بد للمرء من أن يعرف بعضاً من العلم
لكي يحسن التعامل مع القضية. فإذا كان لزاماً عليك أن تدلي برأيك في اقتراح بشأن أمر متعلق
بالطاقة النووية وأنت لا تعرف شيئاً عن العلم فإن آراءك ستكون رطانة غريبة عن الموضوع». وقادته
هذه الرؤية الناقدة إلى السؤال عن أنواع القضايا التي يحتاج المرء إلى الإلمام بها ليعرف
كيف يؤدي دوره بوصفه مواطناً. وهذا ما ناقشته في الفصل الثالث. ونظراً إلى أنه عالم اجتماع
فقد شرع أيضاً في السؤال عن كيفية اكتساب الناس هذه المعارف -عملية تعلم يراها جون بعضاً
«مما سماه «التنشئة الاجتماعية السياسية

وبعد أن فرغ جون من مهمة معينة خاصة بإحدى كليات جامعة ولاية شيكاغو، انتقل إلى
جامعة إيلينوي الشمالية في ديكالبي، وهي مدينة تقع في المنطقة المخفية من شيكاغو. وعمل
هناك نائباً للعميد للدراسات العليا. ويذكر أنه وقتذاك توافرت الأموال اللازمة (من إدارة كارتر)
لإنجاز مشروعات أفادت في استخدام عاطلين لأداء «أعمال الخير» لمصلحة نظم الحكم المحلية،
واستخدم المال لتوظيف عاملين لإنجاز دراسات استقصائية في عدد من الحواضر الإدارية،
علاوة على دراسات استقصائية لطلاب المدارس العليا والكليات لدراسة كيفية اكتساب حس
المواطنة. واستخدم كثيراً من العاملين بعض الوقت (كان الأمر أشبه بإدارة مشروع ماكدونالد
الأضخم عالمياً)، ولهذا حرص دائماً على البحث عن مشروعات جديدة لضمان عملهم. وسرعان

ما أدرك أنه أنشأ معملًا للدراسات الاستقصائية لتحقيق غرض عام، وأطلق عليه اسم معمل الرأي العام. وتفاوض بعد ذلك من أجل الانتقال من عمله نائبًا للعميد لكي يتفرغ كل الوقت لإدارة وحدته الاستقصائية الجديدة.

وبحلول أواخر السبعينيات بدأ يدرك أن الحوار العام في أمريكا في سبيله إلى أن ينشغل أكثر فأكثر بالقضايا العلمية، وأن لديه الآن منظمة قادرة على إنجاز دراسات استقصائية عن المعارف الأولية العلمية. وحصل على منحة من المؤسسة القومية للعلوم، وذلك للعمل في إنجاز المشروع. «وبدأنا العمل في ركن منزوٍ به رفوف كتب تخلصت منها المكتبة، واستخدمنا أشكالًا بالورقة والقلم لإجراء أول استقصاء». وبعد بضع سنين أنجز الشكل الأساسي للاستبيان، وشرع في تجميع البيانات التي ستشكل ما أصبح فيما بعد برنامج مؤشرات العلم والهندسة، وهو برنامج يجري تنفيذه منذ عشرين عامًا، ولا يزال حتى الآن يشكل المعيار الذهبي للحدود الزمنية للمعارف الأولية العلمية.

ونقل جون عمله في أثناء ذلك إلى مبنى فندق مجاور للجامعة، جرى تجديده، وبات يفكر في توسيع نطاق عمله بحيث يضم مؤسسات دولية تتعاون معه في مشروعاته. وكان أول هذه المشروعات في العام 1988، وهو دراسة استقصائية مقارنة بين الثقافات، بين الولايات المتحدة وبريطانيا. وقال: «لم تكد البيانات الخاصة بكل من الولايات المتحدة وبريطانيا تتوافر لدينا حتى أصبح كل فرد في مكانه المخصص له. وتتوافر لدينا الآن بيانات من أكثر من عشرة بلدان مختلفة تستخدم جميعها، من حيث الجوهر، مجموعة الأسئلة نفسها». والحقيقة أن هذا الجانب الدولي من عمله هو الذي فسر اضطراب فارق الزمن الذي شعر به في تلك الليلة في واشنطن.

وجدير بالذكر أننا لن نلقى كثيرًا من المفاجآت عندما نقارن بين دراسات استقصائية عن أمريكا وأخرى عن بلدان أوروبية، ولكن عندما سألت جون عن بعض المشكلات التي واجهها في الصين، بدأت تتوالى على لسانه حكايات مثيرة. قال: «بياناتهم تتركز أساسًا على الرجال وتلقي بثقلها في انحياز إلى الرجال. والأزواج لا يسمحون لزوجاتهم بالتحدث مع الباحثين، ولذلك أبدى العلماء الصينيون حاجتهم الماسة إلى التعامل مع هذه المشكلة». ونعرف عمليًا أن هذا النوع من المشكلات يظهر واضحًا جليًا في بلدان أخرى، ولهذا تضم فرق الباحثين الآن نساء لعمل لقاءات شخصية مع نظيراتهن (من دون معرفة الأزواج).

علاوة على هذا ثمة عدد كبير من السكان في الصين (تذهب بعض التقديرات إلى أنهم نحو 100 مليون) مسجلون داخل الريف ولكنهم يعيشون عملياً في المدن. ونظراً إلى أن إقامتهم غير شرعية فإنهم غالباً ما يحجمون عن إفشاء أسرار عن المعلومات السكانية للغرباء.

ولكن على الرغم من هذه المشكلات فإن العمل لتجميع ومقارنة المعلومات على نطاق العالم بشأن المعارف الأولية العلمية مستمر يومياً ويزداد باطراد. ويا لها من مسافة طويلة فاصلة بين تراشق ذلك الطالب بالطعام وذلك الركن المنزوي ذي رفوف الكتب.

صياغة الاختبار

يرى جون أن إطار المعارف الأولية العلمية (الذي يسميه هو: المعارف العلمية الأولية للحياة المدنية) يتألف من ثلاثة عناصر: (1) معرفة المفترضات الذهنية العلمية الأساسية؛ (2) فهم عمليات العلم؛ (3) فهم تأثير العلم في المجتمع. هذا على الرغم من أنه يستخدم فقط الاثنين الأولين في دراساته المقارنة للتداخلات الثقافية. ونظراً إلى أنه كان معنياً بتأسيس برنامج طويل المدى من الاستجابات فقد اختار أن يكون موضوع الاختبار هو المفاهيم التي لا تتغير أهميتها مع الزمن، وهي المفاهيم المتصلة بما أسميه في الفصل الثاني عشر الأفكار الكبرى.

وجدير بالذكر أن الأسئلة الخاصة بالاستقصاء يمكن أن تكون إما أسئلة غير مقيدة بحدود وإما أسئلة تستلزم إجابة مختصرة. مثال ذلك أن أحد الأسئلة غير المقيدة بحدود بشأن المفترضات الذهنية العلمية تبدأ على النحو التالي:

في صحيفة يومية أو مجلة، هل تجد لديك (DNA) عندما تقرأ مصطلح الدنا

فهماً واضحاً لمعناه، أو فهماً عاماً لمعناه، أو فهماً محدوداً لمعناه؟

إذا أفاد الشخص بأن لديه «فهماً واضحاً» أو «إدراكاً عاماً» لمعنى المصطلح فإن الباحث

يواصل بالسؤال التالي:

عبر بكلماتك أنت من فضلك، ما هو الدنا؟

وتُسجَل الإجابات كما هي حرفياً ثم تُشَفَّر مستخدمين إجراءات تعمية محكمة، وهي إجراءات تحقق، كما ظهر بوضوح، نتائج موضع ثقة كبيرة. وكما هو متوقع فإن هذا النوع من الأسئلة غير المقيدة يمثل أفضل مقياس لفهم موضوعات بذاتها في مجال المعارف الأولية العلمية.

ونظرًا إلى أن المجيب، أي من يُجرى معه اللقاء، في وسعه أن ينهي اللقاء وقتما يشاء، خصوصًا إذا كان اللقاء عبر الهاتف، فإن عدد الأسئلة غير المقيدة التي يوجهها الباحث يحسن أن يكون قليلًا ومحدودًا. ولذلك فإنه يجري استكمالها بأسئلة تحتاج إلى إجابات قصيرة. مثال ذلك:

تعمل أشعة الليزر عن طريق تركيز الموجات الصوتية

كل النشاط الإشعاعي صناعة بشرية

البشر الأوائل عاشوا في الوقت نفسه الذي عاشت فيه الديناصورات

مركز الأرض شديد الحرارة

:وقد تكون بعض الأسئلة أسئلة عن وقائع بسيطة، مثل

أيهما ينتقل أسرع من الآخر، الضوء أم الصوت؟

ولكن الاختبار لمعرفة مدى فهم العملية العلمية أكثر صعوبة، نظرًا إلى أن موضوعه لا يخضع لصيغة خطأ/ صواب، أو صيغة تحتوي على اختيارات متعددة. واستخدم جون نهجًا يقتدي بصيغة السؤال عن الدنا سالف الذكر، وسأل المبحوث عما إذا كان يفهم عملية الاستطلاع العلمي، ثم، عند الإجابة بنعم، يسأله عن تفسير. (لوحظ أن الإجابة الأكثر عمومية عن هذا السؤال هي القول إن العلم يتضمن التجريب، وهي إجابة شعر معها جون بأنها تشير إلى الحد الأدنى المقبول من فهم الموضوع). وثمة أسئلة معينة بذاتها استهدفت سبر فهم الاحتمالية والفارق بين التنجيم وعلم الفلك، ودور الجماعات الضابطة في التجارب. وجرى وضعها في صيغ متباينة وتضمينها في الاختبار

وتشتمل الدراسة الاستقصائية الأمريكية النمطية على نحو 2000 مشترك. ولكن الأسئلة الخاصة بالمعارف الأولية العلمية في الاتحاد الأوروبي تكون، عادة، متضمنة في دراسة استقصائية أضخم، نصف سنوية، اسمها الباروميتر الأوروبي، وتشتمل على نحو 1000 مشترك عن كل بلد خاضع للدراسة

ومن يحصل من المفحوصين على درجات تزيد على 67 في المائة في اختبارات المفترضات الذهنية العلمية، ويكشفون عن الحد الأدنى من فهم المنهج العلمي، يوصفون بأنهم «مثقفون». «علميًا» أو «جيدو الخبرة العلمية»

وكما ذكرت آنفاً فإن أحد استخدامات هذا الاختبار هدفه أن تواكب الاتجاهات القومية في المعارف الأولية العلمية الزمن. وهكذا يصبح الاختبار أشبه بلوحة تسجيل البيانات التي نعرف منها مدى ما حققناه من تحسن في جهودنا. ويمكن القول إنه من الناحية المثالية، يمثل أي اختبار جرى تصميمه لتحقيق هذا الهدف نتائج تفكير جدّي طويل، وبالتالي يمكن أن يحتفظ بصيغته نفسها على مدى زمن طويل، ما ييسر لنا عقد مقارنات بين فترات زمنية مختلفة وتفسيرها بسهولة. ويمكن كذلك، في الوقت نفسه، عقد مقارنات بين الأمم المختلفة، حيث إنها تتضمن أسئلة مشتركة في الاختبارات التي وجّهها الباحثون إلى أقطار مختلفة.

نتائج الدراسات الاستقصائية

إذا ألقينا نظرة إلى البيانات التي حصل عليها جون على مدى العشرين عاماً الأخيرة فستبرز أمامنا نتيجتان مهمتان:

متوسط درجات المعارف الأولية العلمية لدى الإنسان الأمريكي أخذ في الازدياد خلال العقد -1 الماضي.

2- يتجه الأمريكيون إلى أن يكونوا في القمة أو قريبها عند عقد المقارنات الدولية -2

وهذه نتائج قميّة بأن تثير دهشتنا إذا عرفنا ما كشف عنه طلاب المدارس العليا الأمريكية من ضعف في اختبارات التحصيل الدولية في كل من العلوم والرياضيات، فضلاً عن عدم التحسن في اختبارات المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية. علاوة على ذلك فإنه نظراً إلى أن جون أعد اختباره لاختبار الكبار وليس الطلاب فإن لنا أن نتوقع قدرًا من التدهور في مستوى الفهم في الأعمار الكبيرة. وهذا التوقع من شأنه أن يثير حيرتنا أكثر إزاء الأداء النسبي الجيد للكبار.

وليسمح لي القارئ بأن أعرض بعض الأرقام لتوضيح النقطتين سالفتي الذكر: في مطلع تسعينيات القرن العشرين كان عدد كبار السن الأمريكيين الذين صنّفهم جون بأنهم «مثقّفون علمياً» نحو 12 في المائة من مجموع السكان. ولكن هذا العدد قفز في الدراسة الاستقصائية للعام 2005 إلى 28 في المائة، في ضوء اختبارات جرت خلال السنوات الوسيطة كشفت عن تحسن مطرد(1).

وليس ثمة سبب في هذه النتائج يدعو إلى الرضا عن الذات. إن 28 في المائة من الأمريكيين يفون بشروط جون (وهي صراحة الحد الأدنى) الخاصة بالمعارف الأولية العلمية، ما يعني تقريباً

أن ثلاثة أمريكيين من بين كل أربعة لا يفون بالشروط. وطبيعي أن هذه النتيجة لا توحى بالثقة بقدرتنا على إدارة حوارات عامة متقدمة خلال السنوات المقبلة. وتكشف الاتجاهات، من ناحية أخرى، عن أننا بالفعل نفعل ما هو صواب. ويمكننا من أن نثير السؤال (الذي أثيره في الفصل الثاني عشر) كيف لنا أن نتحسن تأسيسًا على هذه القاعدة؟

بدأت المقارنات الدولية مفاجئة بالمثل، إذ كشفت هذه الدراسات الاستقصائية التي أجريت في التسعينيات عن أن المعارف العلمية الأساسية عند الأمريكيين تبلغ 12 في المائة، بينما كانت قريبة من 10 في المائة فقط عند البريطانيين، يتلوهم الدنماركيون والهولنديون (8 في المائة). وجاءت الولايات المتحدة ثانية بعد السويد في أحدث دراسة استقصائية جرت أخيرًا بـ«35 في المائة» (2).

وبعد أن واجهنا هذه الاتجاهات طويلة المدى في البيانات فإن أول سؤال يطرأ على الذهن هو: لماذا كانت كذلك؟ أعني أنه في ضوء تدني نتائج الطلاب الأمريكيين في اختبارات التحصيل، لماذا استطاع الكبار الأمريكيون أن يكشفوا عن تحسن في المعارف الأولية العلمية ويظهروا في صورة جيدة في المقارنات الدولية؟

وعندما طرحت هذا السؤال على جون كانت لديه الإجابة جاهزة. قال: «أفضل مؤشر يدل على نجاح هذه الاختبارات هو عدد المقررات الدراسية العلمية على مستوى الكلية التي درسها كل فرد. إن ما نراه هنا هو نتيجة أن الأمريكيين مطالبون بتلقي مقررات في العلم داخل الجامعة، بينما الأوروبيون والآسيويون ليسوا كذلك». ويعزى ارتفاع درجات المعارف الأولية العلمية في الجانب الأكبر منها إلى زيادة المقررات الدراسية التي تستهدف تحديدًا غير العلماء في الجامعات الأمريكية. وهذا هو ما سنطلق عليه في الفصل الثامن «الفيزياء للشعراء وحركات العلم الموحد».

إن هذه المقررات الدراسية إذا صُممت وقُدمت على النحو الصحيح فإن بإمكانها أن تزود الطلاب بالأدوات اللازمة لقراءة وفهم المستحدثات العلمية الجديدة على مدى عقود عديدة مقبلة من حياتهم. والحقيقة أن كثيرًا من المقررات الدراسية العلمية على مستوى الكلية والتي يدرسها الكبار غير العلميين تزودهم ببصيرة نافذة قيمة للغاية لفهم طبيعة المادة وتطور بنية الكائنات الحية، وفهم طبيعة كوكبنا والكون الذي نعيش فيه. مثال ذلك أن هذه المقررات الدراسية بقدر ما بقدر ما تمثل أداة لهؤلاء الطلاب، DNA تمثل عونًا للطلاب لتعلم شيء عن طبيعة وبنية الدنا

أنفسهم لقراءة وإعمال الفكر في قضايا التعديل الجيني لعقود مقبلة مستقبلاً، حتى إن لم نعرف اليوم حقيقة محتوى خلافات المستقبل وكيف ستكون على وجه الدقة.

وواقع الأمر أن الدراسات الاستقصائية التي أجراها جون تحدد أثريين إيجابيين لمقررات دراسة العلم عند مستوى الكلية. أحدهما، وليس لنا أن ندهش هنا، هو أن الطلاب الذين تزودوا بالخلفية الأساسية للمعارف الأولية العلمية يظلون محتفظين ببعض تلك المعارف في حياتهم بعد ذلك. والثاني ليس مباشراً إلى حد كبير كهذا، ولكن يمثل في النهاية عاملاً مهماً شأنه شأن المعارف المباشرة التي تحصلت للمرء عن طريق المقررات الدراسية. ويبين في خاتمة المطاف أن من تلقوا مقرراً في العلم في الكلية هم الأقدر من سواهم، على أرجح تقدير، على الاستفادة من فرص تعليم العلم غير الرسمية، وما أكثرها في مجتمعنا! إنهم على الأرجح يطالعون الكتب والمجلات ومقالات الصحف التي تتناول العلم. وهم الأرجح أيضاً في الإقبال على زيارة المتاحف، وغير ذلك. إنهم، بعبارة أخرى، (*****NOVA) ومشاهدة البرامج التلفزيونية مثل برنامج نوبا سوف ينغمسون -على الأرجح- في التعلم مدى الحياة، ما دام الأساس الضروي توافر لديهم ليتمكنهم من ذلك. وغني عن البيان أن تزايد عدد المعنيين بالبحث عن معلومات خاصة بالعلم هو في الحقيقة القوة التي أثارت الاهتمام بزيادة عدد ما نسميه «الصحافة العلمية». وهذه نقطة سنعود إليها سريعاً.

هو برنامج علمي يتضمن لقاءات مع علماء مختصين للحديث عن مواضيع أو اكتشافات علمية. بدأ Nova: نوبا (*****) «بثه عام 1974، وأسهمت الـ «بي بي سي» (البريطانية) في إنتاج حلقاته الأولى، ويعرض اليوم على قناة الـ«بي بي إس الأمريكية». [المحررة] (PBS).

ولكن أياً كانت الأسباب فإن قاعدة المعلومات الدولية الضخمة التي أنجزها جون لا تحدد لنا نقطة الانطلاق فقط في بحثنا من أجل المزيد من المعارف الأولية العلمية، بل تهيئ لنا مؤشراً إلى الكيفية التي يجري بها البحث. وتخبرنا كذلك بأن النعمة التشاؤمية السائدة على لسان الكتاب من أمثال موريس شاموس ربما تكون غير مكتملة النضج إلى حد ما. ونعرف أن موريس شاموس أبدى بأسه الكامل من إمكان تحقيق أي تقدم على الإطلاق في هذا المجال، وذلك في «كتابه» «أسطورة المعارف الأولية العلمية».

تقييم برامج محددة للمعارف الأولية العلمية

الآن، وقد عرفنا الأدوات المتاحة لنا لقياس المعارف الأولية العلمية لدى كبار السن من السكان، أصبح في الإمكان الانتقال إلى مشكلة تقييم عدد من البرامج المحددة. ويمثل هذا، يقيناً، مناط الاهتمام الأول في حقبتنا التي تعتمد على المعايير. ولدينا قضيتان من شأنهما، في حدود ما أعرف، أن تجعلنا مهمتنا صعبة إن لم أقل مستحيلة:

أولاهما، وسبق أن ألمحت إليها، وهي تتضمن تناقص المعارف مع الزمن. إننا إذا سلمنا بالدراسة التحليلية التي أنجزها جون بشأن السبب الذي من أجله كشفت أمريكا عن نتائج جيدة نسبياً في الدراسات الاستقصائية عن المعارف الأولية العلمية، فإن وقت تلقي شخص ما للمادة العلمية يجب أن يتساوى، من حيث الأهمية، مع ما تلقاه. إنه لمن المستساغ، على سبيل المثال، أن نتوقع لشخص قرأ أخيراً مقالاً في مجلة تايمز عن مبحث الوراثة (وقد كان هناك عدد من تلك الذي DNA المقالات أخيراً) أنه سوف يجيب إجابة جيدة عن السؤال الخاص بموضوع الدنا أوردناه في السابق، بينما شخص آخر قرأ مقالاً مماثلاً لهذا قبل سنتين لن تكون إجابته عند المستوى نفسه. معنى هذا أننا لسنا فقط في حاجة إلى معرفة ما أنجز في مقرر دراسي رسمي، بل يجب أن نعرف أيضاً آخر الاطلاعات غير الرسمية على العلم. وهذه قد تكون مهمة محبطة لدراسة استقصائية طوعية لمدة 20 دقيقة.

وينقلنا هذا إلى النقطة الثانية. إننا حين نعاير مستوى المعارف الأولية العلمية عند الشخص الكبير نكون بصدد الأثر الموحد المتكامل للتعليم مدى الحياة، التعلم الرسمي وغير الرسمي معاً. وكم هو مستحيل عملياً هنا أن نستخلص من هذا النوع من البيانات أثر مقرر دراسي تجديدي للصف الثالث في العلم أو أثر زيارة متحف. وحتى إذا افترضنا أن الناس في وسعهم تذكر نوع ما تلقوه من تعليم في المدرسة الابتدائية فإن الأثر الناجم عن مقرر دراسي بعينه سوف يمتزج بكل المتغيرات الأخرى التي تتضمنها المشكلة.

معنى هذا أننا إذ نكون بصدد تقييم برامج محددة بذاتها فإننا سوف نرتد إلى نموذج الامتحان النهائي التقليدي حتى إن لم يزودنا بالمعلومات التي نريدها حقيقة. ولنا أن ندفع بأن شخصاً ما تهيأت له خبرة خاصة مع مستوى رفيع من المعارف الأولية العلمية سوف يحتفظ على الأرجح بمزيد من المعرفة في فترة تالية، وذلك لسبب بسيط هو أن لديه كثيراً مما يتسنى له أن ينطلق على أساسه. وعلى أي حال فإن هذه، بالإضافة إلى ما توافر لدى جون لرسم معالم النجاح الشامل لمشروعنا، هي كل ما لدينا من معلومات نفيد بها.

استطرد تقني: نظرية الإجابة عن المفردات، وتصميم الاختبار، والمقارنات بين الثقافات

فكرة جيدة أن ننظر بين الحين والآخر إلى البيانات بقدر من العمق أكثر مما فعلنا حتى الآن في هذا الفصل. ذلك أن هذا النوع من التدريب يمكن أن يهيئ للقارئ قدرًا من الفهم لمدى تعقد العالم الواقعي، الذي يتوارى عادة وراء المعلومات التي تبدو لنا على السطح معلومات بسيطة. وسوف أعرض في هذا الفصل ما أسميه نظرية الإجابة عن المفردات (ن ج م)، وهي منهج نظري لتحليل نتائج الاختبار والاستقصاء عن طريق تأمل الإجابات عن أسئلة أو مفردات بعينها. ولكن القارئ الذي يريد أن يتخطى هذا القسم التقني، إلى حد ما، في وسعه أن يقنع بالمناقشة المعروضة في ختام الفصل من دون أن ينقطع اتصاله بالموضوع.

عند تقييم المعارف المتوافرة لدى المشاركين في اختبار أو استقصاء معين يكون من الممكن غالبًا تحصيل كم من المعلومات أكثر مما تتضمنه درجات الاختبار في حالتها الظاهرة، إذ نستطيع -على سبيل المثال- تحليل الاستجابات الفردية لنتبين مدى جودة تصميم الاختبار أو الاستبيان، ما يسمح لنا باستبعاد الإجابات عن الأسئلة المصممة بطريقة سيئة.

علاوة على هذا فإنه كثيرًا ما يحدث أن نقدم صورًا مختلفة من الاختبار نفسه إلى جماعات مختلفة. مثال ذلك الاختبارات التي تُقدّم في بلدان مختلفة ونادرًا ما تكون متطابقة بعضها مع بعض على مدى فترة زمنية طويلة. لذلك، من المفيد إلى أقصى حد أن تكون لدينا طريقة لمقارنة النتائج بعضها ببعض على الرغم من الفوارق بين الاختبارات من حيث التفاصيل. وهنا نقول: لقد صُمّمت نظرية الإجابة عن المفردات بوصفها منهجًا نظريًا هدفه معالجة هذا النوع من المشكلات.

وجدير بالذكر أن مسألة أو مفردة «مثالية» تتعلق باختبار «مثالي» نتوقع لها أن تسير على نحو مقارب لما يلي: إن من أنجزوا مستوى معينًا من الفهم لموضوع الاختبار سوف يتوصلون إلى إجابة صحيحة، بينما من لم يتوافر لهم هذا المستوى من الفهم سوف يخطئون. معنى هذا أن الإجابة عن السؤال ستدلنا بنفسها عما إذا كان الشخص موضوع الاختبار قد حقق المستوى المطلوب من المعارف أو لا.

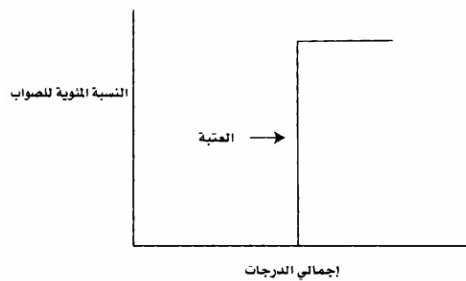
ومشكلتنا مع هذا الموقف المثالي أنه يستلزم منا أن يكون لدينا أسلوب مستقل -إلى حد ما- لمعرفة مستوى معارف الشخص. وقد يكون هذا ممكنًا في بعض الحالات (مثال ذلك عند اختبار

القراءة الاستيعابية، حيث توجد اختبارات أخرى لمستوى القراءة المتاح). ولكن غالبًا ما تكون حال معارف الشخص هي الهدف الذي نحاول قياسه، ولهذا لا تكون معروفة لنا في البداية.

والطريقة المعتادة للالتفاف على هذه المشكلة هي استخدام إجمالي درجات اختبار الشخص كمقاربة تقربنا من تقدير حال المعرفة عند هذا الشخص. ويمكننا في هذه الحال عمل مخطط بياني للمسألة التي تعيننا في صيغتها المثالية على غرار المخطط المبين في الشكل (6-1) ونحدد على المحور الأفقي إجمالي درجات الاختبار، بينما نجد على المحور الرأسي النسبة المئوية للمختبرين الذين أجابوا إجابات صحيحة.

ويتبين لنا من هذا المخطط البياني أن أي أحد حصل على درجات دون رقم معين في الاختبار لم يستطع الإجابة عن السؤال، بينما كل من حصلوا على درجات أعلى من هذا الرقم أجابوا. ورأينا أن نسمي هذه الدرجة الحرجة من إجمالي درجات الاختبار باسم العتبة، لأنها علامة دالة على نقطة الانتقال نحو هذه المسألة.

ويمكن القول، تأسيسًا على السؤال موضع البحث، إن هذه العتبة يمكن أن تكون أي درجة مئوية من صفر في المائة إلى 100 في المائة. وسوف تتطابق أول هذه الإمكانيات المحتملة مع سؤال يمكن أن يجيب عنه عمليًا كل شخص وهو: «هل الجو الحار يميل إلى الارتفاع أو الانخفاض؟» ويتطابق الثاني مع سؤال لا يمكن لأحد أن يجيب عنه: «اشرح مفهوم إعادة الوضع المعياري في نظرية المجال الكوانتية». (عمليًا، إذا كانت العينة موضع الاختبار ضمت إحصائيًا في الفيزياء النظرية فإن بالإمكان الحصول على إجابة صحيحة عن السؤال الثاني، ولكن حدوث مثل هذا الأمر غير محتمل إحصائيًا).

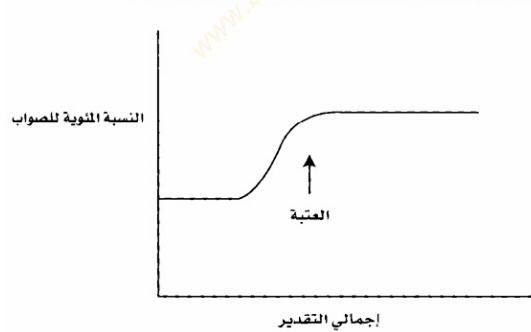


الشكل (6-1): إجابات افتراضية عن سؤال في اختبار مثالي

وطبيعي أن كلاً من حالتني صفر في المائة و100 في المائة لا فائدة منهما من وجهة نظر التحليل بما أنهما لا تسمحان بعقد أي نوع من التمييز بين المختبرين، إذ لو أن كل شخص قادر على أن يجيب عن سؤال، أو لا أحد بمقدوره أن يجيب، فإن الباحث لن يعرف شيئاً يذكر عن معامل الارتباط بين نوع محدد بذاته من المعارف وعوامل أخرى مثل التعليم.

ونجد من ناحية أخرى أنه عندما تكون العتبة بين هذين الطرفين على نحو ما هو ظاهر في الشكل (1-6) فإنها بذلك تمايز بين المختبرين: أولئك الذين يجيبون إجابة صحيحة سوف يحصلون على درجات يزيد مجموعها على العتبة، بينما من يخفقون في الإجابة سيحصلون على درجات أقل. ويتألف الاختبار المثالي من بنود تتصاعد عتباتها على مراحل، بما يعني أن الجميع تقريباً سيكون في وسعهم الإجابة عن السؤال الأول، ولا أحد تقريباً سيكون في وسعه الإجابة عن السؤال الأخير. سيكون من السهل نسبياً، بفضل مثل هذا الاختبار، أن نستنتج آثار عوامل مثل العمر والجنس ومستوى التعليم على النتائج المتحصلة.

وطبيعي أنه لا يوجد اختبار «حقيقي» مبني على الأسئلة أو المفردات سيعطي نتائج تماثل ما هو موضح في الشكل (1-6). ومن ثم فإن الإجابات الفعلية عن مفردات بعينها ستكون أكثر شبيهاً بالمنحنى المبين في الشكل (2-6) الذي نسميه «منحنى الإجابة عن المفردات». وتأتي هذه النتيجة على عكس الخطوة الحادة التي تحدثنا فيها عن الحال المثالية، إذ إنها تبين تصاعداً تدريجياً للإجابات الصحيحة مع بيان درجات الاختبار، وبذا تمثل موقفاً أكثر واقعية. ويتضمن هذا المنحنى كثيراً من النقاط التي تحتاج إلى مناقشة.



الشكل (2-6): منحنى الإجابة عن المفردات

إجابات نمطية عن أسئلة ضمن اختبار واقعي

يبين المنحنى أنه سيكون هناك عدد من الإجابات الصحيحة حتى بالنسبة إلى من كان أداؤهم في الاختبار ضعيفاً، ومن ثم (وفق ما هو مفترض) لا يعرفون شيئاً عن موضوع الاختبار. وسبب ذلك أنه في اختبارات الاختيارات المتعددة أو اختبارات خطأ/ صواب يحدث أن شخصاً يخمن الإجابة عشوائياً ويحصل على إجابات صحيحة عن نسبة مئوية معينة عند أداء الاختبار في كل مرة. وتتجلى هذه الحال في الاسم الذي يطلقه الإحصائيون على المكان الذي يتقاطع فيه المنحنى مثل ذلك أنه في guessing parameter مع المحور الرأسي -إذ يسمونه معلم (باراميتري) التخمين اختبار متعدد الاختيارات يتضمن أربع إجابات محتملة يكون أبسط تقدير لمعلم التخمين 0.25، إذ لو أن «شمبانزي» أمسك الاختبار ربما يحصل على إجابة صحيحة من بين الإجابات الأربع (عملياً المعلم [الباراميتري] أكثر تعقيداً بقليل من هذا، لأنه كلما زادت معرفة المرء زادت قدرته على إلغاء الإجابات الخاطئة، ومن ثم يقل عدد التخمينات المحتملة).

النقطة الثانية التي نود أن نشير إليها هي أن هذا المنحنى على الرغم من أنه يبين زيادة في النسبة المئوية للمشاركين في الاختبار والحاصلين على إجابة صحيحة مع زيادة المعرفة، فإنه لا يتضمن العتبة الحادة التي نراها في الحالة المثالية في الشكل (6-1). ويتضح لنا هذا عند ملاحظة خاصيتين للمنحنى، النقطة التي عندها يجيب 50 في المائة من المفحوصين عن السؤال إجابة صحيحة، وهي العتبة، وانحدار المنحنى عند هذه النقطة. وتبين واضحاً أنه كلما كان المنحنى أكثر انحداراً كان أقرب إلى الدنو من المثالي. وتعتبر هذه الأرقام الثلاثة -معلم التخمين والعتبة والمنحدر- هي الخصائص المميزة للمنحنى.

لماذا نحن في حاجة إلى نظرية الإجابة عن المفردات لتحليل نتائج الاختبارات؟ يعرض جون ميلر مثلاً مهماً، إنه حينما تضمّن اختباراً جرى تطبيقه في اليابان سؤالاً عن الاحتمالية وعلم الوراثة، تغير الموضوع من موضوع يشتمل على احتمال العيوب الولادية (كما هو في الصيغة الأمريكية) إلى موضوع يشتمل على احتمالات اللون في الأزهار (والذي كان لسبب ما أكثر اتساقاً مع الممارسات التعليمية اليابانية). أنى لنا أن نقول إن هاتين الصيغتين المختلفتين للسؤال متماثلتان من حيث الصعوبة؟

يقول جون: «الأمر هنا أشبه بالغطس في الأولمبياد، إن كل غطسة لها مستوى صعوبة محدد يُستخدم لتقدير درجات الحكام على الغطسة نفسها. معنى هذا أن الغواص الذي حصل على 10 درجات من الحكام عن غطسة بسيطة يمكن عملياً أن ينتهي به الأمر ويكون أدنى مستوى من

غواص حصل على درجات أقل عن غطسة أصعب كثيرًا. ونجد على المنوال نفسه أن نظرية الإجابة عن المفردات تهين لنا وسيلة لمقارنة صعوبة أسئلة الاختبارات

وحرى بنا أن نشير إلى أن نظرية الإجابة عن المفردات لها استخدامات كثيرة شأن الأغلبية العظمى من التقنيات الرياضية. وقدم جون مثالاً يُقرب الأمر إلى فهمنا ومن ثم يستخدم مثالاً ويقول موضحةً: «يُقدم هذا الاختبار في 16 يومًا من أيام السبت. SAT. لاختبار القدرات الدراسية المتوالية، وبذلك حين يتوافر الحافز يمكن إرسال المفحوصين إلى الدورات الأولى لاستظهار الأسئلة. وهكذا يمكن للمرء في النهاية أن يحصل عملياً على نسخة كاملة. وإذا أردت تجنب هذا الاحتمال فإن عليك تقديم 16 اختباراً مختلفاً. معنى هذا بطبيعة الحال أن عليك أن تعرف بنداً بنداً أن الاختبارات محددة التقديرات والدرجات، بحيث إن الطلاب الذين يجيبون عن صيغة أكثر صعوبة بدرجة طفيفة لن ينالوا عقاباً. وطبيعي أن يتوافر لدينا أسلوب موثوق به لتحديد التقديرات نظراً إلى أننا نعيش في عالم نجد فيه أن بضع نقاط محدودة في تقدير الدرجات يمكن أن تؤثر في قبول الطلاب والالتحاق بالكلية (فضلاً عن الدعاوى القضائية). وهنا نذكر أن نظرية الإجابة عن المفردات هي التي توفر لنا تحديداً هذا النوع من مناهج المقارنة

إن الفكرة التي أريد من القارئ أن يستخلصها من هذه المناقشة لنظرية الإجابة عن المفردات هي ما يلي: توجد وراء جماع درجات الاختبارات البسيطة التي نقرأ عنها في الصحف كثير من التقنيات المتنوعة التي منها تقنية نظرية الإجابة عن المفردات، إذ تسمح لنا بتحليل أكثر دقة وتقدمًا للنتائج. وأقول في النهاية: يوجد كثير جداً من التقنيات لتحليل الإجابات عن الاستبيانات التي تزيد كثيراً على مجرد إحصاء الإجابات التي تتمثل في صواب/ خطأ فقط

* * *

إن البحوث الأساسية تمثل -بوضوح- العلم، بينما التطوير يمثل التكنولوجيا. ويحدث الانتقال من أحدهما «إلى الآخر في منتصف خط الأنابيب؛ أي في المنطقة التي أسميها البحوث التطبيقية».

المؤلف

خط أنابيب البحوث

صادفت على مدى سنوات عمري عددًا من الأقوال المأثورة التي وصفتها ساخرًا باسم: «قوانين تريفييل». ولعل أكثرها ملاءمة لموضوع هذا الفصل يمكن صياغته على النحو التالي: كلما تصور شخص ما صورة عن الكيفية التي يعمل بها الكون، سرعان ما، أو بعد قليل، يظهر آخر يضع تصورًا لنفسه، كيف يستثمر هذه المعلومة لمصلحته ويحقق منها مالا.

العلم والتكنولوجيا

طبيعي أن تحدوني رغبة، كعالم، بأن تنتهيا للناس قدرة على تقييم مهنتي لما فيها من جمال وما تضيفه من فهم عميق لحياتهم، وأيضًا لما فيها من روعة فكرية آسرة. بيد أن تجربة الحياة علمتني أن الأمور ليست على هذا النحو، إذ حيثما يشرع أصحاب المناصب القيادية، خصوصًا من هم في سدة الحكم، أو كبار رجال الأعمال، في الحديث عن قيمة العلم فإذا بالحديث لا يستغرق وقتًا طويلًا وسرعان ما يتحول إلى حديث عن المنافع الاقتصادية المترتبة على الإنجازات العلمية المتقدمة. إنني لو قدر لي أن أنقاضي قرشًا واحدًا عن كل مرة سمعت فيها حاكمًا يتحدث عن بناء وادي السليكون الثاني في ولايته لكنت أصبحت من الأثرياء. (نعم. قد يكون في حديثي مبالغة، إذ ربما توافر لي فقط ما يمكنني من الحصول على كوب من شراب الكابتشينو الرائع الذي أحتسيه الآن وأنا أكتب).

لهذا فإننا حين نطرح سؤالنا «لماذا العلم؟» فإن علينا أن نواجه حقيقة أن طريقة المواطنين العاديين وكذا القادة السياسيين ورجال الأعمال في التفكير في السؤال هي طريقة جد مختلفة عن طريقة تناول العلماء والمعلمين. ترى المجموعة الأولى أن العلم ذو قيمة كبيرة لأنه السبيل لتحقيق مكاسب اقتصادية وزيادة وتعزيز صحة وسعادة البشر. وترى المجموعة الثانية أن العلم

جزء من، أو ينبغي أن يكون جزءاً من، التعليم الليبرالي، شيء ندرسه لذاته وليس لمجرد أي مكاسب اقتصادية يمكن أن نجنيها من ورائه.

ويذكرني هذا الموقف بمؤتمر شاركت فيه منذ سنوات. انعقد المؤتمر في ريشموند، وكان مخصصاً لمناقشة ودراسة حالة التعليم الليبرالي في نظام جامعة فرجينيا. وضم المؤتمر كل الجامعات في الولاية. وشاركت فيه كواحد من بين ممثلي جامعة فرجينيا. وتعاقب المتحدثون الواحد تلو الآخر على مدى يومين، وكل منهم يشجب بقوة ما يراه صورة لتفشي الروح المهنية السائدة بين جيل الطلاب، وانهيار الفنون الليبرالية والسطوة التي يؤسف لها (في نظرهم) للعلم والهندسة في الدراسات الأكاديمية. ثم جاء الدور ليوجه حاكم الولاية خطابه إلى الحضور، باعتبار خطابه الخطاب الرئيسي، وانحصر كل ما قاله في أول جملة له عن الكيفية التي يمكن بها للجامعات أن تخدم كنويات لخلق تكنولوجيات ومشروعات أعمال جديدة، مستشهداً بكل من مشروعات الطريق السريع 128 قرب بوسطن وكذلك (نعم) وادي السليكون، كمثالين لما يطالب جامعة فرجينيا بأن تنجزه. إنني لم أشهد في حياتي مثلاً أوضح من ذلك، عن الهوة الواسعة الفاصلة بين الأكاديميات وبقية السكان.

وأجد لزاماً أن أصرح بأنني باعتباري أحد العلماء الأساسيين في الاجتماع شعرت بغصة المهانة وأنا أستمع إلى حديث حاكم الولاية، خصوصاً بعد أن أمسكت عن الكلام على مدى يوم ونصف. بيد أنني كلما أطلت التفكير في الأمر ازددت إدراكاً بأن وجهتي النظر اللتين عبّر عنهما المتحدثون في المؤتمر ليستا متباعدتين تماماً. إن العلم يجمع بين كونه أداة لتوليد للنشاط الاقتصادي، وكونه جزءاً من التعليم الليبرالي، وأنه هكذا كان دائماً. وأود أن أوضح أن الفكرة الأساسية في قانون تريفل المذكور آنفاً هي أننا حين نشرع في تطبيق المنهج العلمي على مشكلات الطبيعة، حتى إن كانت المنافع الاقتصادية هي أبعد شيء عن أذهاننا، فإننا نعمل حتماً على توليد تلك المنافع شئنا أم أبينا.

وتوجد أمثلة كثيرة جداً في التاريخ تؤكد هذه الفكرة التي لا أكاد أعرف من أين أبدأ بها. ولعل مطلع القرن التاسع عشر هو أفضل وقت نبدأ به، إذ هذه هي الفترة التي بدأ فيها تطبيق المنهج العلمي لدراسة طائفة من الظواهر الطبيعية القديمة، ولكنها غريبة، ومنها الكهرباء والمغناطيسية، إذ على الرغم من أن هذه الظواهر كانت معروفة منذ العصور القديمة فإن دراستها دراسة منهجية لم تبدأ إلا في أواخر القرن الثامن عشر، ثم أصبحت واضحة في

ثلاثينيات القرن التاسع عشر، إذ تبين للعلماء أن ظاهرتي الكهرباء والمغناطيسية مترابطتان على نحو وثيق على الرغم من ظهورهما وكأنهما ظاهرتان مختلفتان كل منهما عن الأخرى. واستثمر عالم الفيزياء البريطاني ميشيل فاراداي هذه الرابطة في سلسلة من التجارب المذهلة التي أنتجت المقدمات الأولى للمحرك الكهربائي الحديث والمولد الكهربائي.

وقصة حياة فاراداي مثيرة للاهتمام بخاصة وهو ابنٌ لحداد، كان عضواً في طائفة مسيحية صغيرة، والمعروف أنه في مطلع القرن التاسع عشر كان أبناء كنيسة إنجلترا الرسمية هم من في إمكانهم الالتحاق بالجامعات، ولذلك كانت سبل التعليم الرسمي مسدودة أمامه. وكان السائد وقتذاك عمل الفتیان تلاميذ لمهنة ما، حتى يتسنى لهم تعلمها. وهكذا ألحق أبو فاراداي ابنه للعمل تلميذاً مهنيًا لدى صاحب مكتب تجليد كتب. وهنا طالع فاراداي الكتب التي يجدها، وكشف من خلال مطالعته عن اهتمام عميق بالعلم. وأعطاه أحد العملاء عددًا من البطاقات لحضور سلسلة محاضرات يقدمها همفري دافي، عالم الكيمياء المبرز. وسجّل فاراداي عددًا من الملاحظات عن المحاضرات في لوح نحاسي فيكتوري جميل، وجدّ الملاحظات المطبوعة بغطاء من الجلد، وقدمها هدية إلى دافي عندما قدم طلبًا للعمل معه في وظيفة مساعد. واستخدمه بالفعل ثم شق طريقه صاعدًا ليشغل منصبًا رفيعًا في الأوساط العلمية الإنجليزية. وأكثر من هذا، حل ضيفًا مرات عديدة في بلاط الملكة فيكتوريا.

والقصة التي أريد أن أذكرها تتعلق بيوم صاحب فيه فاراداي رئيس الوزراء البريطاني في جولة في معمله (نظرًا إلى أنني سمعت هذه القصة تُروى عن كل رئيس للوزراء البريطانيين تقريبًا منذ 1815، لذلك سأترك للمؤرخين مهمة تحديد أي رئيس وزراء هو الحقيقي). وثمة افتراض بأن رئيس الوزراء بعد أن شاهد الأجهزة القديمة قال: «حسنًا، يا سيد فاراداي، هذا كله جميل ولكن ما الفائدة؟». أجاب فاراداي: «ما الفائدة؟ حسنًا، سيدي رئيس الوزراء، سوف «!تستطيع يومًا أن تفرض رسمًا ضريبياً عليه».

مغزى القصة أنه لا رئيس الوزراء بكل حكمته وبصيرته ولا فاراداي، والمفترض أنه أعظم علماء عصره، استطاع أن يخمن إلى أي وجهة سوف يقودنا هذا الخليط من المعدات والأجهزة، إذ كانت المسألة من وجهة نظر فاراداي لا تعدو محاولة تبيان كيف تعمل الطبيعة، فضلًا عن أن الأجهزة هي بشكل أو بآخر منتجات عرضية غير مسبوقة لهذا البحث. وإن أيًا من الرجلين لم يكن بوسعهما التنبؤ بالعالم الحديث حيث الطاقة المخترنة في الفحم أو اليورانيوم أو مساقط المياه

يمكن استخدامها لإدارة مولدات ضخمة تنتج تيارًا يسري إلى جميع القارات عبر شبكة من خطوط الطاقة.

ومع هذا، كم هو عسير تخيل المجتمع الحديث من دون منافع أجهزة فاراداي. يكفي أن نتصور شيئًا بسيطًا مثل ركوب السيارة والضغط على زرار، فإذا بالنافذة الزجاجية تفتح هابطة إلى أسفل. هنا محرك كهربائي صغير، يمثل إحدى السلالات البعيدة لما رآه رئيس الوزراء يوم زيارته لمعمل فاراداي، وهذا المحرك هو الذي دار وفتح النافذة. ولعل القارئ استخدم محركات كهربائية مئات المرات كل يوم من دون أن يعرف ذلك. إن أي جهاز مثل المروحة الكهربائية أو الكمبيوتر أو مجفف الشعر أو مكيف الهواء، يستخدم مثل هذه المحركات. ويكفي أن نقول إن شبكة الطاقة الكهربائية العظمى التي تحيط بالعالم هي إحدى النتائج الرائعة لأعمال فاراداي، وإن لم تُدرْ بخلد أحد عند اختراعها. وهنا أقول إن هذه العبارة ذات معنى خاص عندي وأنا أكتبها. ذلك أنه منذ أسبوع مضى اجتاحت واشنطن العاصمة عواصف هوجاء غير مسبوقه تساقطت بسببها أشجار، وانقطع التيار الكهربائي عن مئات الآلاف من المنازل. وبعد أن قضينا يومين من أيام الصيف الحارة من دون كهرباء أدركنا أنا وجيراننا قيمة جديدة لإنجازات ميشيل فاراداي، ومدى إسهاماته لرفاه البشرية.

وإذا عدنا بالذاكرة إلى الماضي من واقعنا الراهن، نجد من اليسير علينا أن نتبين أهمية إنجازات فاراداي، وسرعان ما ندرك جدوى البحوث الحديثة التي تستهدف تقدم قدراتنا على توليد الكهرباء. ولنتأمل كمثال جهود تطوير واستحداث مجموعات للخلايا الشمسية ذات الفعالية العالية. ولكن وكما تُبين ملاحظات رئيس الوزراء، لم يكن واضحًا في العام 1830 أن الأبحاث في المجالات المحفوفة بالأسرار عن الكهرباء والمغناطيسية سوف تحقق أي شيء آخر سوى إشباع الفضول المعرفي لدى الباحث. وليس من شك عندي مثلًا أنه لو سأل أحد فاراداي وقتذاك عما إذا كانت أعماله ستفضي بنا إلى وسيلة لإضاءة المنازل أفضل من مصابيح الزيت لارتبك فاراداي، إذ سوف يستعصي عليه فهم ما يتحدث عنه السائل. ولكن حري بنا أن ندرك أنه خلال الأربع والعشرين ساعة المقبلة سوف يضغط من يطالع هذا الكتاب على زر ويضيء النور الكهربائي بفضل عبقرية السيد فاراداي الذي أبدعه.

وهكذا نجد أن الفضول المعرفي للعلماء والجدوى العملية لمجهودهم أمران مترابطان. وينقلنا هذا إلى السؤال: كيف يتحقق على وجه الدقة والتحديد الترابط بين الأوجه المختلفة للمشروع

العلمي، وكيف يفضي أحدهما حتمًا إلى الآخر من خلال ما أسميه خط الأنايب؟ إن هذا السؤال جرى طرحه تقليديًا في اللغة المعيارية لسياسة العلم في ضوء ثلاثة أنواع من العمل العلمي: البحوث الأساسية والبحاث التطبيقية والتطوير. ويجدر بي أن أوضح أنني حتى هذه اللحظة من المناقشة لم أكن دقيقًا تمامًا في استخدامي لمصطلحي العلم والتكنولوجيا. إن الاثنين، وعلى الرغم من أنهما مترابطان، ليسا متطابقين. وسوف يبين الفارق بين الاثنين بوضوح من خلال متابعة خط أنايب البحث. وجوهر الأمر أن البحوث الأساسية تمثل -بوضوح- العلم، بينما التطوير يمثل التكنولوجيا. ويحدث الانتقال من أحدهما إلى الآخر في منتصف خط الأنايب؛ أي في المنطقة التي أسميها البحوث التطبيقية.

البحوث الأساسية، المعرفة من أجل المعرفة

إذا كان المستهدف من حديثنا العلماء الذين اتخذوا قاعدتهم للعمل في الجامعات، وهم على ما يبدو العلماء الذين تشير إليهم الأبناء غالبًا، فإن الاحتمال الأكبر أنهم سيقولون إنهم ينجزون شيئًا اسمه البحوث الأساسية، وإن الأسلوب المعياري لتحديد هذا النشاط هو قولنا إن البحوث الأساسية هي بحوث يجريها العلماء لهدف واحد فقط هو معرفة المزيد عن الطبيعة، ودفع حدود المعرفة إلى نطاق أبعد في مجال المجهول. وميزة هذا التعريف أنه بسيط، بيد أنه يركز على حالة عقل الباحث أكثر مما يركز على البحث ذاته.

كيف ينمو العلم؟

عندما أفكر في البحوث الأساسية فأنا أؤثر التفكير في طريقة نمو واتساع نطاق العلم مع الزمن. وأتصور هذه العملية وكأنها أشبه بنمو الشجرة، إذ تحتل مكان القلب تلك المبادئ الكبرى والأساسية التي تحققت مرات ومرات، والتي لا يتشكك فيها أحد بشكل جاد. ويدخل في هذه الفئة قانون بقاء الطاقة والقوانين الأساسية للكهرباء والمغناطيسية والتطور عن طريق الانتخاب الطبيعي. إنها لب فهمنا لعالمنا، وهي الهيكل الأساسي الذي يبنى عليه بقية العلم. وإن هذه الأفكار -كما سبق أن أوضحت في الفصل الأول- مؤسّسة على نحو راسخ صلب بحيث لنا أن نأخذها مأخذ التسليم بكل ما في الكلمة من معنى.

ليس معنى هذا أن الأفكار المركزية التي تمثل القلب للعلم ليست محصنة ضد التغيير. وإنما المعنى أن التغيير بالنسبة إليها يأخذ شكل وضع حدود لصوابها، وليس إبدالها بشيء جديد.

ولنأخذ كمثال على هذه العملية أثر ميلاد النسبية وميكانيكا الكوانتم في مطلع القرن العشرين في إدراكنا لصواب قوانين نيوتن عن الحركة. ونذكر أنه في العام 1905 نشر شاب باحث في برن ورقة بحث شديدة الغرابة. تبدو ورقة البحث ممعنة في أسلوبها الفلسفي، وتكاد لا تتضمن أي إشارة إلى مرجع للمعلومات الواردة فيها. وتقترح أن ثمة مبدأ أساسياً أول يحكم حركة العالم. وسُمي هذا المبدأ النسبية، ويؤكد أن قوانين الطبيعة واحدة بالنسبة إلى كل المراقبين في الكون بغض النظر عن حالة حركة المراقب. واستهل ألبرت أينشتاين بهذا البحث ثورة عميقة في أسلوب العلماء في النظر إلى الكون.

ولكن من المهم أن ندرك أن نظرية أينشتاين لم تحل محل نظرية نيوتن بأي حال من الأحوال، إنها فقط حددت معالم المنطقة التي تصدق فيها قوانين نيوتن. وحيث إن الدعم التجريبي لقوانين نيوتن اشتمل على الأجسام التي تتحرك ببطء، فإن تلك القوانين لا تزال صادقة في تطبيقها على هذه الأجسام، وإن ما أوضحه أينشتاين هو أننا لا نستطيع أن نأخذ قوانين صادقة في تطبيقها على منطقة ما، الأجسام المتحركة ببطء، ونطبقها تلقائياً على أجسام أخرى، أجسام تتحرك حركة قريبة من سرعة الضوء. وجدير بالإشارة أنني حين أريد توضيح هذه الفكرة لطلابي أحدثهم عن خبرة ركوب طائرة في مطار أمريكي. إنك إذ تدخل الطائرة تجد كل من حولك يتحدثون الإنجليزية، ولكن ليس لك أن تفترض أن القاعدة نفسها سوف تصدق حال خروجك من الطائرة. قد تكون الإنجليزية أو ربما لغة أخرى هي لغة الحديث في موقع هبوطك الجديد. كذلك، وعلى المنوال نفسه، لا يسعنا أن نفترض أن قوانين نيوتن التي استقرت من الأجسام بطيئة الحركة سوف تصدق حين توسع نطاق تطبيقها لتشمل مناطق أخرى غير تلك التي تم التحقق فيها من صدقها.

وليسمح لي القارئ بأن أتحدث بلغة الأرقام بدلاً من أن أخاطر بالسخرية من هذه الفكرة. نعرف أن أشهر تنبؤات أينشتاين (التي أثبتت صدقها تجارب كثيرة) تفيد بأن الساعات المتحركة سوف تبطئ حركتها. هذا كلام معقول، ولكن إذا ما استخدمنا معادلات أينشتاين لحساب كم وحدة ستبطنها أو تتأخرها الساعة إذا ما قاد المرء سيارته بسرعة 60 ميلاً في الساعة، فسوف نكتشف سريعاً أن على المرء أن يستمر في قيادة سيارته مدة أطول من عمر الكون لكي يرى أن ساعته تأخرت ثانية واحدة. ولهذا فإن الساعات الذرية هي وحدها القادرة على قياس الزمن حتى 13 علامة عشرية، ولذلك هي التي يمكنها فعلياً تمييز الفارق بين وصف كل من نيوتن

وأينشتاين للعالم الظاهر المعياري. وهذا هو السبب في أننا لا نزال نستخدم قوانين نيوتن عند تصميم ناطحات السحاب وإرسال سفن المسبار الفضائي إلى الكواكب الخارجية.

وفي النهاية نجد أن نتيجة أعمال أينشتاين أننا نرى قوانين نيوتن لا تزال صائبة في النطاق ذاته الذي تحققت فيه وليس خارجه. ونقول من باب التسجيل إن حجةً مناظرةً تمامًا يمكن أن نسوقها بشأن توسيع نطاق قوانين نيوتن لتشتمل على أجسام في حجم الذرات. ونلاحظ في هذه الحالة أن القوانين الجديدة تدرج تحت اسم ميكانيكا الكوانتم، التي استحدثت في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين. وكما هي الحال بالنسبة إلى النسبية، فإننا حين نطبق قوانين ميكانيكا الكوانتم على أجسام ذات أحجام عادية تتحرك بسرعات عادية، فإننا عملياً نحصل على النتائج نفسها كما لو أننا طبقنا قوانين نيوتن.

معنى هذا أنه في لب الشجرة العلمية توجد القوانين الأساسية الكبرى من مثل قوانين نيوتن ومبدأ النسبية. ومن ثم فإن هدف كل علم هو دفع قوانينه وأفكاره لتستقر داخل تلك الدائرة الآسرة.

وإذا تحركنا بعيداً عن المبادئ الجوهرية التي تمثل منطقة القلب، دخلنا ما يشبه المنطقة الرمادية، حيث الأفكار لا تزال في دور الاختبار، حيث لا تزال موضوعاً لسبر حقيقتها كما يمكن أن يُقال. أرى هذه أشبه باللحاء الخارجي للشجر. وإذا تحركنا أبعد من ذلك فسوف نصل إلى منطقة مثيرة حيث النمو عملية جارية، حيث الأفكار الجديدة تولد وتذوي وتموت في صراع وجود فكري هائل. وأرى هذا أشبه بمنطقة ما بين القلب واللحاء أو ما تحت لحاء الشجرة، وهو المكان الذي تتم فيه فعلياً عملية إنتاج أو نمو الخشب الجديد.

ونقول إن الجانب الأعظم من البحوث الأساسية يتم إلى حد كبير في هذه المنطقة، حيث تظفر على السطح ظواهر جديدة كل يوم، ويكون كل ما يظهر عرضةً للاقتناص. إنه نطاق مثير للعمل، وليس لنا أن ندهش من أن العلماء يتناقشون بشراسة لاقتناص الأماكن القليلة نسبياً المتاحة هناك على الحافة. وهذا هو أيضاً المكان الذي تبدأ منه عملياً جميع القصص التي تحكي أبناء العلم والذي يفضي أحياناً إلى مشكلات. مثال ذلك إذا كان مصدر الاتصال الوحيد بالعلم هو مصادر الأنباء هذه، وهو الموقف الذي تصفه الأغلبية العظمى من أبناء المجتمع، فإننا على الأرجح سيتكون لدينا انطباع بأن المعارف العلمية نتاج لا يعرف الاستقرار، إذ ما النتيجة الأخرى التي يمكن أن نخلص إليها إذا رأينا نتيجة ما اختصتها العناوين الرئيسية، كحدث مدوّ اليوم لا

لشيء سوى أنها تناقض نتائج أخرى، ثم نرى العناوين الرئيسية في اليوم التالي تهلل لنتائج أخرى مناقضة؟

جاء حين من الزمن كانت المهمة الرئيسية للعلم هي محاولة إقناع طلابه بأن العلماء لا يحيطون بكل شيء علمًا، وأنه لا تزال هناك مساحات شاسعة من الجهل خارج نطاق ما هو معروف. ولكن بسبب الأبناء الشائعة تحولت مهمتنا لتصبح محاولة إقناع جيل جديد من الطلاب بأن العلماء يعرفون شيئًا ما. وإذا تأملنا التناظر بين المعرفة العلمية والشجرة النامية نرى أن الجيل السابق من الطلاب ركز جهده على خشب القلب الصلب في جذع الشجرة، ولم يكن واعيًا بطبقة النسيج الخلوي الواقعة بين اللحاء وخشب الشجرة (الكامبيوم). هذا بينما الطلاب اليوم يظنون أن الكامبيوم هو كل ما هناك ولا شيء غيره.

نتائج البحوث الأساسية

تتمركز البحوث الأساسية عند حافة الفهم الضبابية وعلى السطح البيئي المتداخل بين المعرفة والجهل. وتماثلًا مثلما كانت حال فاراداي، حيث لم يكن باستطاعته التنبؤ بنتائج بحوثه وأثرها في الرابطة بين الكهرباء والمغناطيسية، كذلك نجد حال العلماء اليوم إذ نراهم في أغلب الأحيان في حيرة، عاجزين عن أن يقدموا أكثر من تنبؤات شديدة العمومية عن المصير الذي ستفضي إليه أعمالهم. وهكذا فإن إحدى خاصيات البحوث الأساسية هي الصعوبة الأصلية في التنبؤ بالنتائج والآثار المحتملة مسبقًا.

ولنأخذ مثالًا، مجال فيزياء الجسيمات الأولية التي بدأت بها حياتي العملية. يتخصص هذا المجال في أكثر أنواع البحوث أساسية، ويشتمل على طبيعة المكونات الأولى للمادة والطاقة. وتكلف البحوث في هذا المجال أموالًا طائلة، إذ تستلزم توافر مسرعات ضخمة تصل تكاليفها إلى في جنيف أن يستكمل CERN بلايين الدولارات. واستطاع اليوم المركز الأوروبي للبحوث النووية ويحدو. Large Hadron Collider (LHC) **(*****)** «ببراعة آلة تُسمى «صادم الهادرون الضخم العلماء أمل كبير بفضل هذا الجهاز في التوصل سريعًا إلى فهم المكونات الأولية التي تألف منها الكون. ومثلما استطاع فاراداي وزملاؤه أن يحققوا اختراقًا بالوصول إلى فهم طبيعة الكهرباء والمغناطيسية، كذلك يأمل العلماء المحدثون في إنجاز فتح علمي بفضل فهم المادة

عُرفت التجربة باسم اصطدام الهادرون الضخم، وهي محاكاة لـ«الانفجار الأعظم» الذي يُعتقد أنه مصدر لنشأة **(*****)** الكون. وفي سبتمبر 2008 واجه الآلة خللًا تسبب في تعطيل تشغيلها، واستلزم إصلاحه 14 شهرًا، ليتم بعدها إطلاق التجربة

بنجاح في 20 نوفمبر 2009. [المحررة]

إلى أين سيقودنا هذا؟ لا سبيل أمامنا على الإطلاق لكي نعرف. بيد أننا نستطيع أن نتأمل أن المادة والطاقة مترابطتان، $E = mc^2$ ونخمن قليلاً. ونحن نعرف من معادلة أينشتاين الشهيرة لذلك يمكن أن تكون إحدى نتائج فهمنا لطبيعة المادة معرفة مصادر جديدة للطاقة لتكون قوة دفع جديدة للمجتمع. هل بوسعي أن أضمن أن هذا هو ما سوف يحدث؟ طبعاً لا. كل ما أستطيع أن أقوله إن قانون تيفيل صدق وحققت نتائج دائماً في الماضي، لذلك فإن الناس، على مدى قرن من الآن، سينظرون من دون شك إلينا مثلما نحن ننظر الآن إلى فاراداي ورفاقه وندهش بالتغيرات الهائلة التي أحدثوها في ظروف حياة البشرية.

وليسمح لي القارئ بأن أعرض مثلاً توضيحياً شخصياً أخيراً عن الطريقة التي غالباً ما يقلل بها المشتغلون بالبحوث الأساسية من الآثار المحتملة لأعمالهم. أسعدني الحظ كثيراً إذ كنت طالباً للدراسات العليا في ستانفورد خلال ستينيات القرن العشرين. وقتما كان آرثر سكاولو، الذي حاز جائزة نوبل فيما بعد، عاكفاً على تطوير جهاز يمثل قمة العصرية اسمه ليزر، وذلك في معمل في الطابق السفلي في بناية الفيزياء. ويتميز سكاولو بأنه إنسان ضخم البنية، مرح، يفيض بهجة، إذ يتناول الغداء مع طلابه في مكان العمل. وأذكر جلسة وجّه له فيها أحد الحاضرين سؤالاً عن جدوى جهازه خارج نطاق البحوث الأساسية. تفكر لحظة ثم أعرب عن اعتقاده أن من المحتمل استخدام الليزر لصنع أداة محسنة لتصويب الأخطاء الواردة في الآلات الكاتبة الكهربائية.

وأريد أن أتدخل هنا وأوضح أن هذا لا يعني أننا لا نستطيع اتخاذ قرارات عقلانية بشأن تمويل وإدارة وتوجيه البحث الأساسي. فإن هذا هو ما تفعله دائماً وأبداً الوكالات الفيدرالية والشركات الخاصة. إنك إذا أردت معلومة محددة (مثل بعض خصائص إحدى المجرات البعيدة) فإن بالإمكان على الأرجح تصور وسيلة لذلك. وجوهر الأمر أننا لا نكاد نحصل على المعلومة حتى نكون في الأغلب الأعم غير قادرين على تخمين التغيرات التي يمكن أن تفضي إليها هذه المعرفة أخيراً في حياة البشر.

وهكذا يمكن القول إن البحوث الأساسية تجري في الأغلب من دون رؤية واضحة تتنبأ بالنتائج النهائية التي يمكن أن تفضي إليها. ونجد من ناحية أخرى أن المبادئ الأساسية الكبرى التي تشكل القلب بالنسبة إلى العلم هي نتائج البحوث الأساسية التي أنجزتها الأجيال السابقة من العلماء في الماضي. يبدأ كل منها كومضة مصباح كهربى تومض في رأس العالم كأنها فكرة

أخرى على حافة المجهول. وطبيعي أن استحضر الفكرة من على الحافة إلى مكان القلب هي مهمة أخرى من مهام البحوث الأساسية، وقد تبدو أقل سحرًا ولكنها يقينًا تعادلها مكانة وشأنًا.

أخيرًا فإنه، التزامًا بالاختبار الدائم أبدًا الذي تخضع له بالضرورة الأفكار العلمية، هناك عدد قليل من العلماء ذوي المكانة والجسارة المشغولين دائمًا بمحاولة إثبات زيف أو على الأقل الحد من المبادئ الأساسية الكبرى التي تمثل القلب. ويتصف هذا الإجراء بعمامة بأنه عالي المخاطرة عالي الجزاء. ونقول أخيرًا إن الأسباب التي من أجلها احتلت هذه المبادئ الأساسية مكان القلب هي أنها صمدت أمام الاختبارات التي أجرتها أجيال العلماء. ولكن ثمة توقعًا دائمًا باحتمال بيان خطئها في المجالات التي لم يتسنَّ اختبارها فيها. ونذكر كمثال قانونًا بعينه. قانون نيوتن عن الجاذبية. ربما اختُبر حتى خمس خانات عشرية، ولكن ربما يكون هناك جديد في الخانة العشرية السادسة. وربما اختُبر داخل نطاق المجموعة الشمسية ونطاق المعمل، وليس على نطاق أميال. وأعود لأقول هناك دائمًا إمكانية لأن يكتشف شخص ما شيئًا جديدًا. (تمثل عمليًا كل من هاتين الحالتين محاولات إثبات زيف القانون والتي انتهت بإثبات صدقه، ومن ثم أدت في الواقع إلى سد الثغرة القائمة في معرفتنا). وجدير بالإشارة أن المبادئ الأساسية الوحيدة التي تحتل القلب ولا تزال تخضع لعمليات اختبار قوية هي تلك التي تشتمل عليها نظرية أينشتاين عن النسبية العامة. وسبب ذلك أن اختبار النظرية يمثل تحديًا تقنيًا. ولكن خلال العقود القليلة الأخيرة فقط تقدمت أدواتنا المستخدمة في البحث بحيث أصبحت بعض الاختبارات ممكنة.

ولنا أن نقول ختامًا إن البحوث الأساسية يمكن أن نجدها في جميع ألوان الطيف للنشاط العلمي. إنها مصدر توليد أفكار جديدة عند الحدود الفاصلة، وتختبر وتتفحص تلك الأفكار على مدى الزمن، وتستمر في عملية الاختبار حتى لأكثر المبادئ الأساسية قدسية. وبعد أن فرغت من هذا، أكرر أن الأغلبية العظمى من البحوث الأساسية جرت وتمت عند الحدود الفاصلة؛ أعني حيث يكون الفعل والنشاط العملي فهذا هو المكان الذي تقضي فيه الأغلبية العظمى من البحوث الأساسية وقتها. ويعكف طاقم صغير على عملية تطوير واختبار الأفكار، كما أن بضعة علماء من ذوي القدرة والجسارة يقضون حياتهم العملية بحثًا عن ثقب تشوب الأفكار موضع التسليم. وإن الخيوط الممتدة والتي تسري عبر كل هذا العمل هي: (1) نقص في المعارف التفصيلية (وغالبًا نقص في الاهتمام) عن المصير والنتائج التي سيفضي إليها هذا العمل في الحياة العملية؛ و(2) رغبة في دفع حدود المعرفة إلى أبعد مما هي عليه بغض النظر عن الجدوى العملية للنتائج.

وهنا يصبح السؤال ما يلي: كيف تُفضي هذه البحوث إلى النتائج التي تُغيّر العالم والتي كنا نتحدث عنها؟

البحوث التطبيقية: التأهب

تشتمل قوانين الطبيعة على سلسلة طويلة ممتدة من المبادئ الأساسية الكبرى الشاملة المشتركة بين جميع العلوم وصولاً إلى النتائج التفصيلية التي يمكن أن تنطبق على فكرة أو حالة وحيدة فقط. بيد أن القوانين بذاتها نادرًا ما يمكن تطبيقها مباشرة على حاجة بشرية محددة بعينها، إذ يتعين بذل بعض الجهد لنقل شيء ما من المعمل إلى الموضوع المحدد الذي يمكن استخدامه فيه. وهذه هي مهمة البحوث التطبيقية.

وعلى الرغم من أنني ساهمت في عدد محدود من مشروعات البحث التطبيقي خلال حياتي العملية، فإنني قررت الحصول على رؤية مهنية واقعية من جيف نيوماير. وهذا إنسان عاش حياة عملية طويلة و متميزة يدير خلالها البحوث في شركة كبرى معنية بتكنولوجيا الفضاء. وجيف، بالإضافة إلى أنه صديق العمر، هو أيضًا أول طالب أشرفت عليه لإعداد درجة الدكتوراه في جامعة فرجينيا.

قال جيف: «يوجد أساسًا موقفان... ثمة مواقف تكون التكنولوجيا موجودة تعمل والناس لديهم مشكلات يمكن للتكنولوجيا حلها. وهناك مواقف تكون فيها مشكلة محددة بدقة تستلزم حلًا تكنولوجيًا». ووفق رأي جيف تتألف المهارة الحقيقية في إدارة البحوث من وضع فريقين متميزين من الناس معًا. هناك من ناحية العلماء والمهندسون المعنيون بتطوير تكنولوجيات جديدة، وهناك من الناحية الأخرى رجال التسويق والدعاية المعنيون بنجاح مشروع بعينه. ولا غرابة في أن الإفادة بالمبادئ الأساسية الكبرى للعمل في حل مشكلات واقعية عملية تتضمن قدرًا من أسلوب الإدارة ومهارة الناس بالقدر نفسه اللازم من الخبرة التكنولوجية.

وطلبت من جيف أن يعطيني مثالًا يوضح لي كيف أن حل مشكلة عملية من شأنه أن يقود العلماء إلى التعامل مع القوانين الأساسية للطبيعة. أطرق لحظة يفكر ثم قال «التصغير». إذا تأملت الأجهزة الإلكترونية الحديثة فستدرك أنها أصبحت أصغر فأصغر مع مرور الزمن. إنني حين بدأت استخدام «الكمبيوتر» لأول مرة في المدرسة الابتدائية على سبيل المثال، كانت الأجهزة ماكينات ضخمة الحجم بحيث تشغل غرفًا عديدة وتستلزم فريقًا صغيرًا من المساعدين

لصيانتها وتشغيلها. ولكن هذه الأجهزة أودعت المتاحف الآن وكانت قدرتها الحاسوبية أقل من جهاز اللاب توب الذي يزن ثلاثة أرطال وأكتب عليه هذه الكلمات

أو لتأمل الهاتف الخليوي. كانت الهواتف الأولى في ثمانينيات القرن العشرين في حجم قوالب الآجر المستخدمة في البناء. وجزء من الاستمتاع بمشاهدة إعادات لبرامج تلفزيونية قديمة هو رؤية الناس يستخدمون هذه الأجهزة الضخمة بأشكالها الفجة. ودخلت هذه الأجهزة نطاق الحنين إلى الماضي وحلت محلها هواتف تتلاءم جيداً مع راحة اليد، علاوة على إمكانية استخدامها لالتقاط صور وربما تحسب قيمة الضرائب على الدخل الخاص بك. ووضحت لي أخيراً عملية التقدم السريعة في تصغير أحجام التكنولوجيا حين وصلتني دعوة بالبريد الإلكتروني (الإيميل) لحضور حفل يحتفي بالثمانينيات ويعرض مشروباً مجانياً لمن يحضر ومعه أحد تلك الأجهزة القديمة.

وليسمح لي القارئ بانعطافة تقنية بسيطة هنا بغية البحث عن المشكلات العلمية التي تطرحها عملية التصغير. المجال موضع النظر هنا هو ميكانيكا الكوانتم التي هي دراسة سلوك حركة الجسيم على المستويين الذري وما دون الذري. وكما ذكرت آنفاً تم استحداث هذا العلم في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين في صورة تمرين في مجال البحوث الأساسية. ولكن بحلول العام 1947 أسس ثلاثة علماء أول ترانزستور، وهم والتر براتين وجون باردين ووليام شوكلي. وهذه هي أداة العمل الأساسية للحواسيب الحديثة، بل وجميع الإلكترونيات الحديثة في الحقيقة. واقتسم الثلاثة جائزة نوبل العام 1956 من أجل هذا الاختراع. وواقع الأمر أن باردين هو الشخص الوحيد الأحق بجائزتين من جوائز نوبل في الفيزياء (الثانية العام 1972 لاستحداث نظرية الموصلات الفائقة).

بدأ أول جهاز ترانزستور في شكل فج وفي حجم كرة الجولف. ولكن مع مضي السنين أصبحت أجهزة الترانزستور أصغر فأصغر، بعد أن تحسنت وتقدمت -أكثر فأكثر- قدرة العلماء والمهندسين على تنظيم الذرات التي تُصنع منها هذه الأجهزة. وسار التقدم عملياً وفق ما يسمى وينص هذا القانون Intel. قانون مور اقتداءً بالعالم جوردون مور، أحد مؤسسي شركة إنتيل (الذي يعتمد أكثر على الملاحظة) على أن كل خاصية من خصائص الحواسيب (الحجم والقوة الحاسوبية والذاكرة وغير ذلك) سوف تتحسن خلال 18 شهراً لتصبح ضعف حالتها الراهنة.

ويبدو أن هذا القانون صدق على حجم التجهيزات الإلكترونية إلى حد أن جهاز الحاسوب أو الهاتف الخليوي قد تكون فيه مئات الآلاف من الترانزستورات فوق شريحة بحجم طابع بريد.

بيد أننا إذا التزمنا بقانون مور لنصل إلى نهايته المنطقية فسوف ندرك قبل مضي زمن طويل أن حجم الترانزستورات سوف ينكمش ويتقلص لتصبح في حجم الذرات (وهذا متوقع أن يحدث عملياً نحو العام 2020). وواضح أن هذا سيتحول إلى أزمة من نوع ما، وهي أزمة بدأت تلوح في مجال العمل لتصغير الأجهزة الإلكترونية، إذ كمثال ما معنى أن يملك المرء تياراً كهربياً يسري في جهاز له أبعاد الذرة بينما أبعاد جسيمات التيار هي نفسها مثل أبعاد السلك الذي يسري فيه التيار؟

ولكي نفهم هذه المشكلة من وجهة نظر العالم دعنا نفكر في شيء مادي عادي في حياتنا، وليكن الورقة التي نطالعها الآن. إن جميع ذرات الورقة محاطة عملياً بذرات أخرى. وتوجد فقط نسبة مئوية ضئيلة جداً عند حافة الورقة. لقد تمت دراسة جيدة لسلوك الذرة المحاطة بذرات أخرى وهي جزء من المتاع العلمي لميكانيكا الكوانتم. ولكن حيث إن مكونات الأجهزة الإلكترونية يصغر حجمها باطراد لتكون أصغر وأصغر، فإن النسبة المئوية من الذرات عند الحافة ستبدأ في الزيادة، ونلاحظ في الحقيقة أننا باقترابنا من الحد الذي يبينه قانون مور، فإن جميع الذرات ستكون قرب الحافة، ومن ثم يتوقف تطبيق النتائج المعيارية لميكانيكا الكوانتم

معنى هذا أن العلماء عليهم أن يشرعوا في استكشاف نظام جديد، نظام يشتمل على منظومات تتألف من أعداد صغيرة من الذرات. وإذا كان بعض هذا العمل يدخل بوضوح تحت عنوان البحوث الأساسية فإن قدرًا كبيرًا لا يندرج تحت هذا العنوان. وإن من الأهمية بمكان أن نفهم أن هذا النوع من البحوث ليس هو النوع الذي قاد الباحثين أولاً إلى قوانين ميكانيكا الكوانتم، إذ إن تلك القوانين تصدق على منظومات فيها أعداد صغيرة من الذرات وكذا على منظومات فيها عدد كبير واستقاها العلماء عند البحث عن قوانين تحكم سلوك المادة في كل حالاتها. وتتمثل المشكلة في أن نأخذ تلك القوانين (وحرى أن نتذكر أنها نتاج بحوث أساسية) ونطبقها في مجال لم يسبق للإنسان أن فكر فيه. أعني مجال منظومات تشتمل على ذرات قليلة فقط.

وكما هي الحال في أي نشاط بشري نجد أحياناً أن من الصعب رسم حد فاصل بشكل صارم بين البحث التطبيقي والبحث الأساسي. ولكن في هذه الحالة التي نحن بصددتها إذا تضمن البحث النظر في مواد وأجهزة بعينها داخل معمل صناعي، وإذا كان الباحثون مهتمين بحل مشكلة

بعينها وليس اكتشاف قوانين عامة، فإننا هنا نكون في وضع آمن تمامًا حين نصنف هذا العمل باعتباره بحثًا تطبيقيًا. وأحسب أننا في مكان ما من هذه العملية يمكننا التحدث عن التحول من العلم إلى التكنولوجيا.

وطبيعي أنه لا يكاد العلماء والمهندسون التطبيقيون ينجحون في حل المشكلات التقنية الفاصلة بينهم وبين هدفهم المنشود حتى تبدأ نتائجهم في التحول إلى جهاز نافع وعملي. وهذه الخطوة الختامية في سلسلة البحث نسميها التطوير.

التطوير: العائد

أول شيء ندركه بشأن مرحلة التطوير لأي مشروع هو أن المعايير غير العلمية تبدأ هنا ولأول مرة في أن يكون لها دور مهيم. إن العلماء والمهندسين يمكن أن يطوروا سبيكة مذهشة لصناعة هيكل سيارة، ولكن إذا كان استخدام هذه السبيكة من شأنه أن يضاعف سعر السيارة، فإن الاحتمال الأكبر أن السيارة لن تجد سوقًا واسعة للاستخدام. معنى هذا أن العامل غير العلمي وهو هنا التكلفة أصبح له دور. وتوجد معايير أخرى مماثلة: الكفاءة والحجم والوزن ويسمى أحيانًا البحوث) (لنتذكر هنا المركبة الفضائية) والمتانة والتحمل. ووظيفة التطوير هي استبيان أن التطبيق النهائي لنتائج المبادئ العلمية يتمثل في منتج يؤدي (R & D) والتطوير الوظيفة التي يتوقعها الناس.

وحين أردت أن أستشعر كيف يعمل هذا النوع من التكنولوجيا توجهت بالحديث إلى روبرت بلونسكي، مدير شركة فيرو كوربوريشن. وهذه الشركة مورد كبير لأنواع خاصة من الكيماويات اللازمة للصناعة. وعلاوة على أن بوب صهري، فإنه أيضًا حوّل رسالته لينال درجة الدكتوراه من دكتوراه في علم المواد إلى مهنة متميزة في التطوير، وهي مهنة تشتمل على الأقل على عشر براءات اختراع. وجدير بالذكر أن بوب، وهو رجل ضخم جاد، لا يحب شيئًا أكثر من أن يسترخي في جلسته ويرشف بعضًا من جعته ويطيل الحديث عن الأصباغ.

الأصباغ

نعم الأصباغ. قد يبدو للوهلة الأولى أشبه بحديث غريب في كتاب عن العلم. بيد أنني أدعوك لكي تتطلع حواليك. كم عدد الأشياء التي تراها حولك بألوانها الطبيعية؟ الاحتمال الأكبر أن الأغلبية العظمى من الأشياء التي يقع عليها بصرك مصبوغة أو مدهونة أو ملونة بشكل أو

بآخر. معنى هذا أنها جميعاً عولجت بالأصباغ. أصبح اللون عاملاً غاية في الأهمية في حياتنا. ونعرف أن البشر تطوروا كرنسيات، وهو ما يعني أن الرؤية البصرية تمثل الأساس. وهذا هو السبب في أننا نقول: «أنا أرى» حين نريد أن نقول: «أنا أفهم». ونحن البشر استخدمنا منذ زمن إنسان النياندرتال عمليات تلوين اصطناعية لتزيين أنفسنا والأماكن المحيطة بنا.

ولكن ثمة مسافة طويلة جداً فاصلة بين تلك الرسوم الزيتية البدائية غير المتقنة وبين الأصباغ الحديثة. تطورت الأصباغ من أجل استعمالات كثيرة، وليس استخدامها للزينة غير استعمال واحد. مثال ذلك أن المرء حين يدهن بيته ينتقي لوناً يكسب البيت جمالاً، ولكنه يتوقع أيضاً أن يؤدي الدهان إلى حماية البيت من الطقس. ويتوقع كذلك أن يلتصق الدهان جيداً بالجدران الخارجية، إذ لا يريد له أن يتقشر خلال بضعة أسابيع. وهكذا ينتقل المرء سريعاً من الحكم على الدهان من حيث اللون إلى الحكم عليه من حيث خصائص أخرى؛ التحمل والبقاء والثبات في هذه الحالة، ولنفرض أنك تريد أن يلتحم الدهان بجسم طائرة حال اختراقها حاجز الصوت، أو لنفترض أنك تريد دهاناً يخفي الطائرة ولا يكتشفها رادار الأعداء، أو تريد لوناً عميقاً من نوع الألوان التي نراها في السيارات الحديثة. واضح أننا لن نحصل على هذه الأنواع من الدهانات عن طريق طحن بذور وثمار ملونة. وها هنا يبدأ دور عملية الاستحداث والتطوير.

وحين سألت بوب عن حال التطوير وكيف يتم هذه الأيام، كان رد فعله مهماً للغاية. قال: «تغيرت الأمور على مدى السنوات الثلاثين الأخيرة». واستطرد موضحاً كيف أن أغلبية الشركات الكبرى هذه الأيام لا تتولى إنجاز بحوثها الأساسية اللازمة لها: «إذ في الأيام السابقة كانت الشركات الكبرى لديها معامل بحوث تشبه تلك التي في الجامعات. ولكن اليوم كل شيء يبدأ وفقاً لاحتياجات السوق. وإن إدارات البحوث والتطوير أضحت بشكل أساسي إدارات لا مركزية، واندماج التكنولوجيا في فرق تطوير الإنتاج». حقاً إن هذه الفرق في بعض الشركات تضم اقتصاديين وظيفتهم توقع احتياجات السوق مستقبلاً. ويوضح بوب أن هذا النظام الذي يبدو غريباً تماماً على العلماء الأكاديميين أثبت نجاحاً هائلاً وأنتج كل أنواع ما يسميه «الحشو»؛ أجهزة تلفاز بلازما، وهواتف خلية، وجميع تجهيزات ومستلزمات الحياة الحديثة.

ولكن أليس التركيز على تطوير المنتج يمنع الشركات من التخطيط على المدى الطويل؟

أجاب بلونسكي: «توجد ثلاثة مستويات للتخطيط. أفق (1) ويتعلق بالأشياء المطلوبة الآن. أفق (2) يتعلق بالأشياء التي سنحتاج إليها في خلال العامين أو الأعوام الثلاثة المقبلة، وأفق

(3) ويتعلق باحتياجات من 3 إلى 5 سنوات. ويلاحظ أن شركات قليلة جدًا هي التي تضع خطة جادة تتجاوز سبع سنوات. ونرى أساسًا أنه إذا ما ظهرت تكنولوجيا جديدة وقررنا أننا في حاجة إليها، فإن في استطاعتنا إما أن نحصل على ترخيص بانتاجها أو أن نشترى الشركة المالكة لها مباشرة.

نقول بعبارة أخرى، يبدو أن قسمًا للعمل نشأ وكبر في عالم التطوير. إن الأفكار الجديدة وكذا التكنولوجيات الجديدة، وهي في الحقيقة الطرف النهائي لعملية البحوث التطبيقية وجوهر التطوير، تحققها في الأساس شركات صغيرة ناشئة، وغالبًا ما تنبثق عن بحوث جامعية، وتفحص الشركات الكبرى هذه التقنيات وتمتلكها وفق حاجتها لإنتاج سلع بعينها.

استنكر العلماء الأكاديميون منذ زمن طويل انصراف الشركات الكبرى عن مهمة البحث، ولكن يبدو أن النظام المعمول به يمضي بنجاح. إن الشيء اليقيني هو أننا لا نعاني ندرة في الأفكار الجيدة. وأوضح بلونسكي أنه مع صباح كل يوم من أيام الثلاثاء ينشر مكتب براءات الاختراع في الولايات المتحدة نحو 3500 براءة اختراع جديدة. وينشر بالإضافة إلى ذلك كل خميس أكثر من 6000 طلب للحصول على براءات اختراع. وقال مداعبًا: «عليّ أن أصحو مبكرًا في الصباح حتى أحصل على مكان لي في الطابور قبل أن يشتد الزحام».

علاوة على هذا غالبًا ما تمتلك الشركات الكبرى رأس المال والخبرة اللازمين لإنتاج وإنجاز أفكار جديدة. مثال ذلك أنه بعد أن طورت شركة فيرو تقنية لإنتاج أنواع جيدة من مساحيق الطلاء أدرك علماءها أن هذه التقنيات نفسها يمكن استخدامها لإنتاج أنواع جديدة من المنتجات الصيدلانية. ونتيجة لذلك اشترت الشركة مؤسسة صناعية صغيرة لصناعة المستحضرات الدوائية وحققت نقلة كبرى في مجال عمل جديد. وقال بوب: «السر الأهم هو أن تدعم بقوة».

«تكنولوجيتك بحيث تتابع حاجات السوق».

وحيث إننا في عالم يعتمد كثيرًا جدًا على تطوير تكنولوجيات جديدة للنمو الاقتصادي، لذلك فإن قسم استراتيجية العمل الذي عرضنا له سابقًا يعمل كما يبدو لنا وفق الهدف المرسوم له: الحفاظ على خط أنابيب الإنتاج ملآن. وطبيعي أنه هنا تقدم أخيرًا البحوث الأساسية والتطبيقية العائد الذي يتوقعه أغلبية الناس من العلم.

مانعة الصواعق: تاريخ حالة

إحدى المزايا العظيمة لتأمل الأمثلة التاريخية هي أننا نعرف، عند استرجاع الأمر، جميع الإجابات الصواب. وهذه ميزة لا يحظى بها ممثلو الدراما في الواقع العملي. لذلك فإنني ابتغاء توضيح خط أنابيب البحوث العظيم الذي يفيض من البحوث الأساسية إلى البحوث التطبيقية ثم منها إلى تطوير المنتجات، سوف أتخذ مثالا من أقدم الأمثلة من حيث تشغيله والإفادة به. أعني هنا استحداث وتطوير مانعة الصواعق. ويحظى هذا المثال بميزة إضافية هي أن جميع الخطوات الحاسمة في عملية التطوير اتخذها الشخص نفسه، وهو بنيامين فرانكلين.

اعتاد فرانكلين، شأن كثيرين من أبناء عصره، التنقل في مناطق عديدة ومختلفة. واشتهر بطبيعة الحال نظراً إلى دوره في تأسيس الولايات المتحدة. ولكنه مثل صديقه الأصغر توماس جيفرسون له بدايات كثيرة جداً ارتبطت باسمه حتى إننا اليوم ونحن نعيش في عصر أكثر تعقداً، لا يسعنا إلا أن نبدي إعجابنا باتساع نطاق مساهماته. لقد أسس أول مكتبة عامة على أساس الاشتراك، وأول شركة للإطفاء، وأيضاً الجمعية الفلسفية الأمريكية وهي أول جمعية علمية في العالم الجديد. حقق هذا كله بعد أن فرغ من بناء مشروع أعمال ناجح لحياته العملية كصاحب مؤسسة طباعة. وكان مخترعاً موهوباً وعمل بإصلاح الأجهزة المنزلية، وأنتج كلاً من العدسات ثنائية البؤرة وموقد فرانكلين، علاوة على كثير جداً من الاختراعات الأقل شهرة من بينها، ولك أن تصدق أو لا تصدق، زعانف السباحة.

وفي أواخر أربعينيات القرن أصبح فرانكلين رجل أعمال راسخ القدمين، ولديه وقت فراغ ليحوّل اهتمامه إلى العلم. حدث هذا في الوقت الذي بدأ فيه تطبيق المنهج العلمي على ظاهرة الكهرباء (واشتهر المشتغلون بهذا البحث باسم «الكهربائيين» على سبيل الدعاية). وأثار اهتمام فرانكلين بالموضوع استماعه إلى حديث قدمه محاضر بريطاني. وحدث أن أهدى البعض مكتبته بعضاً من الأجهزة الكهربائية، ومن ثم بدأ في العمل على تحسينها. وكانت الوسيلة الوحيدة وقتذاك لتوليد شحنة كهربية هي حك مادتين إحداهما بالأخرى، أساساً قطعة زجاج مع نوع من الجلد أو القماش. وأنشأ فرانكلين جهازاً فيه أسطوانة زجاجية ضخمة تدور وتحكك بقطع من نسيج صوفي. واستطاع هذا الجهاز توليد شحنة ضخمة مصحوبة بشرارات كثيرة مثيرة عند تفريغها.

ويمكن ربط هذا بخبرة شائعة. هل حدث أن مشيت فوق سجادة كثة سميقة في يوم جاف، وحين لمست مقبض الباب أحسست بشرارة صغيرة تقفز من يدك إلى ناحية الباب؟ هذا تصوير

مصغر لنوع الشيء الذي رآه فرانكلين وغيره من «الكهربائيين» في أجهزتهم. أدرك فرانكلين أن الشرارة وما يصحبها من فرقة مسموعة هي شيء مماثل للبرق، حيث الشرارة تؤدي دور صاعقة البرق والفرقة تناظر الرعد.

حتى هذه اللحظة كان فرانكلين مشغولاً بالبحث الأساسي. ما خصائص التفريغ الكهربائي، وهل يرتبط بالبرق؟ ونذكر تجربة الطائرة الورقية الشهيرة عندما اعتاد هو وابنه قذف طائرة ورقية للتخليق في الهواء في أثناء عاصفة رعدية، ولاحظا شرارات تقفز من مفتاح عند الطرف النهائي لحبل. وكانت هذه محاولة للتحقق تجريبياً من تطابق البرق والكهرباء وأنهما شيء واحد.

ولكي نفهم ما حدث بعد ذلك علينا أن نعرف شيئاً عن أخطار البرق في المدن المتنامية في القرن الثامن عشر، إذ كانت صواعق البرق وقتذاك مصدر حرائق مدمرة، خصوصاً في أمريكا حيث الأبنية أغلبها من الخشب. لم يكن مفهومًا آنذاك سبب البرق، وظن الناس أنها أفعال من إرادة الرب بكل ما تعنيه هذه الكلمة.

وأدى الجهل أو عدم المعرفة إلى نشأة كل أنواع الأساطير، وكان لبعضها عواقب مهلكة. مثال ذلك أنه في العام 1767 قررت سلطات فينيسيا «أن من الفسق ادعاء أن الرب سيسمح للبرق بأن يصعق إحدى الكنائس»، ولذلك عمدوا إلى تخزين البارود في قبة إحدى الكنائس. وحدث أن ضرب البرق برج الكنيسة (وهو هدف مغرٍ من دون منازع) وأدى الانفجار الذي وقع إلى قتل آلاف البشر ومحا من فوق الأرض ضاحية بأكملها من ضواحي المدينة.

ونعرف أن الاعتقاد بأن الكنائس محصنة ضد البرق كان شائعاً على نطاق واسع حتى إنه ساد الظن في فرنسا أن أفضل وسيلة لتجنب صواعق البرق أن يصعد شخص إلى برج الكنيسة ويدق أنا أبدو) Fulgura Frango الأجراس. ونذكر للحقيقة أن بعض الأجراس منقوش عليها عبارة ولا حاجة بنا إلى القول إن هذا الاعتقاد تسبب في مصرع كثيرين ممن سعدوا لدق. (البرق الأجراس. وكم هو عسير أن نتخيل مكاناً أسوأ من برج الكنيسة حال صاعقة برقية

اكتسب فرانكلين حتى هذه اللحظة فهماً واضحاً لطبيعة الكهرباء، وأصبح واعياً بحاجة المجتمع الملحة للحماية من صواعق البرق. ونجد أن ما تلا هذا تقدم سريع على طريق البحث التطبيقي والتطوير من أجل إنتاج مانعة الصواعق.

أول سؤال علينا أن نسأله في هذا الموقف سؤال بسيط: إذا كانت صاعقة البرق حقيقة فيضاً من شحنة كهربائية، فكيف إذن يمكن تجنبها وتحويلها بعيداً عن المباني؟ يستلزم هذا بعضاً من البحوث لدراسة المواد الملائمة لحمل تيارات كهربائية كبيرة. استقر رأي فرانكلين سريعاً على مادة الحديد، فهي مادة رخيصة ومتوافرة بكثرة. وطبيعي أن اكتشف هذه المادة مثال على البحث التطبيقي.

حدد فرانكلين الآن، عن يقين، المبدأ الأساسي لمناعة الصواعق: يمكن حرف اتجاه صاعقة البرق بحيث تتجه إلى الأرض عن طريق قطعة معدنية. ومن ثم فإن القضيب المعدني يوفر مساراً سهلاً تمر عبره الشحنة الكهربائية التي تكونت في السحابة الرعدية، وتصل إلى الأرض. واستقر على استخدام الحديد في جهازه. والسؤال الثاني (مرحلة التطوير) يتضمن الاهتداء إلى أفضل تنظيم يجعل الجهاز يعمل بنجاح. واستقر فرانكلين في النهاية على تصميم يشتمل على قطعة حادة من النحاس الأصفر يجري تركيبها عند رأس القضيب الحديدي. وإليك كلماته بنصها:

من نعم الرب على البشرية أن يكشف لهم سبل الأمان لمسكنهم وغير ذلك من المباني حتى يؤمنهم من كوارث الرعد والبرق. والطريقة كما يلي: هات قضيباً حديدياً صغيراً... طوله كذا، ويكون أحد طرفيه ثلاثة أو أربعة أقدام في أرض رطبة والطرف الآخر يمكن أن يكون ستة أو ثمانية أقدام فوق أعلى جزء في البناية. وثبت في الطرف العلوي من القضيب سلكاً من النحاس الأصفر بحجم إبرة الحياكة العادية بعد شحنها ليكون لها رأس مسنن... البيت الذي يتم تجهيزه بهذا الجهاز لن يدمره البرق(1)

ولم يكد فرانكلين يفرغ من اقتراحه حتى وجد أنه لم يبق أمامه سوى إنجاز بعض التطوير. مثال ذلك أن أثير في لندن سؤال عما إذا كان الأفضل استخدام سلك مسنن أم سلك غير حاد. (معروف لنا الآن أن السلك المسنن الحاد هو الأفضل). وأثيرت قضايا حول كم عدد القضبان اللازمة لحماية مبانٍ ضخمة وأفضل الطرق لتنظيم وصف مانعات الصواعق فوق السفن وغير ذلك.

ولكن ما هو أهم من التطورات التقنية طرق استجابة الأقطار المختلفة إزاء ابتكار فرانكلين الجديد. مثال ذلك أن بلداناً مثل إيطاليا تبنت الاختراع فوراً، بينما بلدان أخرى مثل إنجلترا كانت

استجابتها أبطأ، وبلدان ثالثة مثل فرنسا قاومتها. وأرى أن أسباب المقاومة شيء مثير للاهتمام، ذلك لأنني أراها صورة أخرى سابقة للاستجابات الحالية إزاء تكنولوجيات جديدة مثل الاستنساخ والهندسة الوراثية.

تركزت طائفة من الحجج على السؤال عما إذا كانت مانعات الصواعق تجعل الأمور حقاً أسوأ منها لو كان الأمر غير ذلك. واقترح بعض العلماء الإنجليز كمثال أن القضيب يتسبب عملياً في أن صاعقة البرق تتشكل في مواقف ما كان لها أن تتشكل لو لم يكن القضيب موجوداً. وصيغت في هذا الأسلوب نفسه بعض الحجج عن السلك المسنن بدلاً من السلك غير المسنن (ويمكن القول إننا اليوم نجد في هذه الحجة قدرًا من الصدق، بمعنى أن صاعقة البرق تتجه نحو القضيب، ولكن في حال عدم وجود القضيب فإنها ستضرب في مكان آخر).

وقدم بعض رجال فقه الإلهيات حجة أعمق تقول إن فرانكلين إذ يحرف اتجاه صاعقة البرق إنما يعترض عملياً على إرادة الرب. ويرون أن ابتكار فرانكلين أبعد من أن يكون نعمة من الرب للبشرية، بل هو كبيرة من الكبائر. ودأبوا على تقديم هذه الحجة مرات ومرات مع حركة تقدم العلم، مثال ذلك اعتراضهم بهذه الحجة نفسها على تقوية المناعة بالأمصال، وحيث إننا الآن نعيش في عصر يواجه العلماء فيه مثل هذا الاتهام وأنهم يحولون دون مشيئة الرب مع اطراد تطويرهم للتكنولوجيا الحيوية، فإننا لا نشعر بالقلق، إذ ندرك أن هذا رد فعل قديم ومحترم إزاء التغييرات التي تطرأ على أسلوبنا في التعامل مع العالم.

توجيه مسار خط الأنابيب

لا نكاد نفهم العملية التي يتم بها تحوُّل الأفكار العلمية إلى منافع ملموسة حتى يكون من الطبيعي لنا أن نسأل عما إذا كان بالإمكان توجيه مسار خط الأنابيب لإنتاج منتجات مرغوب فيها. مثال ذلك: كم مرة سمعت شخصاً ما يقول: «آه لو كان في مقدورنا الصعود إلى القمر، لماذا لا نستطيع...؟»؟ ويبين بعد ذلك أن الإجابة عن هذا السؤال رهن المرحلة التي يمر بها خط الأنابيب البحوث في أثناء حديثك.

ولكن قبل دخولي في هذا النقاش أريد أن أعلن إنكاراً تاريخياً. إن ما عرضته في صورة خط أنابيب بحوث؛ أي الحركة المنتظمة من البحوث التطويرية الأساسية ومنها إلى التطبيقية، هي صورة مثالية. إنها مثل المنهج العلمي الذي ناقشته في الفصل الأول، تعرض تبسيطاً لما هو في

الواقع العملي عملية مركبة. يحدث أحياناً أن تظهر أولاً عملية استحداث وتطوير التكنولوجيا لتتبعها بعد ذلك محاولة فهم أعمق. وخير مثال هنا القاطرة البخارية، إذ تصور هذا الوضع المعكوس. بيد أن إحساسي أن الأرجح اليوم أن تندفع النتائج الجديدة من خلال قناة البحوث الأساسية أكثر من أن تبدأ حركتها من التكنولوجيا، وبدا تسير وفق خط أنابيب البحوث الذي حددت مساره.

ويكون توجيه مسار جهود البحث يسيراً إلى حد كبير حيث نكون عند الطرف النهائي لخط الأنابيب، حيث مشروعات الأعمال التي نستخدم فيها نتائج البحوث الأساسية والتطبيقية لتطوير مستدير، (شريحة شفرات محمولة) widget منتج أو جهاز نافع. مثال ذلك إذا كان لديك ويدجيت وتريد إنتاج آخر مربع، فإن الاحتمالات القائمة أنك تستطيع إنجاز ذلك إذا توافر لديك القدر اللازم من المال والعمالة اللازمة. والمعروف أن ملايين المنتجات ابتداء من الطائرات حتى أدوات التجميل يتم ابتكارها سنوياً بهذه الطريقة تحديداً، أو لنقل بعبارة أخرى نحن عند هذا الطرف النهائي لخط الأنابيب يتهيأ لنا مستوى رفيع من السيطرة على ما نزمع إنتاجه.

وإذا ما تحركنا صاعدين إلى مجال البحوث التطبيقية، فسيصبح الموقف أقل يقيناً بقدر محدود. ولنا أن نأخذ مثلاً من برنامج أبولو الذي وضع أول إنسان على القمر. نذكر أنه حين أعلن الرئيس كينيدي عن هذا البرنامج كنا قد أنجزنا كثيراً جداً من البحوث الأساسية اللازمة لاستكمال المهمة. ولكن كان لا يزال متبقياً عدد ضخم من موضوعات البحث التطبيقي التي يلزم الانتهاء منها ابتداء من تطوير مواد مقاومة للحرارة، وحتى الدرع الواقية لسفينة الفضاء حال عودتها ودخولها ثانية إلى الغلاف الجوي، ووصولاً إلى إنتاج مراكز أغذية تكفل غذاء جيداً لرواد الفضاء في أثناء الرحلة. وواضح أن كل واحدة من هذه في حاجة إلى برنامج بحث تطبيقي خاص بها. وقد نجح كل منها في نهاية الأمر.

وجدير بالذكر أن إحدى النتائج غير المتوقعة لبرنامج أبولو هي ضخامة عدد المنتجات العرضية التي لم تكن في الحسبان وأمكن إنتاجها. وتوافرت بين أيدينا جميع المنتجات اللازمة لبرنامج الفضاء ابتداء من عصير البرتقال المركز أو البلاستيك اللازم للعجلات المستخدمة في جر أمتعتنا أو النصال ذات الأسطوانات الدوارة. وكثيراً ما يستخدم أنصار العلم هذا المثال للدلالة على العائد الذي يتحقق بفضل البحوث، وذلك عند المحاجة والدفع بضرورة زيادة التمويل اللازم للبحث العلمي.

ونلاحظ في الحقيقة أن هذه الحجة تمثل عملياً مصدرًا لاختلاف الرأي بيني وبين جيف نيومير. وكثيراً ما ننتازع الرأي عما إذا كانت أمثلة المنتجات العرضية جديدة بأن نستخدمها لتبرير تمويل البحوث. وتتمثل وجهة نظر جيف في أننا إذا أردنا إنتاج عصير برتقال مُركَّز، فنحن لسنا في حاجة إلى إنشاء سفن فضاء، إذ نقتع بإنتاج وتطوير العصير. بيد أن حجتنا أننا لا ندرك حقيقة أننا في حاجة إلى المنتج إلا بعد أن ننتجه. مثال ذلك أنني أشك فيما إذا كان برنامج التطوير للأمتعة استلزم إنتاج المادة اللازمة لصناعة العجلات الأسطوانية. وهذه واحدة من المشكلات التي يمكن أن تثار بين أصحاب التفكير المنطقي ويختلفون بشأنها. وعلى أي حال فإن القارئ أصبح على علم بوجهتي النظر في المحاجاة، وله أن يفكر هو ويحدد رأيه.

ولكن الذي لا ريب فيه أننا حين ننتقل من البحوث التطبيقية إلى الأساسية، فإن قدرتنا على التنبؤ والتحكم في المسار والمصير اللذين ستقودنا إليهما البحوث سوف تنخفض كثيراً. وواقع الحال أن هذا الانخفاض مثير جداً حتى إنه كان باستطاعتي أن أستخدمه كخاصية من بين الخصائص المميزة للبحث الأساسي. وأذكر مثلاً آخر للانتهاء المفاجئ لبرنامج حكومي يوضح لنا هذه الفكرة، وأقصد به الحرب ضد مرض السرطان. وإذا كان برنامج أبوللو يوضح كيف أن التدفق الكثيف للمال كان عاملاً نجاحاً لإنجاز برنامج البحث التطبيقي، فإن مثال الحرب ضد مرض السرطان (الذي استهله الرئيس نيكسون 1971) يوضح كيف أنه من غير السليم ولا الملائم أن نحاول عمل الشيء نفسه في البحث الأساسي.

ويستخدم مصطلح «السرطان» لتصنيف مجموعة من الأمراض تتصل بخاصية النمو غير المحكوم للخلايا. ونحن لكي نفهم هذا المرض ونسيطر عليه يلزم أن نفهم قدرًا كبيرًا غير متاح الآن من المعارف عن كيفية عمل الخلايا، وقدرًا أكثر يقيناً مما كنا نعرف العام 1971. واستهدف البرنامج من وجهة النظر السياسية استئصال شأفة المرض. وشاركت آنذاك في البحوث التجريبية على السرطان، ولم يكن هناك من بين العلماء، كما عرفت، من يؤمن بإمكانية تحقيق هذا الهدف. إننا ببساطة لم تكن لدينا معرفة كافية عن نظام وطريقة عمل الخلايا. على أي حال كانت هذه هي الحال قبل ربع قرن من بدء مشروع الجينوم البشري.

وطبيعي أن الحرب ضد مرض السرطان لم تحقق أي نتائج مهمة على نحو ما شاهدنا في برنامج أبوللو، وذلك لأن إنجاز هذه الأهداف كان يستلزم تحقيق تقدم كبير ومهم في المعارف الأساسية. وليس معنى هذا أن المشروع أخفق، إذ إننا خلال هذه السنوات اكتسبنا مزيداً من

المعرفة، وإني أرى أن مجال علاج السرطان يقف الآن على شفا إنجاز مهم ومثير خلال العقد المقبل. ولكن الحرب توضح مدى الصعوبة التي تنطوي عليها محاولتنا لتوجيه مسار تدفق البحوث الأساسية.

ونلاحظ أن الدوائر الأكاديمية تعرض أحياناً هذه القسمة المميزة للبحوث الأساسية كنوع من النقد المبالغ فيه للمجتمع العلمي، إذ من المفترض أننا، بشكل ما، ندرك أن بحثنا العلمي سيفضي إلى غاية شريرة (هي عادة تطوير الأسلحة)، ومن ثم علينا أن ننأى بأنفسنا عن ذلك. وإني أواجه عديداً من الصعوبات إزاء هذا النوع من الحجج. أولاً لا يسعني أن أرى خطأ في عملية تحسين الدفاع الوطني عن طريق العمل في مجال الأسلحة. وأذكر للحقيقة أنه خلال فترة عملي عملت في عدد من مجالات البحث المحظورة على غير العاملين فيها. ولكن ما هو أهم، حتى إن رأيت أن تطوير الأسلحة خطأ، أن ليس من سبيل للتنبؤ قبل أن يصبح العمل حقيقة واقعة، كيف سيتطور جزء من البحث الأساسي خلال حركته عبر خط الإنتاج وصولاً إلى مرحلة المنتج النهائي. واستجابة لأخلاقيات زملائي الأكاديميين المتشددة سيكون لزاماً علينا التوقف عن إجراء البحوث تماماً، وهو ما يعني التخلي عن كل خير يمكن أن يترتب عليها. وأقول ما قاله صديقي جوليان نوبل، عالم الفيزياء النووية بجامعة فرجينيا: «ليس الانسحاب حلاً لمشكلة البحوث بأكثر جولة. من كونه حلاً لمشكلة السكان».

صفوة القول أن النواتج المحتملة للبحث تصبح معروفة لنا أكثر فأكثر مع حركتنا عبر خط الأنابيب من البحوث الأساسية إلى التطوير. ونحن لكي نضمن أن خط الأنابيب مستمر في تقديم الناتج اللازم لدفع حركة المجتمع، نكون بحاجة إلى الحفاظ على جميع أجزائه سليمة. وأذكر أنه حين يسألني البعض لماذا يتعين على الجمهور دعم بعض البحوث الأساسية التي تبدو غير واضحة الهدف، فإنني دائماً أستخدم في الإجابة صورة سباق الخيل للمناظرة. البحوث الأساسية مثلها مثل حصان حرق لنا كسباً هائلاً كلما راهنا عليه في الماضي. وعلى الرغم من أن هذا لا يضمن لنا أنه سيفعل ذلك في المستقبل، فإن المراهن سيكون أحق لو راهن ضده في الجولة التالية.

إن فكرة أن هناك قذيفة سحرية اسمها المنهج العلمي من شأنها، على نحو إعجازي، أن تحوّل كل طالب
«إلى إنسان منطقي يأخذ بالأسباب العقلانية، لم تكن يقيناً وليدة الخبرة

المؤلف

النضال التاريخي من أجل تعليم العلم

عندما تستغرقنا مشكلة معاصرة تحدونا دائماً غواية الظن أننا نحن ورفاقنا أول من صادف
مثل هذه المشكلة. وتقديري في الواقع أنه لا توجد مشكلة تقريباً، خصوصاً مشكلة تتعلق
بالتعليم، لم تطل برأسها في وقت ما من الزمان الماضي، ولم يتلمس لها الباحثون أو المعلمون
حلاً بصورة أو بأخرى. وهذا صحيح يقيناً بالنسبة إلى المشكلات ذات الصلة بتعليم العلم. أود في
هذا الفصل أن أتحدث عن أسلوب الباحثين والمعلمين في الماضي عند التفكير في هذه القضية،
وذلك لسبب بسيط، وهو أن كثيراً من الأفكار الجديدة في مجال تعليم العلم لها عملياً تاريخ طويل،
وطبيعي أن معرفتنا بتاريخ هذه الأفكار من شأنها في الأغلب الأعم أن تهين لنا منظوراً يفيدنا
كثيراً في التعامل معها اليوم.

إنجلترا في القرن الـ19

حيثما يفشل النظام التعليمي في توصيل معارف عن العلم يشعر الناس بأنهم في حاجة إليها
فإنه سرعان ما تظهر مناهج بديلة لتوصيل المعرفة. ويتألف هذا النظام الموازي في أمريكا
المعاصرة من الكتب والمجلات والصحف وأجهزة الإعلام والمتاحف. وأعتقد أن هذا النظام أخذ
في الازدهار اليوم بسبب سوء تصميم مقررات العلم الدراسية. ولقي النظام التعليمي في إنجلترا
في القرن التاسع عشر فشلاً من نوع آخر، إذ كان قليلون هم القادرين على الالتحاق بالمدارس
في تلك الأيام، فضلاً على أن من التحقوا بالتعليم لم يحصلوا قدرًا كافيًا في ما يتعلق بالعلم. ولكن
أيًا كان سبب الفشل فقد كانت النتيجة واحدة في الماضي مثلما هي الآن. ونعرف أن اكتشافات
العلماء فتحت آفاقاً فكرية جديدة وشاسعة وأراد الناس معرفة شيء عنها. وجدير بالذكر أن
النمط الرئيسي لتوصيل المعارف الذي ظهر في إنجلترا في القرن التاسع عشر تمثل في
المحاضرات العامة. وبرز أكثر العلماء المشهورين في إنجلترا خلال العصر الفيكتوري

كمحاضرين. واشتهر خصوصاً في هذا المجال رائد الفيزياء في هذا العصر مايكل فاراداي، وهو العصامي الذي علم نفسه بنفسه (عرضنا في الفصل السابع خطوطاً عامة عن تاريخ حياته). واستهل ما يسمى محاضرات الكريسماس في المعهد الملكي، وهي المحاضرات التي لا يزال المعهد يقدمها إلى جمهوره كل عام. وعمد إلى تقديم محاضرات في المصانع. وثمة قصص عن آلاف العمال الذين كانوا يتدفقون على الفناء ليستمعوا إليه. وأرى أن أفضل مثال على عبقرية فاراداي بوصفه محاضراً يتمثل في خطاب ألقاه في الهواء الطلق خلال يوم اشتدت فيه برودة الطقس حتى درجة التجمد. فأمسك بكتلتين من الثلج وحك إحداهما بالأخرى حتى ذابتا ليبرهن على أن الحرارة شكل من أشكال الطاقة، وليست خاصية ذاتية أصيلة في المادة.

وتمثلت المشكلة الرئيسية التي واجهت العلماء في النظام التعليمي الرسمي في القبضة القاتلة التي يسيطر بها الباحثون الكلاسيكيون على مناهج التعليم. وقد هاجم هربرت سبنسر هذا الموقف في مقال له في العام 1855 بعنوان «ما هي المعارف الأقيم؟»، والذي قال فيه:

بينما نؤمن بأن ما نسميها الحضارة ما كان لها أبداً أن تظهر إلى الوجود لو لم يكن العلم عمادها، فإن العلم لا يكاد يمثل أي عنصر ذي قيمة فيما نسميه. التدرّب المهني الحضاري (1).

لقد كان مقال سبنسر عملياً مبالغاً قليلاً في الهدف الذي يتعلق بهذه المسألة، إذ يبدو أنه يناصر نظاماً تعليمياً يبنى فقط على العلم بدلاً من تبني النظرة الأكثر معقولة (التي يمكن الدفاع عنها) وترى أن ما ينبغي هو دمج العلم في النظام التعليمي مع الدراسات الأخرى. وربما كانت هذه الرؤية الطاغية هي السبب في أن «تسعة أعشار» أبناء بلده رأوا اقتراحاته، وبنص كلماته، «اقتراحات» شديدة الغرابة.

وبعد ربع قرن ردد توماس هكسلي أفكار سبنسر في محاضرة تحت عنوان «العلم والثقافة»، حيث قال:

لا المبحث العلمي ولا المادة الدراسية في التعليم الكلاسيكي لهما قيمة مباشرة للطالب الذي يدرس علم الفيزياء بحيث نقول إن الأمر يبرر تبديد وقت ثمين... وتوخياً لاكتساب ثقافة حقيقية نرى أن التعليم العلمي حصراً لا يقل فعالية عن التعليم الأدبي حصراً (2).

وأعود لأقول أظن أن من الأفضل تفسير هذه العبارات على أنها محاولة لدفع النظام التعليمي البريطاني بعيداً عن انحصار اهتمامه فقط في الدراسات الكلاسيكية، وأن يوجه قدرًا أكبر من التحرك في اتجاه نموذج الجامعات البحثية التي أخذت تتطور في ألمانيا آنذاك. وكنت سعيد الحظ إذ درست في أكسفورد كباحث حاصل على منحة مارشال منذ عدة سنوات مضت، ولذلك لديّ ذكريات عن الموقف الإنجليزي المتعثر تجاه الدراسات الكلاسيكية بالمعهد. ذهبت إلى هناك وأنا لا أزال شابًا تغمرني الدهشة، وسليل حي عمالي في شيكاغو؛ ودفعوا بي إلى كلية ميرتون التي أسست في العام 1972. ولا أزال أذكر عميد الكلية (الذي يصف نفسه بأنه آخر الفلاسفة الهيجليين الأحياء) وهو يقول لي إنني سعيد الحظ إذ قررت الكلية إعفائي من شرط يُوجب على طلاب القسم العلمي الوافدين إثبات إجادتهم التامة للغة اللاتينية (لست على يقين حتى يومنا هذا مما إذا كان سعيدًا بالتغيير الذي حدث أنه كان أسفًا لانهيار المعايير عما كانت عليه في الأيام السعيدة في الزمن القديم). وشرح لي أيضًا بجدية تامة أن الإمبراطورية البريطانية بناها رجال اختاروا لحياتهم مهنة كتابة الشعر اليوناني الكلاسيكي، ثم أرسلوا لإدارة تشغيل منظومة السكك الحديدية في كاليفورنيا. معنى هذا أن موقفه يؤكد أنه ليس المهم أن تتعلم الأفضل والأروع، إذ إن ذكاءهم الفطري سيجعلهم متميزين عن سواهم حيثما ذهبوا.

ماذا عساي أن أقول؟ بدا أن النظام التعليمي نجح تمامًا في القرن التاسع عشر. وطبيعي أن المشكلة هي أن قصر الاهتمام على طلاب القمة فقط، من يحتلون أعلى قمة في السلم الأكاديمي، لن ينتج لنا الجيش الضخم من التقنيين المدربين اللازمين لإدارة وبناء المجتمع الحديث. وطبيعي بالتالي أنه لن ينتج، يقينًا، مواطنين على حظ من المعرفة العلمية. ولهذا فإن التغييرات التي شهدتها إنجلترا الحديثة والتي حدثت في الجامعات القديمة، وبناء جامعات جديدة (المعروفة باسم المعاهد الحمراء أو المبنية بالأجر الأحمر)، إنما تمت أساسًا لعلاج هذه المشكلات.

الخبرة الأمريكية

تعليم العلم في أمريكا له تاريخ مختلف إلى حد ما. نظر الأمريكيون ابتداءً من جيفرسون وفرانكلين فصاعدًا إلى العلم على نحو ما يتلاءم مع بلد جديد لا يزال يعاني مخاض النمو والتطور، ومن ثم اعتبروا العلم أداة لتحقيق نتائج عملية، ووسيلة للحصول على ما سمّيته في

الفصل السابع «هدف مشروعات الأعمال» من خط أنابيب البحوث. وسجّل ألكسيس دو توكفيل تعليقه على هذا بقوله:

نلاحظ في أمريكا أن الجزء العملي الخالص للعلم مفهوم على نحو يثير الإعجاب... ولكن لا نكاد نرى أحدًا... نذر نفسه للجزء النظري والمجرد من المعرفة البشرية(3).

وهذا الميل تجاه ما هو عملي انعكس بوضوح في النظام التعليمي الأمريكي. وأول مدرسة تخصصت بشكل كامل لدراسة العلم والتكنولوجيا هي معهد «رينسلاير بولي تكنيك» في تروي، نيويورك. وحظي هذا المعهد آنذاك، مثلما يحظى الآن، بشهرة يستحقها في مجال الهندسة والعلوم التطبيقية.

ولم تكن لدى أمريكا في الحقيقة جامعة بحثية على المستوى الأوروبي إلا حين أسست جامعة جون هوبكنز في بالتيمور في العام 1876، والتي تخصصت بوضوح في ما سميناه البحوث الأساسية. وحدد أول رئيس لها (دانييل كويت جيلمان) أهداف الجامعة خلال حفل الافتتاح حين قال:

ما الهدف الذي نصبو إليه؟ تشجيع البحث... وتقدّم الباحثين الأفراد القادرين بفضل تميزهم على الارتقاء بالعلوم التي يعكفون عليها، وبالمجتمع الذي يتوطنون فيه(4).

وفي حديث تالٍ، حدد جيلمان ما أصبح فيما بعد الحكمة المسلم بها، أو ترتيلة الصلاة إن شئت، للجامعة البحثية في كل ما يخص التعليم، إذ قال:

أفضل المعلمين هم المعلمون الأحرار، المؤهلون ذوو الإرادة لإتجاز بحوث أصيلة داخل المكتبة وداخل المعمل. إن أفضل الباحثين هم عادة من يتحملون مسؤولية التعليم، وبذلك يفوزون بعوامل الحفز من رفاقهم، والتشجيع من تلامذتهم، فضلًا عن مراقبة الجمهور(5).

ولعل من المصادفات الغريبة في توافق الأحداث التاريخية أن جاء تأسيس جامعة جون هوبكنز في العام 1876، وهو العام نفسه الذي بدأ فيه أول عالم فيزياء أمريكي عظيم، وهو «جيه. ويلارد جيبس» من جامعة ييل، في نشر مؤلفه. وهو العمل الذي حالت النزعة العملية

الأمريكية في العلم دون تقييم رفاقه له حتى بعد وفاته. لقد كان جيبس شخصية مثيرة للاهتمام، طويل القامة، أرستقراطي السلوك (كان أبوه أستاذًا جامعيًا أيضًا)، أعزب طوال حياته (عاش مع أخته)، معروف عنه أنه معلم عطوف، وإن كان أكثر ميلًا إلى النظر المجرد. ووفق ما حكى لي أستاذي العجوز المتخصص في الديناميكا الحرارية، أن التقليد الشائع عنه أنه حكى دعابة واحدة في كل عمره. فبينما كان هو وأخته يقيمان حفل عشاء لضيوفهما وشرعت أخته في تقليب السلطة، أخذ منها الملاقط وقال لها على مسمع من ضيوفه: «دعي لي يا عزيزتي هذه المهمة، أنا في نهاية الأمر الخبير في شؤون التوازن غير المتجانس بين المواد».

وعلى أي حال، بمجرد أن بدأ العلم يتخذ لنفسه نقطة ارتكاز في النظام التعليمي الأمريكي، فإنه لم يواجه مقاومة من النوع الذي انتقده هكسلي وزملاؤه في إنجلترا. حفز رجال جامعة هوبكنز الجهود من أجل إعادة بناء الطب الأمريكي، وكان هذا مجرد مثال واحد لسرعة تطبيق العلم على العالم خارج الجامعة. وحقق هذا الإنجاز الباحثون الأمريكيون البرجماتيون اقتداءً بتطبيق نظام الجامعة البحثية.

جون ديوي وعادة العقل العلمية

ولكن مناط اهتمامنا هنا هو طريقة إضافة العلم إلى كثير من المستويات المختلفة للمقررات الدراسية أكثر من اهتمامنا بتقدم العلم عامة. وأحسب أننا لن نفاجأ إذا عرفنا أن أول تبرير نظري لتضمين العلم في المقررات الدراسية جاء بقلم جون ديوي، وهو الرجل الذي ترك أثرًا عميقًا في جميع أوجه التعليم الأمريكي.

صاغ ديوي في مطلع القرن العشرين الأساس المنطقي العقلاني للتعليم العلمي العام الذي لا يزال صدها يتردد في المؤسسة التعليمية حتى اليوم. ساق الحجج مؤكدًا ضرورة تضمين العلم في مقررات المدرسة الثانوية وأكد ضرورة أن نجعل من بين أهداف التعليم بناء ما يمكن أن نسميه «عادة العقل العلمية». وكان همه الأساسي وقتذاك مقررات المدرسة الثانوية، لكن حري بنا أن نتذكر أن النسبة المئوية من الأمريكيين المنتهين بالمدارس الثانوية وقتذاك كانت منخفضة كثيرًا. مثال ذلك أنه في العام 1910 كانت النسبة المئوية من الأمريكيين الحاصلين على شهادة المدرسة الثانوية دون 10 في المائة، وهي نسبة صادمة لتدنيها وفق المعايير الحديثة. ولم تتجاوز هذه النسبة في الحقيقة 50 في المائة إلا بداية من العام 1940. ومن ثم

حري بنا ونحن ننصت إلى جون ديوي وهو يناقش المقررات الدراسية للمدرسة الثانوية أن نتذكر أنه كان يتحدث عن مجموعة من الطلاب أبناء الصفوة، أو ربما من يعادلون اليوم طلاب جامعات النخبة المتميزة. ولكن التعليم العام للمدرسة الثانوية، حيث التعليم للكافة وليس للقلّة المحظوظة من الطلاب، كان شغله الشاغل بشأن المستقبل حين يكتب

ونلاحظ أن حجج ديوي بشأن تعليم العلم في المدرسة الثانوية تماثل ما سميته «برهاناً من حياة المواطنين» في الفصل الثالث

تؤسس الحضارة المعاصرة -إلى حد كبير جداً- على العلم التطبيقي الذي لن يتسنى لأحد أن يفهمه حقيقة ما لم يكن فاهماً لبعض المنهج العلمي... ومن ناحية أخرى فإن التفكير في الموارد والإنجازات العلمية من زاوية تطبيقها بغية السيطرة على الصناعة والنقل والاتصالات ليس من شأنه فقط زيادة الكفاءة الاجتماعية للمتعلمين مستقبلاً، بل أيضاً مضاعفة اهتمام المرء صاحب الشأن من دوره الحيوي المباشر(6)

:وأكد أيضاً أن تعلم العلم أمر قيّم في ذاته ولذاته بسبب اقترانه بالنمو العقلي

إن تكوين العادات العلمية للعقل سيكون الهدف الأول لمعلم العلم في المدرسة الثانوية(7)

ويبدو أن هذه الحجة خلال عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين هي دون حجة ديوي الأصلية عن المنفعة الاجتماعية التي استحوذت على اهتمام فلاسفة التربية. وهذه هي الحجة ذاتها التي حفزت -إلى حد كبير- على تضمين العلم في المقررات الدراسية. وأرى لزاماً أن أقول إنني حين أطالع هذه الكتب بعد مرور عدة أجيال أجدني مذهولاً لما يتصف به الكتاب من مثالية وسذاجة. إن فكرة أن هناك قذيفة سحرية اسمها المنهج العلمي من شأنها، على نحو إعجازي، أن تحوّل كل طالب إلى إنسان منطقي يأخذ بالأسباب العقلانية لم تكن يقيناً وليدة الخبرة. وطبيعي أن هذا لم يخلّ دون أن يتفجر بين الحين والآخر في حوارنا الحديث، وهذه نقطة سوف أعود إليها بعد ذلك بقدر من التفصيل

ونستطيع أن ندرك ما كان المعلمون يتصورونه في الثلاثينيات عن مهمتهم إذا ما تأملنا :«عبارة تحدد معنى الطالب الناجح قالها المدرس بجامعة ويسكونسن «آي. سي. دافيز

لنا أن نقول إن المرء صاحب الموقف العلمي هو: من (1) يكشف عن إرادة لتغيير رأيه على أساس بينة جديدة؛ (2) يعمد إلى البحث عن الحقيقة في كل صورها من دون أي انحياز؛ (3) يدرك العلاقة بين مفهوم العلة والمعلول؛ (4) سوف تتكون لديه عادة تأسيس حجته على الواقع؛ (5) لديه القدرة على التمييز بين الواقع والنظرية(8).

يا للهول! أحسب أننا جميعًا سوف نغمرنا السعادة إذا ما اكتسب طلابنا ولو جزءًا من تلك الخصائص التي حدثنا عنها دافيز، فضلًا عنها كلها. وأعود لأقول أوضحت الخبرة أن مثل هذه الأهداف غير الواقعية للتعليم لن يتسنى الوفاء بها. وليس معنى هذا أن ليس لنا أن نضعها أمامنا في الصدارة بوصفها مُثلاً عُليا قيِّمة، بل المعنى المقصود أننا عند نقطة ما نكون بحاجة إلى أن نبعد بتفكيرنا عن التهويم فوق السحاب، وأن نسأل أنفسنا: ما الذي يمكن لنا أن نتوقعه بصورة واقعية من طلابنا الجالسين فعلاً في قاعات الدرس أمامنا؟

اشترك الموجودون في «مدرسة ويسكونسن» معًا في وضع عدد من الاختبارات عن «الموقف العلمي» في ثلاثينيات القرن العشرين، ولكن يبدو أن النتائج لم تكن متوافقة مع قدرات الطلاب في مجال العلم أو مع تحصيلهم المدرسي عامة. وهكذا فإنه مع بداية اندلاع الحرب العالمية الثانية نجد أن أول دفعة كبرى لتعرف الأمريكيين على العلم من خلال المقررات الدراسية وصلت إلى نهاية محبطة ومخيبة للأمال إلى حد ما. ونجد أن الإنجاز الوحيد العظيم لهذه الحركة، والذي ينبغي ألا نغض من قدره وقيّمته، هو أن العلم منذ تلك الفترة فصاعدًا أصبح وثيق الارتباط بالنظام الأمريكي للتعليم العام.

سبوتنيك وأثره في التعليم في أمريكا

إن نسيت فلن أنسى مدخلي إلى عصر الفضاء في العام 1951. كنت لا أزال طالبًا بجامعة إلينوي، وكنت عائدًا إلى البيت سيرًا على الأقدام عبر ملعب رياضي بعد غروب شمس يوم من أيام الخريف. تطلعت ببصري إلى السماء ورأيت بقعة ضوء ساطعة في السماء تتحرك بسرعة أكبر كثيرًا من سرعة الطائرة. أدركت أنني أرى سبوتنيك، أول تابع اصطناعي، والذي أطلقه الاتحاد السوفييتي قبل بضعة أيام.

وكم هو عسير أن نبالغ في أثر هذا الجرم الذي يزن 183 رطلاً ويدور في مدار قريب من الأرض في النظام التعليمي الأمريكي. لقد كانت الأيام التالية مباشرة للحرب العالمية الثانية أياماً مجيدة للثقة العلمية الأمريكية. ارتأى بعض الكُتّاب وصف النزاع بأنه حرب «الفيزيائيين». وحقق علماء الحلفاء نجاحاً في تطوير مستحدثات مثل الرادار والصمام التقاربي [الذي يفجر علاوة، بطبيعة الحال، على القنبلة، proximity fuse، المقذوف عند اقترابه من الهدف. المترجم] الذرية. وأكد هذا للجميع الهيمنة الواضحة للغرب في عالم العلم. وعاد من الحرب جيل من العلماء لديه طموح إلى دفع أمريكا إلى مستقبل باهر، وبتيه خيلاء، ويكتب أبنائه، كما قال أحد المراقبين، بطرف أقلامهم في زهو وكبرياء. وتملكني دائماً طوال سنوات دراستي بالجامعة شعور بالدهشة من عدد من أساتذتي، الذين يتحلون بدماثة الخلق ورقة الطباع، الذين أدوا أدواراً حاسمة في مجال البحوث العلمية زمن الحرب.

ومثالي المفضل عن هالة التقدير الكبير التي أحاطت بالعلماء في أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية أستمدته من السيرة الذاتية للعلامة لويس ألفاريز الحاصل على جائزة نوبل في العام 1968، وكانت تتويجاً لحياة علمية متميزة في مجال الفيزياء التجريبية. عمل في أثناء الحرب في معمل الإشعاع في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، وهو أحد مراكز البحوث في زمن الحرب. وعكف هناك على تطوير الصمام التقاربي. ومن المعروف أنه حتى ذلك الوقت كان المجندون المعنيون بإطلاق المدافع المضادة للطائرات يعتمدون على أنفسهم في تقدير ارتفاع الطائرة المغيرة، ثم يشعلون فتيل القذيفة لتنتقل بعد لحظة إلى مكان ما قرب الطائرة، والأمر متروك للحظ في جميع الأحوال. وغني عن البيان أن هذه التقنية لم تكن لتحقق إصابات كثيرة. ولكن الصمام التقاربي هو أساساً رادار صغير يجري تركيبه عند رأس القذيفة ويشعل المادة المتفجرة عند اقتراب القذيفة من الطائرة. وذهبت بعثة للاختبار في خليج شيزابيك، واتضح أن القذائف المزودة بالصمام الجديد الذي اخترعه العالم أسقطت كثيراً من الطائرات من دون طيار الواحدة تلو الأخرى، ما أذهل العاملين على المدافع من رجال البحرية. ونظرًا إلى دواعي الأمن خرجت السفينة فوراً إلى عرض البحر، بينما انطلق مركب يحمل العلماء عاندين إلى الشاطئ، وهبط قائد البحرية من سفينته ليطمئن على أن من هم في رعايته ومسؤوليته قد عادوا بسلام. وصافحهم واحداً واحداً، ثم اتجه إلى الضابط المسؤول عن المركب وقال: «السيد الملازم، تأكد من أن هؤلاء الرجال يرتدون سترات النجاة الخاصة بهم».

وكانت هذه علامة على توقيير وتقدير لازما ألفاريز طوال حياته

ولكن في العام 1957، وبفضل انطلاقة ناجحة لقرم اصطناعي سوفييتي، تبددت كل تلك الثقة وكل مشاعر الرضا عن الذات. كنا نسمع كل ساعة ونصف الساعة صوت «بيب. بيب. بيب» من سبوتنيك فوق رؤوسنا، فيذكّرنا بأن عدونا في الحرب الباردة قد هزمننا في الفضاء. وتتمثل ذكرياتي عن هذه الفترة في صورة حالة الهلع العام والحيرة الشاملة، وهي مشاعر مماثلة لما حدث بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وإن كانت بصورة أكثر صمّتا. وعبر بصدق عن الحالة المزاجية الأمريكية سيناتور ألاباما ليستر هيل في شهادته في العام 1958 أمام لجنة العمل والرفاه العام بمجلس الشيوخ حين قال:

الاتحاد السوفييتي الذي كان منذ أربعين عامًا فقط أمة فلاحين، ها هو اليوم يتحدى بلدنا أمريكا في... العلم والتكنولوجيا... إن الطريق الذي نختار الالتزام به سوف يحدد ليس فقط مستقبل الحضارة الغربية، بل وأيضًا مستقبل الحرية والسلم لجميع شعوب الأرض (9)

وتساءل الأمريكيون في دهشة في كل مكان: كيف حدث هذا؟ كيف لنا، وفور إنجازاتنا العظيمة، أن نجد أنفسنا في مثل هذا الموقف بادي اليأس والإحباط؟

وحدث بعد ذلك رد فعل أمريكا النمطي (هل هو رد فعل مبالغ فيه؟) إزاء أي موقف يمثل تهديدًا وخطرًا. فجأة أصابتها حمى الاهتمام بتعليم العلم. هل هناك بلدان تُخرّج علماء ومهندسين أكثر منا؟ سوف نعمل على تخريج أعداد أكثر مما يحلمون هم. هل السوفييت يشغلون الفضاء؟ سوف نهزمهم بالوصول إلى القمر. وتدفقت الأموال إلى المؤسسات العلمية

وتحققت النتائج المرجوة. صدر قانون التعليم والأمن القومي في العام 1958. وأدى القانون إلى ضخ مليارات الدولارات من أجل تدريب جيل جديد من العلماء والمهندسين. وانتهى الأمر بأن مجموع الأموال التي أنفقت على التعليم والأمن القومي زادت وتجاوزت ما تم إنفاقه على مشروع مانهاتن في البداية. أما عن نفسي فقد استطعت أن أستخدم بعض الأموال المخصصة لقانون التعليم والأمن القومي لدعم طلاب الدراسات العليا قبل إنهاء المشروع بعد ذلك بعقود

ويمثل عمل لجنة دراسة علم الفيزياء رمزًا لانتفاضة الاهتمام المفاجئة بتعليم العلم. وتتألف اللجنة من علماء معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (الفيزيائيون أساسًا) وأرباب الصناعة. وقد

التأم شمل اللجنة في الواقع قبل عام من إطلاق سبوتنيك. ولكن السُّعار المفاجئ على أثر سبوتنيك كان قوة حافزة لها ونتاج عنها «فيزياء لجنة دراسة علم الفيزياء»، وهو مقرر دراسي معد إعداداً جيداً إلى أقصى حد (وإن كان متقدماً) لتدريس الفيزياء بالمدارس الثانوية. وسرعان ما أصبح هذا المنهج مطبقاً في كل المدارس في مختلف أنحاء البلد. ولا أزال في الحقيقة ألتقي من وقت إلى آخر بطالب ما درس هذا المقرر في الفيزياء في مرحلة من الدراسة

إن ما أذهلني أكثر فيما يتعلق بلجنة دراسة علم الفيزياء وقتما قضيت عاماً بعد حصولي على درجة الدكتوراه في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا في أواخر ستينيات القرن العشرين هو أن كثيرين من كبار الفيزيائيين كانوا آنذاك لا يزالون مرتبطين باللجنة من أمثال جيرولد زاخاريا الذي نعتبره في العادة أحد مؤسسيها. وطبيعي أن مشاركتهم تجعل الفيزيائيين الأقل مستوى يستسيغون الاهتمام بالموضوعات التعليمية. ووصل الأمر إلى حد أن أصبح التعليم بين الحين والحين موضوعاً مختاراً للمناقشة في أثناء تناول طعام الغداء اليومي للفريق المعني بالنظرية، وهو الشيء الذي لا نكاد نسمعه اليوم

وركزت لجنة دراسة علم الفيزياء جهودها على مدى الستينيات من القرن العشرين على تدريب المعلم وإدارة حلقات دراسة صيفية مكثفة لمعلمي المدارس الثانوية في كل أنحاء البلاد، ووضعت مواد دراسية لقاعات الدرس. ومع هذا لم تحقق في النهاية المراد. ولا أظن أنها استطاعت أن تحقق أكثر من 10 في المائة من جملة كتب فيزياء المدارس الثانوية المعروضة في السوق. إن إحساسي الخاص هو أن مستواها الفكري كان مرتفعاً جداً بالنسبة إلى الأغلبية العظمى من الطلاب والمعلمين، وهذه نقطة سأعود إليها في فصل تالٍ

وعلى أي حال فإن المليارات التي أنفقها الرئيس أيزنهاور والرؤساء الذين خلفوه على تعليم العلم حققت عاندها؛ أقبل الطلاب أفواجاً على مجالات علم جديد، كما أن العلماء الذين تدرّبوا على البحوث الأساسية تدفقوا إلى خط أنابيب البحوث، وعاد العلم الأمريكي ليؤكد من جديد هيمنته على العالم، وذلك بحلول نهاية الستينيات، حيث وطئ الأمريكيون بأقدامهم سطح القمر، ووضعوا بصماتهم عليه مع امتداد مسلسل لا نهاية له من جوائز نوبل، وتوافد الطلاب من جميع أنحاء العالم إلى الجامعات الأمريكية للالتحاق بالدراسات العليا، مثلما ذهب الأمريكيون قبل بضعة عقود إلى أوروبا

وبعد أن فرغت من كل ما سبق، ومع كل الاحترام والتقدير للتوسع الضخم الذي حققه مشروع البحث الأمريكي الذي أعقب انطلاق سبوتنيك، لا يزال هناك سؤال مهم علينا أن نسأله هو: ماذا عن الـ98 في المائة الأخرى؟ أو بعبارة أخرى، ماذا عن الطلاب الذين لن يشتغلوا بالعلم والتكنولوجيا؟ بناء على هذا التصنيف يمكن القول على أحسن الفروض إن أثر انتعاش العلم بعد انطلاق سبوتنيك يبدو ملتبسًا؛ إنه من ناحية أفاد في إثارة الاهتمام بتعليم العلم وأدخل بعض كبار العلماء في المجال نفسه كما عرضنا آنفًا، ومن ناحية أخرى نجد أنه طوال هذه الفترة، وكما قال: «عالم الفيزياء بجامعة نيويورك موريس شاموس في كتابه «أسطورة محو الأمية العلمية

الوظيفة الأولى للتعليم الرسمي للعلم، سواء قبل الكلية وفي أثنائها، هي ضمان الإمداد المطرد للعلماء وللمهن ذات الصلة بالعلم(10)

وكان هذا يقينًا هو هدف لجنة دراسة علم الفيزياء، على الرغم من أنهم ضمّنوا نخبهم المستهدفة أنواعًا من غير المشتغلين بالعلم ممن سيكونون ذوي شأن مهم في المجتمع الأمريكي، مثل: محامي المستقبل، ورجال المصارف، والقادة السياسيين، وغيرهم. ونقول بعبارة جيروld زاخاريا: «علينا أن نؤسس مجموعة متميزة من المرتبة الأولى لتكون هي دعامة النخبة الفكرية في البلاد»(11)

التعليم في أمريكا بعد الدوي الذي أحدثه سبوتنيك

نحن إذ نتأمل هذا التركيز على الطرف العلوي للطيف التعليمي خصوصًا على ما يتعلق بتعبئة علماء ومهندسي المستقبل، نجد أن الدوي الذي حدث إثر سبوتنيك حدد الطريقة التي يتعين الالتزام بها مع نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين. ووقعت خلال هذه السنوات أحداث تمثل معالم أساسية في التعليم الأمريكي. نذكر منها نشر تقرير «أمة في خطر» في العام 1983 الذي أصدرته اللجنة القومية المعنية بالتميز في التعليم. وكذلك إقرار تقرير «لن يتخلف في العام 2002. ويبدو كل منهما حدثًا كبيرًا عندما نسترجعهما. وقد حفز إليهما NCLB «طفل إدراكنا أن ثمة شيئًا خطيرًا مغفلاً في التعليم العام الأمريكي، وأكد الاثنان ضرورة اتخاذ الإجراءات لعمل إصلاحات بعيدة المدى. ولم يقتصر أي منهما على التركيز على تعليم العلم من دون سواه، على الرغم من أنهما معًا ضمّننا العلم والتكنولوجيا في إطار رؤية كل منهما

وها قد مضى وقت كافٍ منذ صدور تقرير العام 1983، ما يسمح لنا بعمل نوع من التقييم للآثار المترتبة على تقرير «أمة في خطر». وفي رأبي أن النتيجة الأهم لهذا التقرير الذي حذر من أن الأمة توشك أن يغرقها «مد صاعد من الوهن» هي وضع التعليم في بؤرة الاهتمام العام. لنسأل: متى كانت آخر مرة، كمثال، زعم أي شخص طموح سياسياً أنه يريد أن يصبح «الرئيس المعني بالتعليم»؟ ونقول بكلمات جلين سيبورج الحائز جائزة نوبل في العام 1993: «بدا واضحاً الآن أن أزمة التعليم قبل الجامعي والحاجة الملحة إلى إصلاح التعليم لهما في إدراكنا الأولوية القصوى» (12). وقد شددت شروط التخرج في المدرسة الثانوية، وكذا شروط الالتحاق بالكليات خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين. وأعتقد أن في الإمكان أن نعتبر هذا التشديد «نتيجة مباشرة لنشر تقرير «أمة في خطر».

ولكن ما يدهشنا، من ناحية أخرى، هو التحسن القليل في الناتج التعليمي ذي الأهمية الذي تحقق نتيجة لهذه الإصلاحات. وإذا استثنينا بعض التحسن في الرياضيات نجد أن درجات اختبارات الطلاب الأمريكيين تكاد في جوهرها تكون ثابتة من دون تغيير تقريباً منذ سبعينيات القرن العشرين. معنى هذا أن أي آثار إيجابية مترتبة على الإصلاح ربما لم تكن كبيرة بالقدر الذي يجعلها واضحة للأنظار وتكشف عنها مقاييس الاختبارات المعيارية (أو تسلم بأنها ناقصة)

ولا يزال الوقت مبكراً جداً لعمل تقييم مماثل لتقرير «لن يتخلف طفل». هذا على الرغم من أنه غير المناخ العام للنظام التعليمي بفضل تطبيقه المعايير القومية وزيادة تأكيده المهارات الأساسية مثل الكتابة والرياضيات، وكذا برنامجه بشأن المسؤولية والمحاسبة العامة. ومع هذا نستطيع أن نلمس بالفعل بعض التغيرات في تعليم العلم والتي حدثت بوصفها نتائج غير مقصودة مترتبة على تقرير «لن يتخلف طفل». ونلاحظ أن التأكيد المتزايد للمهارات الأساسية خلال المراحل الدراسية الباكرة يتمثل في اتجاه رفع مواد لم تخضع للاختبار مثل العلوم والتاريخ، لترتفع إلى درجات أعلى في السلم التعليمي، وبحيث يلتقيها الطلاب في فترة تالية خلال حياتهم العملية. وليس واضحاً، على الأقل بالنسبة إليّ، ما إذا كانت هذه المرحلة ستكون لها نتائج إيجابية أم سلبية بشأن تحصيل الطالب في مادة العلوم. ونلاحظ من ناحية أن الطلاب إذا توافرت لديهم قاعدة صحيحة في اللغة والرياضيات، فإن هذا يقيناً سوف يكون عوناً لكل من يناضل منهم من خلال اللغة في الكتب المدرسية المطابقة للنظام القديم. بيد أننا من ناحية أخرى لا نعرف أثر

إرجاء تضمين العلم في الاهتمام الطبيعي للطلاب بالمادة الدراسية. أحسب أن هذه مسألة متروكة للبحث مستقبلاً.

ولكن أياً كانت النتائج بعيدة المدى التي سينتج عنها تقرير «أمة في خطر»، وكذا تقرير «لن يتخلف طفل»، فإن الخطاب الملازم لهما فيما يتعلق بتعليم العلم يشبه كثيراً النغمة التي كانت سائدة بعد إطلاق سبوتنيك: الطلاب الأمريكيون متخلفون عن نظرائهم من الطلاب في الأقطار الأخرى، ونحن لا نخرج لدينا العدد الكافي من العلماء والمهندسين اللازمين لضمان اطراد القوى المحركة للاقتصاد؛ وكذلك نحن إذا لم نتخذ فوراً الإجراءات اللازمة لعمل تغييرات جذرية فإن المشروع التعليمي برمته سوف ينهار. وسوف أطلق على هذا النوع من الحجج «الابتهاال»، «أو مقدمة الصلاة، اقتداءً بكلمات بيورن لومبورج في كتابه «داعية الحفاظ على البيئة الشكّك».

إن إحدى القسّمات المثيرة للضحك في هذا الابتهاال هي أن المنافس الأجنبي الأول، أو إن شئت قل بعبع العلم الأمريكي، دائم التغير مع الزمن، إذ كان هو الاتحاد السوفياتي في ستينيات القرن العشرين، ثم أصبح اليابان في الثمانينيات، وبعدها تايوان وسنغافورة وغيرهما من النّمور الآسيوية، وإحساسي حتى الآن أن البلد القادم في الطابور، والذي سيكون البعبع، هو الصين أو الهند تأسيساً على من سيكون له قصب السبق، وعمّا إذا كان الاهتمام الأول هو الهيمنة الصناعية الكاملة أو تمهيد، أي نقل، الوظائف التقنية الأمريكية العليا إلى الخارج. وأذهب في تخميني الشخصي إلى أن الصين سوف ترث عملياً دور البعبع وتصبح المنافس الرئيسي لأمريكا.

وسوف أعود إلى موضوع الابتهاال فيما بعد مع قدر بسيط من التفصيل في محاولة لعمل تقييم واقعي لمدى النجاح النسبي لعدد من البلدان المختلفة في تخريج المهندسين والعلماء. ولكن ليسمح لي القارئ الآن بأن أتحوّل إلى سؤال سبق أن أثرته في البداية هو: أين، وسط كل هذا السعار والفوضى، المكوّن الملازم للطلاب غير العلمي؟ ماذا عن التفكير بشأن محو الأمية العلمية أو توفير المعارف الأولية العلمية؟

الفيزياء للشعراء وللکافة

يمثل صدور الكتاب المرجعي «الفيزياء للشعراء» تأليف روبرت مارش، في العام 1972، معلماً خاصاً في نظري للزمن الذي بدأ فيه تغير جارف لموقف المجتمع العلمي من تعليم غير

العلماء. ومارش عالم فيزياء تجريبي قدير في جامعة ويسكونسن، وهو إنسان صاحب عقل حر منفتح في عالم محافظ تقليدي. وجدير بالذكر أنه وقت صدور الكتاب كان قلة من العلماء هم من يفكرون جدياً في أي قضايا تعليمية أخرى غير القضايا المعنية بتخريج الجيل التالي من العلماء والمهندسين. ولكن الكتاب بدأ يغير كل هذا.

وطبيعي أن كان العنوان هو أول شيء مثير، إذ أثار انتباه الناس وجعلهم يفكرون في أمر تعليم غير العلماء. ثانياً، كُتب الكتاب بلغة رصينة جيدة، وحظي بعناية فكرية متميزة. لذلك كم كان عسيراً إغفاله واعتباره «غير جدير بالنظر» على نحو ما كان يميل علماء كثيرون وقتذاك! وأخيراً، صدر الكتاب في الوقت الذي بدأت تشيع فيه الضغوط التي ناقشناها في الفصل التاسع، إذ إن أقسام العلوم بالجامعات كانت منفتحة ومتقبلة لفكرة زيادة أعداد طلابها. ونلاحظ أن الأقسام التي آثرت الإحجام حتى ذلك الحين بدأت الواحد بعد الآخر تضيف مقرراً دراسياً تمهيدياً كمدخل آخر لمقرراتها. مثال ذلك أن المقرر الدراسي الجديد الذي يستهدف غير العلماء أضيف إلى المجموعة التمهيديّة القائمة من المقررات المؤسسة على الجبر وحساب التفاضل (استهدف الأول الطلاب قبل التحاقهم بكليات الطب واستهدف الثاني المهندسين والعلماء). وهكذا أصبح اليوم من النادر أن نجد قسمًا من أقسام العلم لا تشتمل كتبه على مقرر دراسي من نوع مقرر «الشعراء».

كل هذا كان يجري في جامعة فرجينيا، إذ كان قسم الفيزياء يدار بأسلوب نمطي محافظ إلى حد ما، ولكنهم سمحوا لي بأن أحاول تطبيق منهاج تعليمي عن «الشعراء». ولا أزال أذكر حين تجاوز عدد المقيدين 300 وامتلاً الصف الخلفي في قاعة المحاضرة بزملائي الذين لم يصدقوا أن طلاباً كثيرين يريدون تلقي منهاج دراسي عن الفيزياء. (ولكي أكون واقعياً أقول نظراً إلى أن هذا هو أول منهاج تعليمي باسم «الشعراء» في الجامعة، ظن الطلاب من دون شك أنه أسهل طريقة للوفاء بمتطلبات العلم، وهي نظرية عززها اسم مستعار أطلقوه على المقرر «فيزياء كرة القدم».)

ولكن ليس معنى هذا قولنا إن الحركة التي استهلها منهاج «الفيزياء للشعراء» استهدفت حقاً إنجاز المعارف الأولية العلمية. ذلك أن كل منهاج تعليمي طُبّق خلال هذه الفترة كان مؤسساً في إطار مبحث علمي محدد؛ الجيولوجيا للشعراء، والكيمياء للشعراء... وهكذا. بل كان الهدف -بوضوح- هو تزويد غير المتخصصين بنظرة تقييمية أعمق عن مبحث علمي بذاته، وليس

تزويد غير العلماء بخلفية واسعة أساسية عن العلوم. ولقد كان في إمكان الطالب، حتى مع تطبيق جميع هذه المناهج التعليمية أن يفي بشروط ومتطلبات العلم المقرر في الجامعة من دون. أو أشباه الموصلات، DNA أن يسمع في قاعة الدرس مصطلحات مثل الدنا

وأود أن أذهب في تفكيري إلى أن صدور كتاب مرجعي في العام 1995 بعنوان «العلوم: نهج موحد» تأليف روبرت هازن وأنا، سوف يكون معلمًا مماثلًا من حيث طريقتنا في تعليم العلم على المستوى الجامعي. إن هذا الكتاب الذي ينبنى على نهج «الأفكار الكبرى» التي سأناقشها في الفصل الثاني عشر يحدد نهجًا مختلفًا جذريًا في التعليم غير الأساسي، إذ أصبح ممكنًا لأول مرة أن نجد كتابًا تعليميًا لتدريس منهج دراسي يعطي الطالب رؤية واسعة شاملة عن جميع العلوم، وليس مجرد عرض لمجال واحد فقط. ولا يزال الوقت مبكرًا جدًا لعمل تقييم عن أثر هذا الكتاب، ولكن ثمة مؤشرات مشجعة، فقد صدرت الطبعة الخامسة من الكتاب، علاوة على أن المناهج الدراسية المؤسسة على أسلوبه في التناول اعتمدها أكثر من معهد عالٍ وجامعة في كل أنحاء البلاد. وأخيرًا لاحظنا ما يمثل مجاملة وتقديرًا لهذا العمل بأن أصدر عدد من المؤلفين ودور النشر كتبًا مدرسية منافسة، وهذه علامة تؤكد أن الاهتمام بالموضوع بلغ نقطة التحول الحرجة

ولكن على الرغم من إضافة المناهج التعليمية «الشعراء» و«العلوم الموحدة» في الجامعات في كل أنحاء البلاد، فإن اهتمام المجتمع العلمي يكاد يكون مثبتًا على تعبئة علماء ومهندسين جدد، بينما توارى -كما هي الحال دائمًا- الاهتمام بالمهن الأخرى والتعليم للجمهور، واحتل مكانًا ثانويًا. وهذا وضع مفهوم، وإن بدا محبطًا إلى حد ما. وفي محاولة مني لتخفيف قبضة هذا الموقف على زملائي أود أن أختتم هذا الفصل بسؤال بسيط هو: هل نحن حقيقةً متخلفون عن بلدان أخرى من حيث تخريج علماء ومهندسين للمستقبل؟

هل نحن حقًا متخلفون؟

القول بأنه ينبغي على المعلمين الأمريكيين أن يشعروا بقدر من عدم الأمان إزاء نتائج جهودهم في مجال العلم، قول في ظاهره عسير على الفهم إلى حد ما. إن العلم في أمريكا، مع بعض الاستثناءات، لا يزال يحدد المعيار العالمي، كما أن الجامعات الأمريكية، كما أوضحنا آنفًا، لا تزال السبيل التعليمي المختار من قبل الطلاب في مختلف بلدان العالم، خصوصًا بالنسبة إلى من يلتمسون الحصول على درجات في العلم والهندسة. ولكن إذا ما تأملنا أجهزة الإعلام وجدنا

أن كل ما نسمعه ينصب في خانة الابتهاال. كيف يمكن للناس وهم بصدد نجاحاتنا الواضحة أن يدفعوا بجدية بأن النظام متهاو؟

طبيعي أن أحد الأسباب هو الأداء السيئ لطلاب المدارس الثانوية الأمريكية في الاختبارات الدولية المعيارية في مجال العلم والرياضيات. ويأتي السبب الثاني من مقارنة معدلات تخرج العلماء والمهندسين في البلدان المختلفة. ولعل الحجة النمطية في هذا الصدد تجري على النحو التالي: في العام 2004 (آخر سنة للبيانات عن هذا الموضوع) تخرج في الولايات المتحدة 70 ألف مهندس، بينما تخرج في الهند خلال العام نفسه 350 ألفاً، وفي الصين 600 ألف. واضح أن بلداناً أخرى تحقق نتائج أفضل منا في هذا المجال التعليمي الحيوي.

ونظراً إلى أنني عايشة فترة الهوس التي أصابت البلاد على أثر إطلاق سبوتنيك، فإنني أتوقع من القارئ أن يغفر لي إذ أنظر إلى هذه الصورة الراهنة لما سميت بالابتهاال بعين منحازة. إنني مدين لفريق من الباحثين في برنامج درجة الماجستير في الإدارة الهندسية بجامعة ديوك تحت إشراف جاري جيريفي وفيفيك وادوا، إذ تيسر لي بفضلهم أن أنظر من كتب إلى هذه الإحصاءات، وأن أستعيد قدرًا من العقلانية في مناقشة تخريج مهنيين مدربين تقنيًا، ذلك أن جوهر ما فعله هذا الفريق هو الاطلاع -في تأمل- على بعض تفاصيل ما تعتبره الهند والصين درجة علمية في الهندسة، ثم بعد ذلك عمل مقارنة بندًا بندًا بين هذين البلدين والولايات المتحدة. وكما يحدث غالبًا حين ننظر إلى مصدر الأعداد الواردة في العناوين، سيتبين أن الموقف أقل خطورة مما يبدو لنا في الظاهر مع أول نظرة.

الجدول (1-8): مقارنة درجات البكالوريا للسنوات الأربع

في الهندسة في العام 2004

البلد	الدرجات لكل مليون من السكان	عدد الدرجات
الصين	271.1	351.537
الهند	103.7	112.000
الولايات المتحدة	468.3	137.437

ونبدأ بالصين، حيث اتصل الباحثون في جامعة ديوك بوزارة التعليم بشأن بياناتهم. وأفادت الوزارة بأنه في العام 2004 مُنحت 644.106 درجة في الهندسة. وتبين أن 351.538 -أي أكثر قليلاً من النصف، من برامج بكالوريا السنة الرابعة والبقية مما يسمى برامج «الدورة القصيرة»، وهذه عادة برامج من 2-3 سنوات، تماثل تقريباً درجة الزمالة التي تعطيها الكليات ولكن حتى هنا نجد مشكلة نظراً إلى أن الوزارة، كما American Community Colleges الحكومية هو واضح، تكتفي بجمع تقارير التخرج من المقاطعات من دون فرض تعريف موحد لمعنى درجة في الهندسة. والنتيجة أن بعض الدرجات الواردة ضمن العدد الإجمالي ربما حصل عليها ناس من أمثال العاملين في ميكانيكا السيارات وفنيي أجهزة التدفئة.

ونجد موقفاً مماثلاً في الهند، إذ نظراً إلى أن حكومة الهند لا تجمع بيانات التخرج بانتظام (آخر بيانات متاحة عن التخرج ترجع إلى العام 1993)، فقد ذهب باحثو جامعة ديوك إلى National Association of Software and Service Companies «الرابطة القومية للبرامج وشركات الخدمات التي تعمل كجهاز حصر من الواقع لمثل هذا النوع من البيانات NASSCOM (ناسكوم) Companies في البلد. ونلاحظ أنه لأسباب فنية كانت الأرقام التي جمعتها «ناسكوم» عن العام 2004 هي توقعات أكثر منها بيانات مؤكدة. ونلاحظ أيضاً أنها تفيدنا بقصة مماثلة لما هو حادث في الصين. ويذهب هؤلاء الباحثون في تقديراتهم إلى أنه تخرج في الهند 215 ألف درجة في الهندسة في العام 2004 (وليس 350 ألفاً كما هو مبين في العناوين الرئيسية)، وأن من بين هذا الرقم 112. ألفاً (مرة أخرى أكثر قليلاً من النصف) هم من أتموا برامج السنوات الأربع.

وبغية الوصول إلى الجدول (8-1) وضع باحثو جامعة ديوك هذه الأرقام معاً، بالإضافة إلى النتائج التي حصلوا عليها من المركز القومي لإحصاءات التعليم في الولايات المتحدة (137.437 درجة في الهندسة لبرامج السنوات الأربع)، واستخدموا الإحصاءات الرسمية لأعداد السكان في البلاد لتحديد عدد الدرجات الممنوحة لكل مليون من السكان. وعند النظر إلى الإحصاءات بهذه الطريقة، ومقارنتها بنداً مقابل بند، كادت تختفي هوة التحصيل التعليمي. معنى هذا في ضوء الأرقام المجردة أننا سواء في الملعب مع منافسينا الرئيسيين. ولعل الأهم هو درجات الخريجين لكل نسمة من السكان، نظراً إلى أن الحاجة إلى المهندسين من شأنها أن تزيد مع زيادة السكان. وأخيراً، ثمة حاجة إلى شخص ما يضع صيغة توضح كل هذه التقاطعات الإضافية، وهنا تتجلى واضحة الميزة التي تتمتع بها أمريكا

ولكن ونحن نمضي في عالم آخذ طريقه إلى العولمة سريعًا، لا يسع الأمريكيين أن يقتنعوا بالرضا عن ذواتهم فيما يتعلق بالنظام التعليمي، ولا أن يقتنعوا بقدرتهم على المنافسة دوليًا في الساحة العالمية. لأننا قادرون دائمًا على عمل ما هو أفضل مما نجزه حتى الآن. ونحن من ناحية أخرى، وكما يوضح الجدول السابق، لسنا بدرجة السوء التي تعبر عنها صلاة الابتهاال

* * *

يبدو لي أن اهتمام الطفولة بالطبيعة من شأنه أن يفيد كراسمال ثمين يمكن للتلاميذ استثماره لتجاوز»
«الفترة الصعبة، عندما يأخذ تعليم العلوم صورة أكثر صعوبة من مجرد مراقبة الخنافس والفرشات

المؤلف

توزيع المسؤولية: كيف وصلنا إلى ما نحن فيه؟

نجد أنفسنا الآن في موقف نشعر معه بأهمية المعارف الأولية العلمية، لكننا نجد معه، ولأسباب معينة، أن مدارسنا لا تخرج طلابًا توافرت لديهم المعارف الأولية العلمية. ووضح لنا أن الولايات المتحدة، كما هو موثق في الفصل السادس، حققت بعضًا من التقدم في هذا المجال. ولكن على الرغم من هذا، يحدوني شعور بأن أمريكا، وهي البلد الذي أسس على العلم الحديث والإبداع التكنولوجي، قد خرجت في مكان ما عن المسار الصحيح الموصل للهدف. وحرى بنا قبل الحديث عن كيفية تحسين الوضع أن نتوافر لدينا فكرة واضحة عن كيفية حدوث ذلك

من المهم قبل تحديد المسؤولية أن نميز بين نوعين من الأسباب: أسباب قريبة وأخرى بعيدة. إن السبب البعيد للأمية العلمية، أو لعدم توافر المعارف الأولية العلمية، شأنه شأن كل الأسباب لأي مشكلة كبرى يمكن أن يعود إلى موقف المجتمع ككل وإلى المواقف العامة -تحديدًا- من العلم. بيد أن هذا قول متهافت وغير مقنع، إنه مدعاة إلى اليأس، وتسليم بالهزيمة أكثر منه أي شيء آخر، إذ إنه يقينًا يفيد قليلًا كأسلوب علاج، لذلك لن أمكث معه طويلًا. إنني معني جدًا باكتشاف السبب وراء عدم استجابة مؤسساتنا التعليمية للمشكلة، على الرغم من اتساع نطاق الأمية العلمية أو الأمية بالمعارف الأولية العلمية، بغض النظر عن سببها الرئيسي. وعندي في هذا الصدد كثير مما أقوله، ذلك أن المؤسسة التعليمية في حقيقة الأمر يجب حثها على العمل بسرعة ونشاط إذا شئنا ألا يتحول الجيل التالي من الطلاب الأمريكيين إلى جيل أمي علميًا، كما هي حال الجيل الحاضر

وسوف أتحدث فيما يلي عن مراحل التعليم ابتداء من المدرسة الابتدائية وصولًا إلى الجامعة. وليس لي أن أدعي أنني صاحب خبرة في بعض المجالات، مثل التعليم الابتدائي، أكثر من

أصحاب الشأن المعنيين عادة مثل الكبار والآباء. بيد أنني لديّ بعض الخبرة مع المقررات الدراسية في المدارس المتوسطة. وأستطيع أن أتكلم في ضوء خبرة حياتية سيئة عن مشكلات من بينها مشكلات التعليم الجامعي. وسوف أدفع فيما يتعلق بالمراحل الباكرة من التعليم بأن الاتجاه القائل بأننا «نعلم أطفالاً، لا مواد دراسية»، وهو قول يبدو شائعاً في هذه المنظومة، إنما هو قول يحبط أي دراسة جادة للعلم. ونجد بعد ذلك في المدرسة الثانوية وفي الكلية ما يشبه تحالفاً غادراً يسري في الخفاء بين العلماء (الذين يريدون فقط التدريس لطلاب المستوى الأعلى)، ومعلمي الدراسات الإنسانية (الذين لا يريدون تعليم العلم على الإطلاق)، والطلاب (الذين يريدون الانتهاء من المهمة بأسهل طريقة ممكنة) ويناضلون جميعاً ضد أن يتضمن التعليم تعلم المعارف الأولية للعلم.

وعلى الرغم من أن مزاج هذا الفصل يبدو سلبياً إلى حد ما، فإنه ينبغي ألا ننظر إليه باعتباره نواحاً أو رثاء. إن هناك، حتى وأنا أسطر هذه الكلمات، مئات من أصحاب المواهب الرفيعة جداً والحماس الشديد عاكفين على اكتشاف السبل الناجحة لتحسين مستوى تعليم العلم في البلاد. وها نحن نرى الوكالات الفيدرالية تصب الأموال وتبذل الجهد في هذا النطاق أيضاً. مثال ذلك أنني أشارك مع لجنة تابعة للأكاديمية القومية للعلم والمسئولة عن استعراض ومراجعة برامج وتنفق هذه الوكالة عشرات الملايين من الدولارات سنوياً على k-12 «ناسا» في تعليم مرحلة هذا المشروع (وأكثر من هذا أيضاً من أجل دعم الدارسين من خريجي العلوم والهندسة). وتعمل وكالات أخرى على تحقيق الهدف نفسه عن طريق مطالبة من يتلقون منح البحوث بأن يخصصوا قدرًا من أموالهم لمصلحة برامج تعليمية متطورة. ومن ثم نرى أن الصورة ليست قاتمة تمامًا. على الرغم من قسوة المشكلات التي أريد مناقشتها.

المدرسة الابتدائية والمتوسطة

بين المعلمين توافق عام في الرأي على أن ما أسميه التحول العظيم في اتجاه العلم يقع أحياناً حول سني المدرسة الوسطى أو السنوات الأولى من المرحلة الثانوية. ويبدو أن الفضول المعرفي السوي إزاء العالم يتحول إلى ازدراء بل وربما إلى خوف من الأمور العلمية. ويدرس كثيرون كيف ولماذا يحدث هذا. وثمة قائمة بالشكوك العادية تتضمن الضغط والإجهاد المتواصل، ومواقف الأبوين والإحساس بصعوبة إنجاز العلم، علاوة على أمور أخرى.

ولنا أن نقول في عبارة واحدة كم هو عسير أن نعرف لماذا تنشأ مشكلة خاصة بتعليم العلم. إن الأطفال بطبيعتهم فضوليون للمعرفة، ونرى الطفل البالغ من العمر خمس سنوات بوسعه أن ينحني ناحية فراشة أو خنفساء يراقبها فترات طويلة تتجاوز الفترة العادية لانتباه الطفل. ونرى طفلاً في العاشرة من العمر يقضي فترة ما بعد الظهر بطولها على الشاطئ يجمع في دأب كنزاً من الأصداف والصخور، أو كمّاً من قطع صغيرة يضطر الأبنون إلى حملها معها عند العودة إلى البيت. وهذا الفضول المعرفي هو المادة الأولية التي يتغذى عليها العلم. وهو الذي يشكّل الأساس والحافز للبحث عند الكبار. وبهذا المعنى نرى أن الأطفال بطبيعتهم مهتمون بالعلم. لكن شيئاً ما يغير كل هذا في المرحلة المتوسطة.

وثمة تجربة شخصية توضح مشكلة كبرى تتعلق بتعليم العلم في هذا المستوى المدرسي. تصادف أن ابن أحد زملائي وابنتي الكبرى في عمر واحد، وبذا يتلقيان مقرراً تعليمياً واحداً في العلوم في مدرستيهما. وأذكر أنه بسبب الطبيعة الخاصة المميزة لجغرافية العاصمة التحق ابن زميلي بمدرسة في ميريلاند بينما التحقت ابنتي بمدرسة في فرجينيا. لكن المدرستين تقعان وسط ضاحيتين موسرتين زاخرتين بأولياء أمور على حظ مرتفع من التعليم، ولهم أعمالهم التي تشغلهم. وتحتل المدرستان صدر قائمة تضم مائة مدرسة في أمريكا، وفق الترتيب السنوي الذي تقدمه مجلة نيوزويك.

على أي حال وصل المقرر الدراسي في أثناء التدريس إلى باب علم الأرصاد الجوية. ويمثل الطقس أحد الموضوعات التي يهتم بها الأطفال بطبيعتهم، إذ كم من المرات تلقى الآباء والأمهات أسئلة من أطفالهم عن السحب، ما هي، وكيف تمطر؟ بيد أن ابن صديقي أعطته المدرسة قائمة تضم أكثر من 20 آلة من آلات الرصد لحفظها. فهل تُصدّق أنها لم تكن قائمة بكلمات مع تفسير !الأهميتها، بل مجرد قائمة للاستظهار؟

وغني عن البيان أن زميلي كان مستثاراً غاضباً. وعلمت بكل ما دار من القيل والقال، ولذلك حين جمعتي العشاء مع ابنتي، سألتها عما إذا كانت تعرف شيئاً عن الهيجروميتر الدوار (جهاز قياس درجة الرطوبة النسبية في الجو)، [إذ كان هو أحد بنود القائمة]، فأجابتنى ابنتي: «آه، نعم... إنه إحدى الأدوات التي تحملها إلى الخارج وتدور حول نفسها لقياس الرطوبة في الجو...». ووضح من لغتها أن صفها الدراسي خرج بالفعل إلى الفناء واستخدم الجهاز، وليس مجرد حفظ الاسم. وشعرت بالراحة النفسية عند سماعي ذلك منها، خاصة بعد كل المبالغ التي

دفعتها ضريبة عقارية! لكن هذه القصة القصيرة توضح -وبشكل يقيني- مدى سهولة أن تحوّل موضوعاً علمياً للتدريس إلى شيء مواتٍ لا حياة فيه البتة.

وللأسف فإن تجربة ابن زميلي ليست حدثاً معزولاً منفرداً، إذ ثمة تقدير يفيد بأن الطالب في الصف الثامن يلتقي على الأرجح في حصة تدريس العلم بكم من الكلمات أكثر من الكلمات التي يلتقيها في حصة اللغة الإنجليزية. وليست المسألة هنا، بالأولى، مسألة قائمة تناولها الطالب، وتتضمن أشياء لا يعرفها غير اختصاصي الأرصاد الجوية، بل المسألة أنّ ما كان ينبغي أن يكون موضوعاً حياً وحيوياً وأسراً للاهتمام تحول إلى ممارسة جافة تعتمد على الاستظهار عن طريق التكرار من دون فهم. ويساورني خوف من أن طلاباً كثيرين يظنون أن العلم هو هكذا، أي إن طالب الكلية يدرس 100 مصطلح، بينما طالب الدكتوراه عليه أن يستظهر ألفاً. وهل لنا بعد هذا أن نستغرب أن الطلاب الذين عاشوا مثل هذا النوع من التعليم ينصرفون في النهاية عن الالتزام بالمقررات الدراسية الخاصة بالعلوم بأسرع ما يستطيعون؟

وحتى عهد قريب كنت أقي بالقدر الأكبر من اللوم بسبب التعليم السيئ للعلوم في المدارس المتوسطة على كليات التربية مباشرة. ولا أزال حتى الآن أسمع بين الحين والآخر صدى للعبارة القديمة «نحن نعلم أطفالاً، لا مواد دراسية» داخل الأوساط المهنية، على الرغم من أن الفكرة القائلة إن المعلم عليه أن يمتلك ناصية مادة الدراسة (علاوة على طرق التدريس) أضحت الآن أوسع انتشاراً مما كانت. ونعرف أن جانباً من هذا الانحياز ضد مادة الدراسة يرجع إلى فكرة أن هدف التعليم، على الأقل في المدارس الابتدائية والمتوسطة، هو تعزيز وترسيخ تقييم الذات وجعل الطلاب يشعرون بالثقة بأنفسهم. لكن في مثل هذا الموقف تأخذ المواد الدراسية الصعبة، مثل العلوم، وضعاً متدنياً بما أنها تشتمل على مخاطرة الفشل، وما يترتب على هذا من فقدان احترام النفس.

أود لو أقول إن هذا الاتجاه قد توارى وذوى في المدارس منذ بداية برنامج «لا لتخلف أي طفل»، لكن مناقشاتي مع المعلمين الذين يشاركونني الرأي جعلتني أشك وأرى رأياً آخر. إن فكرة أن المعلمين لهم رسم استراتيجية تهدف إلى أن تهيئ الفرصة لكل طفل لكي ينجح تبدو جيدة على الورق، لكنها تفترض أن جميع الأطفال يريدون النجاح في التعليم الرسمي التقليدي، وهو افتراض مشكوك فيه لو صح أن هناك شيئاً كهذا. ويُفترض أيضاً أن جميع المواد الدراسية يسهل امتلاك ناصيتها جميعاً بالتساوي، وهو أمر ليس صحيحاً على وجه القطع واليقين بالنسبة

إلى العلم والرياضيات. وهكذا نجد أنفسنا في الأغلب الأعم في موقف تتعين فيه حماية الأطفال من الفشل بغية تعزيز صحتهم الانفعالية، من دون أن نطالبهم في الوقت نفسه ببذل جهد كافٍ يهيئ لهم إمكان التفوق الحقيقي في مواد دراستهم.

ونجد المثال الأخير للنتائج المترتبة على هذا النوع من المواقف معروضاً في تقرير يحمل عنوان «تعليم العلوم والرياضيات في عصر كوكبي». ووضعت هذا التقرير جمعية آسيا في العام 2006. ويعرض التقرير من خلال رسوم بيانية، جنباً إلى جنب، نتائج Society دراستين. تُبين إحداهما النسبة المئوية من طلاب الصف الثامن في عدد من البلدان المختلفة الذين حصلوا على درجات متقدمة في اختبار معياري لتحصيل الرياضيات. ويكشف (من دون أن تدهش لذلك) عن أن الفائزين هم طلاب البلدان الآسيوية (سنغافورة وتايوان وكوريا الجنوبية وغيرها) بنسب مئوية تتراوح بين 24 في المائة و44 في المائة. وجاءت درجات الطلاب الأمريكيين 7 في المائة. ويعرض الرسم البياني الثاني النتائج التي حصل عليها هؤلاء الطلاب أنفسهم في اختبار الثقة بالنفس. هنا كان الأمريكيون في الصدارة، حيث 50 في المائة من طلابنا واثقون بأنفسهم وبأنهم متميزون في الرياضيات. (مثال للدلالة على ذلك هو أن أطفال جنوب إفريقيا الذين حصل 35 في المائة منهم على درجات متقدمة في الاختبارات العلمية، حصل فقط 20 في المائة منهم على درجات تؤكد الثقة بالنفس).

وللأسف فإنني التقيت كثيرين جداً من المعلمين (خصوصاً من يعملون مديرين لمدارس ابتدائية ومتوسطة)، وبدا لي أنهم يرون أن هذه العملية التي تستهدف بناء الثقة في الفراغ بدلاً من أن تنبني على أساس التحصيل الصلب هي -عملياً- الهدف الصحيح للنظام المدرسي. وأدركت أن هذا موقف محبط للغاية، ويكفي أن أشير إلى أن عينيَّ وقعتا مصادفة على مقال كنت كتبتة في ثمانينيات القرن العشرين. وعلقت فيه على دراسة مماثلة أفضت إلى نتائج تماثل -على نحو مثير للأسى- تلك النتائج التي تضمنها تقرير «جمعية آسيا». وتوضح هذه الدراسة أن طلاب كوريا الجنوبية فرغوا أولاً من اختبار تحصيل الرياضيات، وكان الأمريكيون هم الأخيرين. وعندما جاء الدور على تقييم عبارة «أنا متميز في الرياضيات» أجاب 68 في المائة من الطلاب الأمريكيين بالإيجاب، ما يشير إلى أن تعليمهم جعلهم في الحقيقة «يشعرون بالرضا عن أنفسهم». لكن عندما أجاب الكوريون الجنوبيون عن السؤال نفسه وجدنا 24 في المائة فقط منهم هم من أجابوا بنعم.

وثمة بوادر لحسن الحظ تشير إلى أن المحتوى في سبيله إلى أن يستعيد مكانته في المؤسسة التعليمية، وأضحت أغلبية الولايات تشترط الآن حصول المعلمين على درجة البكالوريوس في مبحث علمي محدد قبل مواصلة دراستهم المتقدمة الخاصة بالتعليم نفسه. وجدير بالذكر أنه قبل بداية هذا التغيير المحمود كان المعتاد هو توقع أن يدرس المعلمون موضوعات علمية ليسوا متمكنين منها. وطبيعي أن أي معلم (بما في ذلك المؤلف نفسه) في مثل هذا الموقف سيشعر بعدم الارتياح، وكذلك ليس عسيراً أن ندرك صعوبة نقل الاهتمام (فضلاً عن الحب) للعلم لدى الدارسين في مثل هذه الظروف.

وإحال أن مثل هذا الموقف يثير الانزعاج خصوصاً لدى مستوى التعليم الابتدائي. إن مستوى المعرفة العلمية اللازم لتعليم تلميذ في هذا المستوى ليس أبداً مستوى رفيعاً متقدماً، ولنا أن نسأل في نهاية المطاف: ما مدى تعقد أسئلة تلميذ في السادسة من العمر؟ وأود أن أؤكد أن المطلوب بالنسبة إلى المعلمين هو أن يشعروا بالراحة والألفة مع المادة الدراسية حتى لا ينقلوا إلى تلاميذهم إحساسهم بعدم الراحة (إن لم نقل الحرج والخوف). ومن ثم فإن ما يحتاج إليه حقاً معلمو المدرسة الابتدائية هو إطار المعارف الذي سمّيته «المعارف الأولية العلمية». وأذكر على سبيل المثال أن ابنتي وقتما كانت في المدرسة الابتدائية أدركت وزميلاتها وزملاؤها، بوضوح، أن معلميهن يشعرون بعدم الارتياح وهم يُدرسون وحدات دراسية عن الفلك. وقدمتُ إلى المدرسين برنامجين إرشاديين للتدريس بشكل غير رسمي خلال فترات ما بعد الظهيرة عن هذه المادة الدراسية، لم أقدم شيئاً تقنياً متخصصاً، بل فقط نوعاً من الأفكار والموضوعات التي سوف أدمجها فيما بعد ضمن مقررات المعارف الأولية العلمية. وأعطيتهم ما يكفي فقط لكي يشعروا بالارتياح والألفة مع المادة الدراسية. وأخبروني بأن التجربة أدت إلى تحسن عملية التدريس على نحو يفوق كل تقدير.

وكثيراً ما أتذكر هذه التجربة عندما أفكر في إعداد معلمي المدارس الابتدائية في معاهد التربية وإعداد المعلمين. وأتساءل: كم من المعارف العلمية الأولية والعامة سوف تتضاعف إذا ما اشترط المسؤولون على جميع معلمي المستقبل تلقي مقرر دراسي في المعارف العلمية الأولية، بالإضافة إلى المقررات الخاصة بمناهج التدريس؟

وأخيراً، حري بنا أن ندرك أن العلم يجب ألا يبدو موضوعاً غريباً لا يلقى ترحيباً في المدارس الابتدائية والمتوسطة، إذ لا شيء بطبيعته مناهض للعلم فيما يتعلق بالمراهقة. ويبدو لي أن

الفتيان والفتيات في أوروبا واليابان قادرون على استيعاب كميات من المعارف العلمية التي لا تبدو استثناءً مذهلاً وفق المعايير الأمريكية. كذلك ليست المراهقة هي الفترة التي يشعر فيها الصغار -بالضرورة- بالرغبة في أن ينأوا بأنفسهم عن محاولات تبدو صعبة، إذ كم عدد الموسيقيين والرياضيين الذين أصبحوا منذ البداية جادين بشأن مستقبل حياتهم العملية خلال فترة المراهقة من عمرهم؟ ويبدو لي أن اهتمام الطفولة بالطبيعة من شأنه أن يفيد كرسمال ثمين يمكن للتلاميذ استثماره لتجاوز الفترة الصعبة، عندما يأخذ تعليم العلوم صورة أكثر صعوبة من مجرد مراقبة الخنافس والفراشات.

الآن، وقد فرغت مما قلت، أرى لزماً أن أضيف أن بعض التجارب الحديثة جداً بشأن تطوير الكتب الدراسية (فضلاً عن زواجي بمعلمة ماهرة في المدرسة المتوسطة) هيا لي الوصول إلى تقييم جديد عن جوانب لتعليم العلم والتي لا تنبثق من العلم ذاته. لقد واتاني خاطر التنوير وأنا في مؤتمر منعقد في المقر الرئاسي لناشري ماكدوجال -ليتل في إيفانستون (قريبة من شيكاغو). وتملك هذه الشركة تاريخاً طويلاً في مجال نشر كتب دراسية للمدارس الابتدائية والمتوسطة في مواد دراسية مثل الأدب والتاريخ، وأنشأت فرعاً للعلم. وكنت في الاجتماع شأني شأن «المرء القانع» إذ شعرت، شأن أغلبية العلماء، بأنه ما دام المحتوى في نصابه الصحيح فلا حاجة إلى مزيد. ودرت ببصري حول المائدة، وأدركت أن كل واحد من الحاضرين، رجالاً ونساء، إنما حضر لأنه خبير في مادة ما؛ المقرر الدراسي، أو مستوى القراءة، أو اللغة الإنجليزية كلغة ثانية... وهكذا. وفجأة خطر ببالي أن مجرد توافر المحتوى الصحيح ليس سوى عنصر واحد، وإن كان بالغ الأهمية، بل إنه جزء من صورة أكبر. وقلت في نفسي إننا لكي ننجح يجب أن يكون كل شيء في وضعه الصحيح، ولا نقتنع بالمحتوى فقط. وأود أن أقول إن هذه الخبرة هيأت لي تقييماً أعمق مما كان لدي في السابق عن مشكلات التعليم قبل الثانوي.

علمتني هذه التجربة شيئاً هو أن الرؤى النقدية الشعبية التي تلقي بالمسؤولية على المدارس وعلى المعلمين محدودة القدرة من حيث مساعدتها على حل مشكلة المعارف الأولية العلمية، وسوف يتضح لنا ونحن نمضي في طريقنا قدماً صاعدين السلم التعليمي في هذا الفصل أن هناك كثيراً من أسباب اللوم المختلفة. وتجدر الإشارة إلى أن الموقف المعياري الذي أصادفه بين الأقلية من زملائي في الجامعة، ممن يعينهم التعليم قبل الثانوي، يتمثل أساساً في عبارة «حسن، ها هو العلم، وها هنا نهاية مسؤوليتي». لكن العلماء يجب أن يكونوا، على أقل تقدير، أكثر

إدراكًا للتعقد غير المحدود للمشكلات غير العلمية التي يتضمنها التعليم في المدارس الابتدائية والمتوسطة، وربما أن يكونوا أيضًا أقل ثقة بأنفسهم من حيث سلامة الرأي. وأقول صراحة: إنني لا أعرف أيًا من علماء الجامعات لديه القدرة على الصمود يومًا واحدًا مع الصفوف الدراسية لتلاميذ في الثالثة عشرة من العمر، أو أعرف أنني كذلك.

وحري بي أن أشير إلى أنني إذا ما أردت توضيح هذه النقطة في محاضرة عامة فإنني كثيرًا ما أوضحها لنفسني نظرًا إلى سهولة الحديث إلى جمهور كبير من المستمعين. وهذا ما أفعله دائمًا. ثم أقول بعد ذلك -وبصدق كامل- إن المرة الوحيدة التي يواتيني فيها الخوف قبل الظهور أمام جمهور عام هي المرة التي أجد فيها لزامًا عليّ أن أتحدث إلى ابنتي التي هي في الصف الثالث عن المغناطيسية.

وأحسب أن في هذا الكفاية.

المدرسة الثانوية

هنا لا نجد -فيما يبدو- أي سبب وحيد يبرر التحول الكبير، لكن يبدو لي أن المدارس إذا تقاعست عن تقديم العون فلا أقل من أن تكف عن إحداث أي ضرر. وتشير كل الدلائل -للأسف- إلى أنها لا تؤدي حتى هذا الدور الحيادي، إذ إن سنوات التعليم في المدارس الثانوية هي استطراد للتعرف عن العلم الذي بدأ في مرحلة مبكرة. وهكذا نجد 23 في المائة فقط من طلاب المدرسة الثانوية الأمريكية هم من يتلقون ثلاث سنوات مقررات في كل من مادتي الرياضيات والعلوم، وأقل من 15 في المائة منهم يدرسون مقرراتًا في الفيزياء. ونلاحظ أن الطلاب حين يدرسون مقررات من هذا النوع إنما يدرسونها فقط للوفاء بشروط الالتحاق بالكلية، وليس التزامًا بالشروط التي فرضتها الولاية أو المجالس المحلية للمدارس.

والشيء الأشد غرابة هو أن التركيز على شروط الالتحاق بالكلية يمكن أن يؤدي إلى الإضرار بتعليم العلم بوسائل أخرى. ويسود اعتقاد (أراه صحيحًا) هو أن مقررات دراسة العلم دراسة جادة صعبة على كثيرين. وهكذا فإن الطلاب الذين يتلقون مقررات في العلوم أكثر مما هو ضروري بشكل مطلق إنما هم في الواقع يخاطرون بمتوسط الدرجات التي يحصلون عليها، ومن ثم يكون التحاقهم بالكلية على المحك. معنى هذا أنه في الوقت الذي يكون لسياسات الالتحاق بالكلية دور في حفز طلاب المدرسة الثانوية على تلقي مقررات دراسية في العلوم، إذا بها

أيضاً لها دور في صرفهم عنها. لكن سواء تعلق الأمر بالالتحاق بالكليات من عدمه تظل الحقيقة الواقعة، وهي أن الطلاب الأمريكيين مع التحاقهم بالمدرسة الثانوية يكونون في وضع يحفزهم على تجنب العلم حيثما كان ذلك ممكناً، فضلاً عن أن المدارس الثانوية لا تبذل سوى القليل من الجهد لتغيير الموقف.

ووفق تقديري فإن تعليم العلم، على الأقل في مدارس الحضر والضواحي داخل المقاطعات ذات التمويل الجيد، للطلاب الذين يتلقون مقررات دراسية تمهيدية في المدارس الثانوية يسير في وضع جيد. ونعرف أن معلمي المدارس الثانوية يؤثرون تلقى عدد محدود -على الأقل- من المقررات الخاصة بالمباحث العلمية التي يدرسونها والحصول على شهادة خاصة بمادة الدراسة. علاوة على ذلك، أفاد تعليم العلم في المدرسة الثانوية من واقع أن كليات الجامعات كثيراً ما تعيد النظر إلى المراحل الأولى من خط الأنابيب وصولاً إلى المدرسة الثانوية وتشارك، من باب الحرص المستنير على المصلحة الذاتية، في تعلم العلم بالمدرسة الثانوية. جدير بالذكر أن مقرر دراسة الفيزياء الذي حددته لجنة دراسة علم الفيزياء التي تحدثت عنها في الفصل الثامن يستخدم على نطاق واسع بين أفضل الطلاب العازمين على الدراسة العلمية. وتلوح اليوم بعض الدلائل التي تشير إلى موجة جديدة من الاهتمام ربما توجه أنظار علماء الجامعات ثانية إلى المدارس الثانوية لتكون محط اهتمامهم.

لكن حتى لا يتولد لدينا إحساس بالزهو الكاذب حري بنا أن نوضح أن القدر الأعظم من الاهتمام البادي اليوم بتعليم العلم يستهدف تخريج علماء ومهندسين للمستقبل، وليس معالجة المشكلة العامة الخاصة بمحو الأمية العلمية. ويبدو في الواقع، وبالنسبة إلى الطلاب ممن هم خارج صفوف الفرق الأفضل المعنية بدراسة العلم، أن القوى المؤثرة في المدارس الثانوية تعمل متحالفة وبقوة ضد اكتساب المعارف الأولية العلمية. ونظراً إلى أن المدارس المتوسطة لا تبذل أي جهد للحيلولة دون التحول السلبي الكبير فإن الطلاب غالباً ما يدخلون المدرسة الثانوية ولديهم الرغبة في تجنب العلم قدر المستطاع. ويجدون أنفسهم في مواجهة عروض عن العلم مجزأة ومقسمة إلى أقسام مستقلة بعضها عن بعض، ومطلوب منهم انتقاء أحدها لدراسته بغية «استيفاء شرط العلم». ويجدون أنفسهم مجبرين على الاختيار بين مقررات تحمل اسم الفيزياء والبيولوجيا والعلوم العامة وعلوم الأرض وغير ذلك. ويقع الاختيار على ما يروونه الأفضل بذكانهم، في ضوء أسلوب عمل المنظومة الدراسية. ويعمدون إلى اختيار الحد الأدنى من

المقررات اللازمة من بين المقررات التي شاع عنها أنها الأسهل، وهو الأسلوب الذي يتكرر عند التحاقهم بالكليات.

وهنا نشير إلى أن تجزئة العلم إلى قطاعات يقصي أحدها الآخر (فيزياء، كيمياء، بيولوجيا، فلك، إلخ)، مع اقتران ذلك بفكرة أن الطلاب في حاجة إلى أن يدرسوا فقط أقل القليل منها ليتعلموا العلم إنما يمثل ظاهرة تطفو على السطح لأول مرة في المدرسة الثانوية. وتعود إلى الظهور في صورة أشد ضرراً في المستوى الجامعي. وسوف أناقش فيما بعد تهافت هذه الفكرة عقلياً، لكنني أكتفي الآن بالإشارة إلى أن الطلاب الذين اختاروا -كمثال- دراسة علوم الأرض سيكونون على الأرجح عاجزين عن قراءة مقال عن الهندسة الوراثية وفهمه، بينما من اختاروا دراسة البيولوجيا ربما يجدون أنفسهم ضائعين حين يتعلق الأمر بفهم زلزال وقع في سان فرانسيسكو.

إننا، في أفضل الأحوال الممكنة، نتوقع أن يكون خريجو المدرسة الثانوية حاصلين على المعارف الأولية العلمية؛ أي مُحيت أميتهم العلمية، إذ ليس شرطاً أن يحصل المرء على درجة الدكتوراه لكي يقرأ صحيفة. لكن في ضوء نظام المواد الدراسية الاختيارية المقسمة إلى أقسام مستقلة بعضها عن بعض نجد أن أفضل ما نتوقعه هو ألا يكون الطالب عازفاً عن العلم في المدرسة الثانوية. ويبدو واضحاً أن لا سبيل تقريباً أمام الطالب الأمريكي من خريجي المدرسة الثانوية لاكتساب المعارف العامة التي تشكّل قواسم الإطار العام الضروري للمعارف الأساسية. والحقيقة أننا في ضوء النظام التعليمي الابتدائي والمتوسط، الذي فرغنا لفورنا من تحليله، لنا أن ندهش إذا ما وجدنا أي شخص في بلادنا تتوافر لديه الثقافة العلمية.

الجامعة

وماذا عن الجامعات؟ النظرة السائدة عن التعليم العالي الأمريكي، عن حق تماماً، أنه الأفضل في العالم، خاصة على المستوى الجامعي. يلتحق الطالب بالجامعة وقد تهيأ بالفعل لحياة العمل في العلم أو الهندسة، وقد توافرت له المصادر وأوقات الدراسة التي تتزايد كمياتها أكثر وأكثر على امتداد خط الأنابيب الذي يتقدم معه الطالب وفق مراحل دراسته. لكن، وكما كانت الحال في المدارس الثانوية، لا نجد اهتماماً بمشكلة تعليم من لم يخططوا لأنفسهم ليكونوا علماء.

ولقد توافرت لي، بحكم عملي عالمًا بالجامعة، فرصة كافية لأرى كيف تكون ردود أفعال زملائي إزاء مشكلة تعليم غير العلماء. ومن ثم استطعت، بناء على ذلك، أن أطور بعض الأفكار المحددة (وإن خلت من المجاملة) عن الأسباب في أن الجامعات لا تبذل سوى جهد ضئيل من أجل إعداد جمهور توافرت لديه المعارف الأولية العلمية. وأحد هذه الأسباب هو التذني الشديد لحالة تعليم المواد الدراسية (بما فيها العلم) في جامعاتنا. والآخر التحالف الغريب الذي نشأ لمعالجة مكانة العلم في المقرر الدراسي العام.

وتسود نظرة عامة، إن لم نقل مثالية، عن الجامعات التي نرى فيها مستودعات المعرفة البشرية، والحصون المغطاة بشجر اللبلاب المخصصة للتعليم حيث تتراكم حكمة ثقافتنا وتنتقل منها إلى الجيل التالي. وأعترف بأنني اقتنعت بهذا المثل الأعلى، وكم أود أن تقترب منه جامعاتنا! لكن إذا ما ذهب بك الظن إلى أن الجامعات الكبرى في القرن الواحد والعشرين هي الساحات التي يناقش فيها الطلاب معنى الحياة، وهم يمشون الهوينى عبر الغابات في رفقة أساتذة ذوي شعر أشيب، فإنك من دون شك لم تعرف -من كتب، ولفترة طويلة- حال الجامعات أخيرًا. وأتذكر هنا حفل عشاء شاركت فيه منذ سنوات في إحدى الجامعات الكبرى في الشمال الشرقي. وتحدث أحد الضيوف غير المنتسبين إلى الجامعة، وأوضح أنه ظن أن تعليم الطلاب قبل التخرج له الأولوية القصوى في هذه المؤسسة تحديدًا. وبعد لحظة من الصمت الخجول الذي ران على الحضور من أبناء الجامعة، نهض أحد كبار أساتذة قسم علم النفس وابتسم ابتسامة «حزينة وقال: «ملاحظة مؤثرة للغاية».

إن ما أثار حالة الصمت الخجول والملاحظة التهامية -إلى حد ما- التي أعقبت الصمت هو إدراك أن التعليم في جامعات اليوم، خصوصًا تعليم الطلاب قبل سن التخرج، لا يحظى بأهمية كبيرة. وواقع الحال، ووفق وجهة نظر هيئات التدريس الجامعي، لم تعد وظيفة الجامعة هي التعليم، بل توفير الدعم للكلية لإجازة البحوث.

ولكي تفهم ما أعنيه بهذه العبارة، حري بك أن تدرك أن هناك عمليًا جامعتين، وإن بدا ذلك عسيرًا، في كل حرم جامعي، إحداهما الجامعة المرئية (المباني والطلاب والكلية وهيئة التدريس)، وطبيعي أن الجامعة المرئية هي التي نتحدث عنها في كل الأوقات تقريبًا، سواء عند مناقشة السياسة التعليمية، أو حظوظ فريق كرة القدم، أو أحدث الإضافات إلى ساحة التقانة

العليا الصناعية عند نهاية الطريق. ويمكن القول، من وجهة نظر فكرية، إن الجامعة المرئية منظمة على نحو أفقي ولها أفرع معرفة مختلفة متجاورة

ولكن توجد جامعة غير مرئية أيضاً، مؤلفة من عدد كبير من الكليات غير المرئية المتوازية، ولكن لا رابط بينها. وتتألف هذه المؤسسات غير المرئية من باحثين تتركز جهودهم في مجال بعينه. مثال ذلك الفيزيائيون المتخصصون في الطاقة العالية، إذ يؤلفون معاً كلية غير مرئية، ويؤلف علماء البيولوجيا الجزيئية كلية أخرى، ويؤلف الباحثون الاقتصاديون النظريون كلية ثالثة. ويتجمع عدد من الكليات غير المرئية الصغيرة لتؤلف معاً كليات كبرى، إذ يمكن لخمسة أو ستة تخصصات فرعية أن تنضم إلى بعضها لتؤلف -كمثال- الكلية غير المرئية للفيزيائيين. معنى هذا أن الكليات غير المرئية هي -إلى حد ما- المكافئ لأقسام الجامعة: الفيزياء واللغة الفرنسية والإنجليزية، وهكذا. وتؤلف معاً ما أسميه الجامعة غير المرئية. لكن الجامعة غير المرئية، على خلاف نظيرتها، منظمة على نحو أفقي وفقاً لمادة الدراسة

جدير بالذكر أن كل عضو في الكلية مدين بالولاء لكل من الجامعتين. وأظن أن هذا كان موقف الباحثين منذ نشأة الجامعات أول الأمر في أواخر العصر الوسيط. ولقد كان هناك دائماً قدر معين من التوتر بين الولاعين، نظراً إلى أن كلاً من الجامعتين لها مطالب مختلفة، ذلك لأن الجامعة المرئية معنية بتعليم الطلاب الذين التحقوا بها مثلما هي معنية بكل شيء، ابتداءً من الألعاب الرياضية وحتى إصلاح المقررات الدراسية. لكن الجامعة غير المرئية على خلاف ذلك، إذ إنها معنية بشيء واحد فقط، هو البحث العلمي المتعمق

وتمثل الحياة بهذه المطالب الانفصامية التحدي الأعظم للحياة الأكاديمية. ولكي نعرف لماذا، حري بنا أن نتأمل واقع أن شهرة الجامعة تعتمد أولاً وأساساً على شهرة أعضاء كل كلية على حدة. إن كل خبرات الحياة الأكاديمية الحديثة، الدعم المالي الفيدرالي للبحث العلمي والدراسات العليا، والمشاركة الفاعلة في البرامج الوطنية والدولية، والتنويه المحمود في المنشورات ذات المكاتبة، كل هذه الخبرات من فيض الشهرة. ولهذا تحرص الجامعات المنشأة حديثاً والجامعات العريقة على المحافظة على مكائنها في هذا الاتجاه. ولذلك فإن الكلية ذات المكاتبة الرفيعة تجذب الأنظار، ويتودد الآخرون إليها بالحماس نفسه الذي نشهده مع الجولة الأولى لفريق الكرة القومي.

وحدث منذ الحرب العالمية الثانية تحوُّل أساسي في العلاقة بين الجامعتين، في حدود ما يتعلق بقدرة كل منهما على التأثير في سمعة الأخرى، وإن استقر توازن القوى الآن -وبقوة- لمصلحة الجامعة غير المرئية. وكذلك فإن الحكم على شهرة أعضاء أي كلية إنما يتم فقط على أساس المشاركة الجادة في الجامعة غير المرئية. لكن مصطلح الشهرة أو الموقف البحثي العلمي ربما يبدو مفهومًا غامضًا يصعب تحديده بدقة. ومع ذلك، فإنك إذا ما سألت أعضاء الكلية غير المرئية فإنهم عادة يعطون تقييمات متماثلة لعضو آخر تمامًا مثلما يحدث مع أعضاء فريق رياضي، إذ يتفقون على شخص يروونه المعبر عن زعامة أعضاء الفريق حتى إن لم يستطيعوا تقديم تعريف دقيق ومحدد للمصطلح.

وأياً كان التقييم الذي تنتهي إليه الكليات غير المرئية، فإن شيئاً واحداً نراه واضحاً: التقييم هو كل ما يهم الآن في الجامعة الحديثة. إن أعضاء الكلية لكي يؤسسوا شهرتهم في الجامعة غير المرئية يتعين عليهم إنجاز البحوث ونشرها، وكما يقول المثل السائر «النشر أو الاندثار». جدير بالذكر أن الوسائل اللازمة للبحث العلمي (مثل منح البحث الفيدرالية والزمالة وما شابه ذلك) تُمنح وفق عملية معروفة باسم «الفحص الدقيق». وتُجتاز مقترحات البحوث الخاصة بأعضاء الجامعة غير المرئية (من دون ذكر أسمائهم عادة) في ضوء الفحص الدقيق، وبفضل إثبات تقييم الجامعة غير المرئية على الطلب المقدم من صاحب المقترح. وهذه العملية نفسها هي أداة الحكم على ما سوف يُنشر في الصحف العلمية ذات المكانة المتميزة. ومن ثم فإن البحث الذي يجريه الباحث ومكان البحث، بل وإجازة نشره، كل هذا رهن حكم الجامعة غير المرئية.

وبدأت أهمية الجامعات غير المرئية تزداد منذ أواخر القرن التاسع عشر، وهو الوقت الذي بدأ تحوُّل الجامعات فيه إلى مراكز بحوث وتنظيمها إلى أقسام. ومنذ ذلك التاريخ وهي تعمل كأنها -بدرجة أو بأخرى- في مرحلة تمهيدية معنية فقط بالبحوث العلمية، وهي في الحقيقة لا يمكنها أن تعمل بأسلوب آخر: إذ كيف يتسنى لإحدى الكليات في لندن أن تعرف، فضلاً عن أن تُقيم، مهمة التدريس لأحد الأساتذة في كاليفورنيا؟ لكن وإلى أن حدثت الانتعاشة الكبرى للبحث العلمي عقب الحرب العالمية الثانية، كان تقييم الجامعة غير المرئية يتوازن دائماً مع تقييم معادل له يصدر عن الجامعة المرئية. وتتضمن هذه المعادلة للتقييم، التي تنبني على أساس واسع النطاق، مواد عديدة من مثل التدريس والخدمات التي يجري تقديمها للجامعة والمجتمع المحلي. لكن اليوم تهيمن قيم الجامعة غير المرئية على قرارات نظيرتها المرئية. ويمتد تأكيد الشهرة

والبحوث العلمية بحيث يؤثر حتى في القرارات الداخلية للجامعة المرئية الخاصة بالتطوير وأول شيء تستهل P & T والمكانة. وتنجز هذه العملية عادة لجنة تحمل اسم الترقى والتعيينات به اللجنة عملها هو «استطلاع مصادر التوثيق الأولى»، وهذه عبارة اختزالية، تعني سؤال عدد مختار من أعضاء الجامعة غير المرئية لتقديم تقييم من دون ذكر الاسم عن موقف المرشح بالنسبة إلى نظرائه. وطبعي أنه في حالة عدم وجود تعقيبات إيجابية من هذه المصادر يصبح الترقى أمرًا غاية في الصعوبة في جامعة اليوم.

وتتصف استجابة الكلية إزاء هذه الأمور بالعقلانية، وإن كانت مؤسفة، إذ لو أن الترقى والولاية والراتب سوف تعتمد فقط -والى حد بعيد- على الموقف البحثي العلمي فإن هذا يعني أن ما يتعين فحصه هو فقط الموقف البحثي. ونظرًا إلى أن الموقف البحثي تحدده الجامعة غير المرئية فسوف تنجز الجامعة غير المرئية كل الأمور والموضوعات التي تخضع لتقييمها. وأي شيء آخر أقرب إلى الفهم من هذه الاستجابة

وللأسف فإن السلوك الذي يفيد على أرجح تقدير الفرد من أعضاء الكلية هو تحديد السلوك الذي يفيد على أدنى ترجيح تعليم طلاب الجامعات قبل سني التخرج. والملاحظ في الحقيقة على مدى الخمسين عامًا الأخيرة حالة من الفرار الجماعي من التدريس في كليات جامعاتنا. وطبعي، وفق ما يمكن أن يتنبأ به أي اقتصادي أو عالم نفس، أنه حين تنشأ منظومة لإثابة سلوك معين ومعاقبة آخر فإن السلوك المثاب سوف يهيمن عمليًا. ونلاحظ في هذه الحالة أن إثابات الحياة الجامعية تتجه إلى من ينجحون في البحث العلمي، نظرًا إلى أن هذا هو مناط تركيز جل الجهد الأكاديمي. ونعرف أنه في صيف 2007 أصدرت جامعة هارفارد تقريرًا بشأن سيطرة هيئات التدريس في تلك المؤسسة بهدف التصدي للمبالغة في تأكيد البحث، وهو الأمر الذي ناقشناه هنا. وعلق أحد الفيزيائيين على الموقف الراهن بقوله: «أتمنى حطًا سعيدًا لزملائي في هارفارد وإنجاز التوصيات الواردة في هذا التقرير الجديد، لكنني صراحة لست متفائلًا جدًا بشأن فرص النجاح»(1).

وكم هي عسيرة المبالغة في تقييم الآثار السلبية التي تركها تأكيد البحوث وأضرت بالتدريس على المستوى الجامعي. والمسألة حسبة بسيطة على أحد المستويات. اليوم به 24 ساعة فقط، طبيعي أن أي وقت يخصصه الباحث الأكاديمي لتحسين التدريس هو بالضرورة وقت لا سبيل إليه ليقضيه في عمل بحوث. وهذه حقيقة تعترف بها صراحة أغلبية الجامعات. ونذكر على سبيل

المثال أنه في مطلع سبعينيات القرن العشرين تلقى أستاذ مساعد جديد بإحدى الجامعات الكبرى نصيحة صادقة الود من رئيس القسم الذي يتبعه، إذ قال له: «إذا قضيت أكثر من 10 في المائة من وقتك في التدريس فإنك بذلك ستضر بفرص الترقى إلى أستاذ». وحتى أكون أميناً تماماً فإني سوف أقدم النصيحة ذاتها لأي عضو من أعضاء هيئات التدريس ممن يلتحقون بأي جامعة اليوم. هذا على الرغم من أنني قد أرفع النسبة المئوية من 10 في المائة إلى 20 في المائة. وهذا ليس من قبيل السخرية، بل مجرد تقييم بسيط لأسلوب المنظومة في العمل.

وجدير بالذكر أن نظام الإثابة الذي وصفناه يعمل بكل قوته في أقسام العلوم، وربما أكثر من أي مجال آخر. ونلاحظ في الواقع أنه خلال العقدين الأخيرين حدث مزيد من الصقل والتشذيب بحيث لا يكون الحكم على أعضاء هيئة التدريس في الكلية على أساس جودة البحث أو عدد المنشورات، بل على أساس كم الدولارات الممنوحة لأبحاثهم. أو لنقل -بعبارة أخرى- إنه أصبح ممكناً الآن في كثير من أقسام العلوم أن يتحقق شعار النشر أو الاندثار.

ونلاحظ أن الأغلبية العظمى من الجامعات تتحدث بلسان معسول عن أهمية التدريس، لكن عند الأزمة تدرك الكلية أن البحوث هي الأهم. وأشهد أنني طوال خبرتي العلمية الأكاديمية لم أسمع قط عن أن أستاذاً رُقي على أساس التميز في التدريس، بينما سجله البحثي يؤكد أنه غير كافٍ. بيد أنني شهدت العديد من الحالات حيث العكس هو الصحيح، بمعنى أن الباحث الجيد يُرقى على الرغم من واقع أنه كارثة محدودة داخل قاعة الدرس. ويسعني الآن أن أتذكر ما حدث من تبادل للرأي في ختام اجتماع ممتد ومشحون بالضغينة عقدته لجنة الترقيات والتعيينات في إحدى الجامعات الكبرى، إذ أكد أحد الأعضاء أن الجامعة اشترطت التميز في كل من المنح الدراسية والتدريس. لكن عضواً آخر مؤرخاً عازفاً كثيراً عن الأسلوب المنمق في الحديث، وقد انتهى الاجتماع الطويل إلى خفض مستواه أكثر مما كان، انفجر في الحديث قائلاً: «هذا [كلام خارج محذوف]... نحن نطالب بتميزهم في البحث والأسيء تدريسهم إلى سمعة البيت». ويبدو لي أن هذا تقييم منصف، وإن بدا فظاً، للتقييم النسبي الذي نعزوه إلى الرسالتين الرئيسيتين للجامعة الحديثة.

وإذا كان تشوش القيم في وقت الترقى هو النتيجة الوحيدة الناجمة عن المبالغة في تأكيد الموقف البحثي، فإن هذا سوف يمثل مشكلة، وليس كارثة بالضرورة، للتعليم الجامعي. وإن الأخطر هو الموقف الذي ينطوي على الازدراء تجاه التدريس والذي يشجعه الوضع الراهن.

ويحدث كثيرًا جدًا ألا تقتصر النظرة إلى التدريس على أنه شر لا بد منه، واستغلال مؤسفة للوقت في غير موضعه، وهو الوقت المخصص للبحث، بل وباعتباره نشاطًا لا يمثل النجاح فيه دليلًا واقعيًا على عدم الملاءمة للحياة العملية الأكاديمية. وكثيرًا ما يسمع المرء في زوايا وأركان بعيدة داخل نادي هيئة التدريس ثمرات سوداوية عن زملاء حظيت مقرراتهم بأعداد كبيرة من الطلاب المتحمسين. ومناطق الشك هنا هو أن المقررات لا بد من أن تكون جذابة نظرًا إلى أن درجاتها قُدرت بسهولة، ومحتواها الفكري قليل.

ويوجد عمليًا قدر ضئيل جدًا من سياسة الجامعة الملتزمة بهذا الموقف، ولذلك أرى من الأفضل أن أتناول ذلك بالتوضيح. نلاحظ في الجامعات كقاعدة عامة أن عدد الطلاب المقيد في قاعات الدرس بها يمثل أحد المؤثرات القوية لتحديد حجم القسم الأكاديمي. ويجري قياس هذا والملاحظ (full-time equivalent) «معادل التفرغ» FTE «العدد على أساس ما يسمى «إف. تي. إي» أن المعادلة التي تربط الطلاب بمعادل التفرغ معقدة وتتباين قليلًا من مكان إلى آخر. ولكنها بشكل نمطي كما يلي: 100 المستوى الأدنى من الطلاب الجامعيين قبل التخرج، و30 المستوى الأعلى للطلاب قبل التخرج، أو 10-15 طالبًا خريجًا، وبذا يكتمل العدد الذي يبرر منصبًا واحدًا من أعضاء هيئة التدريس. (وإذا تساءل القارئ كيف يتسنى للجامعة أن تُقيم البحوث وتعلي من قيمتها على ما سواها بغير توزيع المناصب وفق عدد المقيد، فإن كل ما يمكن أن أقوله «مرحبًا بعالم الدراسات الأكاديمية العجيب»!).

وإذا ذهبت إلى العميد بشأن وظيفة شاغرة وتعيين باحث بارع حديث التخرج فإن الشيء الوحيد الذي يحرص عليه العميد هو النظر إلى عدد معادل التفرغ الذي يبرره عدد المقيد. ونظرًا إلى أن أقسام العلوم تضم عادة فئات صغيرة العدد، فإنها تشعر غالبًا بأنها في وضع غير مواتٍ إزاء مثل هذا الموقف. معنى هذا أن العالم الذي يجذب أعدادًا كبيرة من الطلاب تعلي الكلية من قيمته، نظرًا إلى أن هذا العدد من الطلاب سوف يسمح للقسم بأن يتقدم في أداء وظيفته البحثية. والعلماء بشر، ما يعني أن المرء سيكون موضع نظرة بها قدر من الشك (ولا بد أنه مقدم على عمل شيء ما غير صواب)، وكذلك موضع غير صريحة.

والملاحظ عمليًا أن الأقسام الأكاديمية لا تعلي دائمًا وبالضرورة من قيمة أعداد القيد الضخمة، على الرغم من إسهاماتها لمعادل التفرغ الخاص بالأقسام. وجدير بالذكر أن باحثًا مشهورًا (ليس عالمًا بل محاضر نابه) في إحدى الجامعات الكبرى في الوسط الغربي، وجد أن أعداد القيد في

مقرره الدراسي تجاوزت 300. هنا ذهب إلى رئيس القسم يطالب بمساعدة إضافية في مجال السكرتارية للحفاظ على قائمة القيد للدراسة. وتلقى الإجابة التالية: «لماذا لا تتشدد قليلاً حتى ينخفض عدد المقيدين؟».

وكم هو مؤسف أنه يكاد يكون من المستحيل المبالغة في تقييم حالة التدني التي وصل إليها التدريس في الجامعة الحديثة. ونعرف أن إعطاء الباحث عبئاً خفيفاً في التدريس يمثل أعلى المكافآت قيمة من المكافآت تلك التي تعطيها له إدارة الجامعة. وجدير بالذكر أنه في جامعات كثيرة، من أرفع الجامعات مكانة، نادراً ما يحظى الطلاب بروية عضو هيئة التدريس ذي الشهرة الواسعة، هذا إذا حدث ودرس أصلاً. إن مثل هؤلاء يدرسون فقط لحلقات البحث الخاصة بالخريجين، التي ترتبط مباشرة بموضوعات بحوثهم هم. ويكفي أن نسأل أي طالب قبل التخرج عما إذا كان يتذكر آخر وقت شاهد فيه عالماً حائزاً جائزة نوبل. وهكذا فإن أحد معالم النجاح في الحياة الأكاديمية هي أن تدرس عدداً من المحاضرات أقل من زملائك.

وثمة حكايتان توضحان هذه الفكرة. عالم فيزياء مشهور (حصل أخيراً على جائزة نوبل) في إحدى المؤسسات قضى وقتاً طويلاً يشرف على تجارب في مختلف أنحاء العالم، حتى إنه كان يشار إليه بعبارة «إنه في حالة سفر». في المناسبات النادرة التي يعود فيها إلى قاعدته في بلاده ليدرس في حلقة دراسية للخريجين.

وفي جامعة أخرى نجد أحد كبار أساتذة إحدى الكليات، الذي اعتاد أن يعبر صراحة عن سخطه بالتأكيد المبالغ فيه على البحوث والمكانة المتدنية للتدريس في جامعته المحلية، قدمت له مؤسسة أخرى عرضاً مغرياً، وإذا بإدارته المحلية تقدم له عرضاً مقابلاً تضمن أهم بنوده عبئاً تدريسياً منخفضاً جداً.

وطبيعي أن حالة التدني العام في التعليم الجامعي أثرت في جميع مجالات الدراسة، ولكنها أدت إلى عدد من النتائج المختلطة في العلوم. وسبب ذلك أن مقررات دراسية كثيرة في أقسام العلوم مخصصة لتدريب علماء المستقبل. لذلك من المؤلف أن نجد مقررات دراسية تمهيدية تستهدف المتخصصين في العلم، ويتولى تدريسها كبار الأساتذة ذوي الخبرة. وهذه في الواقع ظاهرة تكاد تكون عامة في أقسام الفيزياء المتقدمة. ويعتبر تدريس هذا النوع من المقررات التزاماً يقترن بالأقدمية، مثل مسؤولية العمل في اللجان. وحرى بنا النظر إليها باعتبارها ذروة

التزام النبالة. وعلى الرغم من أن هناك دائماً فرصة للتحسن فإن انطباعي أن تعليم علماء المستقبل في جامعاتنا في وضع جيد جداً.

ولكن حين يصل الأمر إلى التدريس لغير المهنيين، فإن الحواجز التي تواجه علماء الجامعة تبدو مروعة في الحقيقة. والملاحظ أن الأنشطة التي تستهدف رفع رصيد البلد من المعارف الأولية العلمية غير مجدية كثيراً من حيث ما تضيفه إلى بحوث أي امرئ كان. إنها لن تساعد المرء على النشر، وغير معنية بطبيعتها بفئة التزام النبالة المسؤولة عن مقررات علم «حقيقية». هذا فضلاً عن أنها يقيناً لا تفيد من حيث ما يحققه البحث من عائد مالي. ولنا أن نقول في ضوء الموقف الراهن: كم هي مجازفة نزقة في الحقيقة إذا ما عكف أعضاء هيئة التدريس على بحث المعارف الأولية العلمية!

وغني عن البيان أن هذا الوضع مدمر، خصوصاً في نطاق العلوم، وذلك لأن الطلاب ما لم تستهوههم مقررات العلوم الدراسية بفضل التدريس الجيد فإنهم لن يقبلوا عليها طوعاً. وإذا ذهب بك الظن إلى أن الجامعات سوف تحاول تخريج طلاب مثقفين علمياً، بغض النظر عن حال جموع الطلاب عند الالتحاق فإنها، على الرغم من ذلك، لن تفعل. ولهذا ظهر أخيراً بحكم الأمر الواقع حلف غير مقدس (وإن كان لا شعورياً) بين أساتذة العلوم والإنسانيات والطلاب. وخلق هذا الثالوث منظومة يمكن فيها للطالب أن يتخرج في الجامعة وهو لا يزال غير مدرك لأهم الحقائق الأساسية عن العالم الفيزيقي الذي نعيش فيه وعن التكنولوجيا التي تصوغ حياتنا. وأقر بأنني في الواقع شاهدت دراسات تشير إلى أن الثلث تماماً من طلاب الجامعات بوسعهم الحصول على درجة البكالوريوس من دون أن يدرس أي منهم مقرراً واحداً في العلم على الإطلاق.

إنني، لكوني عالماً، أدرك جيداً الدور الذي قمت به أنا وزملائي في هذه القصة المؤسفة. كثيراً ما يتحدث العلماء عن تعليم العلم في هذه الأيام، لكنك إذا ما أنصت جيداً للحديث فسوف تكتشف أنهم في الحقيقة يناقشون مشكلة خلق وتدريب الجيل التالي من العلماء والمهندسين أو جذب الطلاب وتحبيبهم في العلم. وسبق أن أوضحنا أن هذه مشكلة ملحة وعاجلة، لكنها لن تفيد كثيراً في مجال المعارف الأولية العلمية. وحقيقة الأمر أنه خلال عملية تدريب دارسي العلم فإنه يلتقي مراراً موضوع الدراسة ذاته، حيث يكون كل استعراض تالٍ أكثر إغراقاً في الرياضيات وأكثر تعقيداً من السابق عليه. مثال ذلك أن دارس الفيزياء يدرس أساسيات الكهرباء والمغناطيسية (مع استخدام الحد الأدنى من حساب التفاضل) خلال السنة الثانية الجامعية، ثم

يدرسها في المستوى المتوسط (مع حساب المتجهات) في الصف قبل الأخير، ويلتقيها ثالثاً في صورتها الكاملة خلال حلقة النقاش في السنة الأولى بعد التخرج. ويرى كثيرون من العلماء أن المرحلة الأخيرة هي وحدها فقط «المادة العلمية الحقيقية»، وأن المرحلتين الأولى والثانية مرحلتان تمهيديتان مسموح بهما لأنهما تهدفان إلى إعداد طالب امتلك ناصية المادة الدراسية بكل تعقداتها.

إن تدريس الأفكار الرئيسية الخاصة بمهنتنا لدارس العلم العادي من دون عناصرها الرياضية الكاملة يمثل خروجاً على القاعدة السوية للتعليم. وإن وصف ذلك بكلمة التخفيف يعني استخدام أكثر الكلمات تهديباً في الوصف عادة. وهذا هو المقابل لعبارة تدريس «العلم الحقيقي» (وهو المصطلح المستخدم فعلاً وراء الأبواب المغلقة). ويبدو الموقف على النحو التالي، وهو أننا ما لم ندرّس العلم وفي تفكيرنا هدف محدد وهو تخريج علماء المستقبل -يكونون نسخاً مصغرة منا- فإنه يغدو شيئاً غير ذي قيمة. ويشعر علماء كثيرون، شأنهم شأن رجال الكهنوت أصحاب الأسرار، بأن سرنا الأعظم، وهو حقيقة أن أفكار العلم المهمة بسيطة، يجب الحفاظ عليه جيداً وإخفاؤه عن الآخرين. وأستطيع هنا في الحقيقة أن أتذكر أحد كبار علماء الفيزياء النظرية، وهو يعرض هذه الحجة ليبرر رفضه التعاون مع فريق تلفاز أراد إنتاج فيلم لمنظومة الإذاعة العامة.

لكن حتى إن حدثت وواجهت أقسام العلوم موقفاً عصبياً واضطرت إلى تقديم مقررات لغير المهنيين، فإن منظمة الجامعة تضمن أن تكون هذه المقررات مقسمة في أضيق الحدود. وهكذا نجد لدينا ظاهرة الفيزياء للشعراء ومقررات الاستقصاء التي تفي بشرط العلم عن طريق توفير عملية التثقيف في فرع واحد من أفرع العلم. وطبيعي أن هذه المقررات الدراسية المجزأة إلى أقسام، شأن المقررات المناظرة في المدرسة الثانوية، تنتج طلاباً أميين علمياً في جميع مجالات العلم ما عدا مجالاً واحداً، طلاباً يعرفون شيئاً عن الجيولوجيا ولا شيء عن الفلك، أو يعرفون شيئاً عن البيولوجيا ولا شيء عن الفيزياء. ولا حاجة بنا إلى القول إن هذا النوع من التجزئة إلى أقسام لا يخلق طلاباً قادرين على قراءة الصحف وفهم ما يقرأون.

وإذا انتقلنا من العلوم إلى الإنسانيات وجدنا أنفسنا إزاء موقف مختلف تماماً. إننا قد نتوقع أن يقدم أصحاب الدراسات الإنسانية جوقة الاحتجاج الأعلى صوتاً التي تحتج لأن أخاها العلمي أنكر عليها جانباً مهماً من امتياز ميلادها الفكري. لكنك إذا تأملت الأمر فلن تجد شيئاً من هذا أبداً. إننا نلاحظ في بعض الدوائر الأدبية أن الجهل بالأمور العلمية ليس مقبولاً فقط، بل يحمل صفة على

النقيض تمامًا. وكما أوضحت في الفصل الرابع لو أن مهندسًا لم يقرأ شيئًا لشكسبير فإنه يعد في نظر الدوائر الأدبية غير مثقف، بينما لا نجد حكمًا كهذا على أستاذ للغة الإنجليزية الذي لم يقرأ شيئًا على الإطلاق عن داروين. ونحن كثيرًا جدًا ما نصادف شعورًا يتسم بالغرور مفاده أننا لو أغفلنا العلم ولا شيء آخر فسوف يغيب عن الأنظار ويدع لنا بقية العالم في حالة من الراحة.

وأخيرًا، نصل إلى العضو الثالث من الحلف -الطلاب. إن طلاب الكليات يميلون، كما كانت الحال في المدرسة الثانوية، إلى تجنب العلم كلما أمكنهم ذلك، محتجين في هذا بأن المقررات الدراسية صعبة، وأن محاولة الإقبال عليها تعرض المرء على الأرجح لخطر الحصول على تقدير بدرجة متوسط (أو أن تتضمن الدراسة على الأقل عملاً لا ضرورة له). وإذا حدث وأجبرتهم إحدى الكليات المستنيرة على دراسة قدر من العلم، فإنهم يبدأون البحث عن المادة التي تتطلب أقل قدر من الجهد في القائمة.

لهذا يقول العلماء إن تدريس العلم للجمهور العام أمر غير ذي جدوى. ويقول علماء الإنسانيات إنه غير جدير بالدراسة. ويقول الطلاب إنه صعب. وهكذا لا أحد يريد تدريس المقررات. لذلك كله ليس لنا أن نتساءل في دهشة: لماذا نجد عنوانًا رئيسيًا في صحيفة عن الهندسة الوراثية يثير خوف كثيرين من القراء؟

أساتذة منحة روبنسون: تطور مشجع

بعد أن فرغنا من هذه المناقشة المحببة عن الحالة الراهنة للتعليم في أمريكا، أرى لزامًا أن أختتم الفصل بملاحظة تمنحنا مزيدًا من الشجاعة، وذلك بالحديث عن برنامج تنفذه الجامعة التي أعمل فيها. نعرف أن جامعة جورج ماسون جزء من منظومة ولاية فرجينيا. وتقع في ضواحي واشنطن العاصمة وتضم قرابة 3200 طالب؛ تجتمع طلابي متباين عرقياً، وتجمع كبير من كبار المتعلمين الذين تتراوح أعمارهم تقليدياً بين 18 و22 سنة. وفي ثمانينيات القرن العشرين قرر «كليرانس جي. روبنسون»، وهو رجل أعمال شغل، فترة، منصب أول رئيس لمجلس أمناء الجامعة، أن يترك قدرًا من المال لتمويل أكثر من عشرة أساتذة من رؤساء الأقسام. وسأل جورج جونسون، رئيس الجامعة آنذاك، نفسه سؤالاً بسيطاً: «ما أضخم مشكلة تعانيها الجامعات اليوم؟». وكانت إجابته: واقع أن كبار أساتذة الكليات لا يدرسون للطلاب ممن هم في سن ما قبل التخرج.

واختار حلًا للمشكلة بسيطًا ومباشرًا. وهو أنه أعلن أن رئاسة الأقسام الممنوحة سوف يشغلها أساتذة ممن (1) ترسخت أقدامهم في مجال بحوثهم العلمية، (2) لديهم سجل واضح يؤكد الاهتمام والنجاح في مجال تعليم الطلاب الجامعيين قبل التخرج. وتراوحت مجالات خبرة الفريق الذي جمعه ما بين تاريخ الفن وحتى البيولوجيا الجزيئية، وكان لي امتياز العمل ضمن هذا الفريق أستاذًا للفيزياء بمنحة روبنسون. ويلتزم هذا الهدف بمعيار منظومة اختيار هيئات التدريس على أساس قاعدة البحوث العلمية. ويمثل هذا الهدف أحد السبل لمعالجة المشكلة التي حددت معالمها في هذا الفصل، وهي طريقة أعرف من خبرتي الشخصية أنها مثمرة. وإني على يقين من توافر طرق أخرى مماثلة

* * *

نحن نريد أن يكون المواطن المتوسط قادرًا على التعامل مع الجانب العلمي للقضايا العامة، وبمستوى «الأهلية نفسها التي يتعامل بها في المجالات الأخرى».

المؤلف

أهداف تعليم العلم

أكدت على طول صفحات هذا الكتاب المعارف الأولية العلمية باعتبارها الهدف الرئيس للتعليم لغير المتخصصين، والتزمت الصراحة في تحديد ما أعنيه بالمصطلح. بيد أنني عند هذا الحد أجد لزاماً عليّ أن أوضح حقيقة واقعة، وهي أن كثيرين آخرين لديهم تعريفات مختلفة للهدف من تعليم العلم للمواطنين عامة. ونظرًا إلى أن أسلوبنا في تعريف أهدافنا من شأنه أن يحدد نوع المنظومة التعليمية التي سنضع تصورنا لها ونصوغها، فنحن في حاجة إلى أن نفكر في هذه الأساليب البديلة في تناول المشكلة، وسوف أدفع في النهاية بأن التعريف الذي يتوخى البساطة، مثل التعريف الذي قدمته، لن يفضي بنا فقط إلى المخطط التعليمي المجدي الذي يهدف إلى تحقيق المعارف الأولية العلمية، بل إنه سوف يتلاءم على نحو عميق مع ما شهدته العلوم من وقائع وإنجازات على مدى العقود الكثيرة الماضية.

هدف الثقافة العلمية

أعيد هنا التعريف الإجرائي لمعنى الثقافة العلمية والمعارف الأولية العلمية الذي أثبتته في الفصل الثاني، وذلك لمن شاء الرجوع إليه:

المعارف الأولية العلمية هي إطار المعارف اللازمة للمرء لكي يفهم ما يلزم عن الكون الطبيعي حولنا، وحتى تتسنى له معالجة القضايا التي تعرض لنا في أفق حياتنا، سواء في الصحف أم في غيرها.

ينبني هذا التعريف بالكامل على اعتبارات خاصة بأسلوب المواطن المتوسط عملياً في استخدام العلم. إنه مثلما هو في حاجة إلى معرفة ما يكفي من علم الاقتصاد لقراءة مقال عن تشريعات ضرائبية، وما يكفي أيضاً من قانون لقراءة ما تعرضه الصحف عن قضية معروضة

أمام المحكمة العليا، كذلك هو في حاجة، على سبيل المثال، إلى معرفة معنى الخلايا الجذعية الجنينية حتى يتسنى له تكوين رأي قائم على معلومات عن مختلف القضايا الأخلاقية المحيطة به، وهذا هو ما سمّيته برهاناً من حياة المواطنين في الفصل الثالث. ودفعت في الفصلين الرابع والخامس بأن العلم يمثل جزءاً جوهرياً من الثقافة التي نعيشها، وبأن قدرًا أساسياً من فهم العلم يمكن أن يضيف مزيداً إلى خبرتنا الجمالية بالعالم الذي حولنا.

وجدير بالذكر أن القسمة الجوهرية المشتركة بين جميع هذه الحجج هي أن نمط المعارف اللازمة للمواطنين المتوسطين مختلف تماماً عن المعارف اللازمة للحياة العملية للعلماء أو المهندسين، إذ إنه لا يتضمن القدرة على ممارسة العلم أو (كما سوف أؤكد بوضوح وبالتفصيل فيما يلي) القدرة على معالجة المعادلات الرياضية. وسوف أعرض في الفصل الثاني عشر معالم برنامج تفصيلي للمعارف الأولية العلمية. بيد أنني يمكن أن أقول الآن إنه مؤسس على فهم عام للمبادئ الأولية الأساسية التي يعمل على أساسها العالم الفيزيقي. معنى هذا أن المثقفين علمياً؛ أي من توافرت لديهم المعارف الأولية العلمية، سوف يعرفون أن الطاقة لا تفنى ولا تستحدث، ولكن يمكن تحويلها من صورة إلى أخرى. من أشعة شمسية إلى تيار كهربائي على سبيل المثال. بيد أنهم لن يكونوا بالضرورة قادرين على تحليل ملامحة مزيح خاص من أشباه الموصلات لبناء ؛ أي خلية قادرة على إنتاج جهد كهربائي عند تعرضها Photovoltaic cell خلية فولطائية ضوئية لطاقة مشعة. وليس ضرورياً أيضاً أن يكونوا قادرين على حساب عدد الخلايا اللازمة لتحل محل محطة توليد تقليدية.

علاوة على هذا فإنه مع اطراد تعقد العلم ذاته، ومع ازدياد تشابك وتداخل الدراسات التي يعرضها (وهو موضوع سأعود إليه في الفصل القادم) تصبح مناهج تعليم العلم التقليدية غير ملائمة أكثر فأكثر. وليس ثمة جديد فيما يتعلق بالقاعدة المعيارية (وضع الفرض واختباره، ثم الاستنتاج) الخاصة بتعليم المنهج العلمي، التي من شأنها أن تعد الطالب من بعد للتعامل مع أحدث تقرير صادر عن الفريق الحكومي الدولي المعني بتغير المناخ. ومن ثم فإن مفهوم المعارف الأولية العلمية لا يمثل فقط أسلوباً جديداً في تناول موضوع تعليم العلم للجمهور العام، بل الأسلوب الوحيد الذي يمكن به إعداد الطلاب للعالم الذي سيجدون فيه أنفسهم.

أهداف بديلة

موريس شاموس وأسطورة المعارف الأولية العلمية

عرض عالم الفيزياء الراحل موريس شاموس من جامعة نيويورك، في كتابه الصادر في العام 1995، واحدة من أولى المناقشات التي تناولت موضوع المعارف الأولية العلمية. لذلك، ولهذا السبب، لنا أن نعتبر كتابه هذا بمنزلة نموذج إرشادي للفهم العام في هذا المجال.

مايز شاموس بين ما سماه معارف أولية ثقافية ووظيفية ومعارف أولية علمية حقيقية. ويعزو الأولى إلى «إي. دي. هيرش» والأفكار عن المعارف الأولية الثقافية أو محو الأمية الثقافية التي ناقشتها في الفصل الثاني. ويعزو الثانية إلى جون ميلر (انظر الفصل السادس)، بينما يحتفظ في تواضع بالثالثة لنفسه. ولكنني للأسف سوف أذفع فيما يلي بأنه أساء على نحو خطير فهم كل من هيرش وميلر، ولهذا فإننا لن نفيد كثيراً من تمييزه الذي قال به بين الأولى والثانية. بيد أن تعريفه لمعنى المعارف الأولية العلمية الحقيقية يكشف عن اتجاه نراه كثيراً جداً بين المشتغلين بالعلم (خصوصاً بين زملائي من الفيزيائيين) وسيمثل منطلقاً جديداً لمناقشتي الأهداف.

المشكلة الأساسية بالنسبة إلى طريقة شاموس وآخرين في تناولهم موضوع تعليم العلم هي أنهم فيما يبدو يرون أن شخصاً ما يكون «حقاً» مثقفاً علمياً في حالة واحدة فقط، وهي إذا كان قادراً على الوصول إلى نتائج مستقلة بشأن القضايا العلمية مستخدماً نوع الاستدلال العقلي ذاته الذي يستخدمه العالم المهني. معنى هذا أن مجرد امتلاك خلفية أساسية تمكنه من قراءة مقال في صحيفة ليس كافياً في نظرهم. وواضح أنهم في رأيهم هذا يرددون صدى مقولة جون ديوي عن «العقل ذي العادات العلمية» من دون الاعتراف، كما اعترف ديوي ضمناً، بأن مثل هذا الهدف يلائم فقط النخبة من المتعلمين. ونظراً إلى أن هذا الموقف يظهر على السطح المرة تلو الأخرى في الحوار بشأن تعليم العلم، فليسمح لي القارئ بأن أخصص هنا بعض الوقت لمناقشته.

كتب سير بيتر ميداوار الحائز جائزة نوبل ما يلي في كتابه «جمهورية بلوتو» الصادر في

العام 1982:

ولكن هذا أمر مفهوم أن العلماء ذوي المستوى الرفيع، مثل علماء الفيزياء النظرية، يعبرون من وقت إلى آخر في هدوء عن آراء تحكمية بشأن إدارة البحث العلمي بينما الباقون منا ينصتون في صمت يشوبه الاحترام (1)

إن ما يسخر منه ميداوار في رسالته هذه هو ظاهرة أشير إليها عادة تحت عبارة «غطرسة علماء الفيزياء». (وأقول من باب التسجيل إنني تربت لأكون فيزيائي جسيمات نظرياً، وعملت ضمن هذا المجتمع البحثي إلى أن أكملت ترقيتي إلى أستاذ، وبذا لي الحق في أن أعقب على هذه الظاهرة). وأحسب أن المشكلة هي أن الفيزياء التقليدية علم مسرف في نزعتة الاختزالية، حيث يرى الفضيلة الأعظم هي القدرة على إزاحة التناقضات وصولاً إلى البساطة الجوهرية للطبيعة. وهذه متابعة بحثية تثير الإعجاب أفضت إلى رؤى نافذة عظمى، الواحدة تلو الأخرى، على مدى قرون. ولكنها تنزع إلى خلق حالة ذهنية لعقل تتوافر فيه قدرات من نوع مميز، خصوصاً القدرات الرياضية اللازمة لمتابعة البحث، والتي تعلي من قيمتها كثيراً جداً من دون سواها من قدرات تعتبرها قدرات عابرة.

ونحن، في الواقع، في وسعنا أن نستخدم موقفاً شخصياً من الرياضيات بوصفه نوعاً من التشخيص لمعرفة توجهه إزاء المعارف الأولية العلمية. وإليك ما قاله شاموس في هذا الصدد:

ليس من الواقع في شيء الاعتقاد أن في إمكان المرء تقييم الآفاق الواسعة للعلم من دون أن ندرس أولاً الدور الذي يؤديه الاستدلال العقلي الرياضي في هذا المجال(2).

وإن هذا الموقف القائل: «لزم عليّ أن أتعلم قدرًا من الرياضيات الصعبة حتى يتسنى لي امتلاك ناصية مهنتي، وباسم الرب عليك أنت أيضًا أن تتعلمه» يذكّرني بموقف المجتمع الطبي تجاه الممارسة المثيرة للسخرية بجعل طلاب الداخلية يعملون 36 ساعة فترة عمل مستمرة (تمر ابنتي بهذا الطقس الانتقالي وأنا أكتب هذا الكلام، وبذلك فإنني أتخذ مجلساً قريباً جداً من العملية). وطبيعي أن وجه الاختلاف هو أننا لن نجد طبيباً يدفع بأن كل مواطن عليه أن يقضي فترة تشبه المدرسة الطبية إذا كان يريد أن يقرأ القسم الخاص بالصحة في الصحيفة. هذا بينما سمعت فيزيائيين يؤكدون أن كل من يريد قراءة شيء عن العلم فإن عليه بالضرورة أن يدرس حساب التفاضل والتكامل على المستوى الجامعي.

وغني عن البيان أن مثل هذا الاتجاه يفضي إلى نتائج مؤسفة في مجال تعليم العلم لأنها تنبني على فكرة ناقشتها في الفصل التاسع، وهي أن كل ما يتعين تدريسه هو فقط الشيء المثمر الحقيقي داخل قاعة الدرس، وأن يكون الطلاب على الطريق المؤدي إلى الحياة العملية في العلم

من دون أي شيء آخر. إنك إذا حددت هدف تعليم العلم بتكوين أفراد قادرين على إعادة إنتاج نوع الاستدلال العقلي الذي يستخدمه العلماء بغية الوصول إلى استنتاجات مستقلة بشأن القضايا موضوع البحث، فإنك يقيناً سوف تنتهي إلى مشورة يائسة على نحو ما فعل شاموس. إنه في حالته استنتج أن الشخص المتوسط لن يكون قادراً على فهم العلم فهماً كافياً بحيث يكون في مقدوره اتخاذ قرارات مهمة. وإنه بذلك يظهر في صورة محكمة علم، العمل معها غير مُجدٍ تماماً، فضلاً عما في رأيه من إحياء مناقض للديمقراطية. وعلى أي حال، وكما أوضحت في الفصل الثاني، لا معنى لأن ننكر على الطلاب فوائد العلم لأنهم لا يعرفون الرياضيات تماماً، كما لا معنى لأن ننكر عليهم حق قراءة رواية «الحرب والسلام» لأنهم لا يعرفون اللغة الروسية.

وأجد لزاماً عليّ أن أقول إنني اعتدت دائماً النظر إلى الفكرة القائلة بأن دورك هو فقط التدريس لأولئك القادرين على الوصول إلى المعايير المهنية باعتبارها نوعاً من الهرب من المسؤولية؛ أي سبيلاً لتجنب المشكلات الحقيقية التي تواجهنا بوصفنا معلمين. وحرى بنا أنه بدلاً من تحديد معايير عالية ومستحيلة تسلمنا إلى اليأس أن نفكر إلى أي مدى نستطيع أن نمضي بطلابنا الذين ندرّس لهم فعلياً. وهذه نقطة سوف أعود إليها فيما يلي. إنني في أسوأ لحظاتي تشاؤماً أفكر أحياناً إلى أي مدى كان يمكن أن تكون حياتي سهلة يسيرة لو أنني اعتدت أن أدرّس فقط لأفضل الطلاب في الصفوف الخاصة بي، وأصف الباقين بأنهم ميؤوس منهم، وأعزو حالتهم إلى نوع من الإهمال في التعليم.

وبعد أن فرغت من هذه النقاط ليسمح لي القارئ بأن أعود إلى شاموس وكيف أخطأ في فهم هيرش وميلر. وحيث إنني شاركت شخصياً في كل من هذين البرنامجين فإن للقارئ أن يرى أن الفقرتين التاليتين محاولة مني للنهوض وصولاً إلى نقطة تمثل امتيازاً شخصياً.

يكرر شاموس الخطأ الشائع المتمثل في تصور أن المعارف الأولية الثقافية لا تتألف إلا من قائمة من البنود التي يتعين استظهارها، وهذا فهم خاطئ سبق أن تناولته في الفصل الثاني. إنني إذا قرأت وصفه للمفهوم، وهو وصف بعيد كل البعد عن الموضوع، لا يسعني غير أن أخلص إلى نتيجة محددة وهي أنه لم يقرأ الكتب بعناية، أو لم يُجر أي مناقشات جادة مع أيٍّ من المشتغلين في المجال (هذه النتيجة يدعمها ارتكابه خطأ فادحاً تمثل في الإشارة إلى هيرش باسم إدوارد، وهو اسم لم يستعمله قط). وإذا خاطرت بتكرار ما قُلت، أراني مضطراً إلى بيان أن المعارف الأولية الثقافية تمثل عملياً خليطاً من الكلمات والمفاهيم والروابط والصور والأفكار، وهي أبعد

ما تكون عن وصفها بقائمة جافة من المصطلحات يتعين استظهارها قدر المستطاع. وإنني أتحدى أي شخص أن يقرأ بعناية 1380 صفحة، هي مدخلات العلم في قاموس المعارف الأولية الثقافية، ويؤكد أن أيًا من الناس استوعب هذه المادة ليس مثقفًا علميًا.

ويصدق الأمر نفسه على أخطائه في فهم جون ميلر. اشتكى من أن ميلر لا يحدد واقعياً ما يعنيه بعبارة المعارف الأولية العلمية. ولكن، وكما أوضحت في الفصل السادس، هناك تعريف إجرائي شديد الوضوح مبين في صورة قواعد إجابات عن أسئلة تضمنتها الدراسة الاستقصائية التي أجراها ميلر. وزعم شاموس أيضاً أن ميلر يتبنى تعريف إما أو الخاص بالمعارف الأولية العلمية بينما توجد في الواقع سلسلة متدرجة الدرجات للتصنيفات تتراوح بين «جيد المعلومات» و«جيد المعلومات نسبياً»، ثم ما هو أدنى مستوى. علاوة على هذا ينشر ميلر في أوراق بحثه النتائج الكاملة لدراساته الاستقصائية في تفصيل كافٍ بحيث إن كل من شاء تجاوز مخطئه التصنيفي أمكنه ذلك بسهولة.

الفيزياء أولاً

الولايات المتحدة سعيدة الحظ إلى أقصى حد لأنه، من حين إلى آخر، يقرر أحد الفائزين بجائزة نوبل الاستفادة بمركز المراقب بغية تحسين المنظومة التعليمية. وكما لنا أن نتوقع من شخصيات لها مثل هذا المستوى الرفيع من التحصيل، فإن هؤلاء العلماء لهم وجهات نظر متميزة وفريدة بشأن تعليم العلم ويعمدون إلى مراجعة إنجازاتهم. وهذا يعطينا فكرة جيدة عما يحدث حينما يوجّه علماء لهم مثل هذا المستوى الرفيع اهتمامهم إلى هذا المجال.

وأول من أقدم على هذا في العصر الحديث هو ليون ليدرمان الذي كان وقتذاك يشغل منصب خارج شيكاغو، علاوة على كونه Fermi National Accelerator Laboratory مدير معمل فيرمي عضواً في هيئة التدريس بجامعة شيكاغو. ويتصف ليدرمان بأنه شخص نحيل الجسم، بشوش مع هالة من الشعر الأبيض، وومضة بريق لا تفارق عينيه. وعلى الرغم من مكانته في المجتمع العلمي، فإنه يتصف بالحدق والقدرة على العيش في بيئة غير عدوانية، حتى إنني أظن أنه كان في شبابه ساخرًا وصاحب دعاية. وبعد حصوله على جائزة نوبل في العام 1988، لقاء إنجازه في مجال فيزياء الجسيمات التجريبية، قرر أن يرى ما الذي يمكن أن يفعله لخدمة تعليم العلم. كان النظام التعليمي العام في شيكاغو يعاني أزماً قاسية كما هي حال كثير من مدارس الحضر.

وعلق على هذا في سخرية فكهة قائلاً: «إن لم يكن هو النظام الأسوأ في بلادنا، فإنه يوشك أن يكون كذلك، ولهذا فإن الأمر غير مهم».

تميز منهجه بالبساطة والمباشرة. وقال ذات ليلة لفريق منا: «الشيء الجميل في جائزة نوبل أنها تسمح لك بالدخول إلى مكتب أي إنسان، لمرة واحدة». واستخدم ليدرمان إذن الدخول هذا لإقناع عدد من الشركات الكبرى التي مقرها في شيكاغو، وكذا عدد من المؤسسات المختلفة التي لا تهدف إلى الربح، وعدد من الولايات الحكومية، لوضع برنامج يجري تنفيذه في أثناء ساعات العمل من أجل معلمي العلوم في شيكاغو. وتقرر، لأسباب لم أفهمها قط، أن يكون المقرر في معهد إيلينوي للتكنولوجيا على بُعد نحو 20 كتلة سكنية من المؤسسة التي يعمل بها في جامعة شيكاغو. واستهدف البرنامج تحسين وضع المعلم وتمويل بدائل بحيث يمكن للمعلمين أن يشاركوا ويتفاعلوا مع العلماء المشتغلين في المكان، والعمل بوجه عام على تحسين خلفياتهم الأساسية في المواد الدراسية التي يدرسونها. وحقق المشروع نجاحًا ما شجع ليدرمان على المضي قدمًا ليكون القوة المحركة لتأسيس أكاديمية الرياضيات والعلوم لولاية إيلينوي، وهو معهد به مكان مخصص للإقامة ويقع بالقرب من مختبر فيرمي لاب الذي يقدم للطلاب الموهوبين للغاية تعليمًا رفيع المستوى في العلم.

وجدير بالذكر أن ليدرمان اتبع في كلٍّ من المشروعين الخطوات نفسها التي حددتها لجنة دراسة العلوم الفيزيائية (انظر الفصل الثامن)، علاوة على جهود إضافية لتحسين تعليم العلم ركزت على توفير أفضل تعليم ممكن لعلماء وتقنيي المستقبل. وإذا حدث مثلما حدث في الجهود المبذولة في مدارس شيكاغو العامة، وأدى هذا إلى زيادة المعارف الأولية العلمية، فإنه أمر جيد، غير أن المعارف الأولية العلمية لم تكن هدفه الأول.

ولكن لأن ليدرمان رجل لا يليق به إلا هذا الأفق الواسع والمواهب المتميزة، فكر في طبيعة المدركات العامة عن العلم وطريقة تعليم الجميع العلم في المدارس. وتمثل أهم إسهاماته في الجانب الثاني في فكرة مقرر دراسي تُلخّصه عبارة «الفيزياء أولاً». معنى هذا أن المقرر الدراسي المعمول به الآن الذي يبدأ عادة بعلم الأحياء (البيولوجيا) يتعين قلبه رأسًا على عقب بحيث يجري تدريس البيولوجيا فقط بعد إرساء أساس مكين من الفيزياء والكيمياء. وإذا عرفنا أن علماء البيولوجيا يركزون الآن كثيرًا على العمليات الجزيئية فإن هذا النهج يصبح مفهومًا من وجهة النظر العلمية.

وأدرك إلى أي مدى تستهوي هذه الفكرة الطلاب القدامى. والحقيقة أن المنهج الدراسي الذي وضعته بشأن المعارف الأولية العلمية يلتزم -إلى حد ما- بهذا المخطط. والفكرة هي أن نبدأ بـ«الفيزياء» البسيطة ثم ننتقل منها إلى «البيولوجيا» المعتمدة. ولكن النهج التقليدي على العكس، إذ يبدأ بعلم «البيولوجيا» المؤلف، وينتقل إلى «الفيزياء» المجردة. ونعرف أن منهج «الفيزياء أولاً» له ميزة اتباع التاريخ الفكري البشري، حيث الأفكار الأبسط (مثل حركة القذيفة) تُحل أولاً، ثم المشكلات الأكثر تعقداً (مثل الكيمياء الخلوية) بعد ذلك بفترة. وهذه فكرة جديدة، ولهذا لا تتوافر لنا معلومات كثيرة عنها. ولكن إذا كان لزاماً عليّ أن أعمل عقلي تخميناً أقول إن نهج «البيولوجيا أولاً» ربما يكون ملائماً للمدرسة الابتدائية، وربما أيضاً للمدرسة المتوسطة، بينما «الفيزياء أولاً» ربما أنسب للمدارس الثانوية ولمؤسسات التعليم العالي.

نريدهم أن يفكروا مثلنا

كان كارل ويمان يعمل في المعهد القومي للمعايير والتكنولوجيا في بودلر، وهو الآن في جامعة كولومبيا البريطانية، وقد حصل على جائزة نوبل في العام 2001 لإنتاجه أول مثال وهو تنظيم خاص للذرات في درجات حرارة منخفضة، Bose-Einstein condensate، لظاهرة تسمى جداً. وثمة قصة طريفة عن زيارة قام بها ويمان إلى الحرم الرئيسي للمعهد القومي للمعايير والتكنولوجيا قرب واشنطن لكي يوجه حديثاً في قاعة مكتظة من معاونيه وزملائه وضيوفه. تحكي القصة كيف احتفوا به عند استقباله وغنوا له أغنية يجري لحنها على لحن أغنية بيبي غنى الحضور معاً في محاكاة لحركة كرة تقفز على الشاشة، إن الفيزياء ليست Baby Face فيس دائماً علماً جافاً وشكلياً.

وكان ويمان، مثله مثل ليدرمان، مهتماً اهتماماً أساسياً بتحسين المقرر الدراسي الرسمي للعلوم، على الرغم من أنه في حالته هذه تركز اهتمامه على المناهج الدراسية لتدريس العلوم لغير المشتغلين بالعلم. ويمكن القول بمعنى ما إنه يتبع جهود الفيزياء للشعراء التي سبق أن ناقشناها في الفصل الثامن. وقد رصد قدرًا كبيراً من جهده لتحسين طرق التدريس عن طريق التكيف مع التكنولوجيا الحديثة (من ذلك جمع الطلاب في قاعة درس كبيرة للإجابة -عن طريق جهاز الكليكر- عن سؤال يطرحه المحاضر). وطبيعي أن حافزه إلى ذلك واضح شديد الوضوح. «والسؤال هو: لماذا يقضي وقتاً طويلاً جداً لتعليم التقنيات؟ وإجابته «نريدهم أن يفكروا مثلنا»!

وأفترض أن هذا يمثل خط الأساس بالنسبة إلى كثيرين من العلماء عندما يشاركون في التدريس بطريقة متميزة، سواء حصلوا على جائزة نوبل أو لا. وواقع الأمر أن الفارق الرئيس بين مثل هؤلاء العلماء ينصب على سؤال عما إذا كان الهدف ممكن التحقق أو لا. هناك البعض من أمثال شاموس شكاكون وينتهون إلى نتيجة سوداوية. وهناك آخرون، من أمثال ويمن، إيجابيون يحدوهم أمل كبير. ولكن الهدف واحد في النهاية: تحويل كل امرئ بطريقة سحرية إلى صورة مصغرة منا.

لماذا ينبغي أن يفكروا مثلنا؟

عندما يزداد الإلحاح على هذه النقطة فإن الأغلبية من المسؤولين عن إدارة برامج كبرى لتعليم العلم يعودون واقعياً إلى حجة وحيدة. يقولون نحن نعيش في اقتصاد ركيزته المعرفة، وعالم بقاء الأمم فيه رهن البراعة الفائقة التكنولوجية. ومن ثم فإن نظامنا التعليمي لا بد من أن يوفر القوى العاملة اللازمة لإشباع حاجة التكنولوجيات الحيوية المعلوماتية اللازمة للمستقبل، إما هذا وإما أن يكون البلد مآله إلى التدهور والانهيار من دون رجعة.

وكم هي عسيرة المحاجاة مع وجهة النظر هذه! نحن بكل وضوح في حاجة إلى خلق قوى عاملة مؤهلة علمياً في تلازم مع حركتنا إلى المستقبل. ولكن ثمة ميلاً إلى طمس هذا الفارق في هذه المناقشات. وطبيعي إذا كان الهدف هو تدريب جيل جديد من المهندسين والعلماء والفنيين إذن فنحن نريد أن نعلم الناس كيف يعمل العلم. وإذا لم تكن ثمة أهمية لبيان كيف سيصبح الاقتصاد مؤسساً على التكنولوجيا، فإنه سنظل هناك حقيقة واقعة وهي أن أغلبية الناس لن يكونوا أبداً في حاجة إلى ممارسة العلم تطبيقياً في حياتهم بغية العيش. بيد أن كل امرئ سيجد لزاماً عليه أن يؤدي دوره بوصفه مواطناً، ومن ثم سيكون في حاجة إلى أن يكون مثقفاً علمياً عارفاً بأولويات العلم لكي يؤدي دوره على نحو صحيح. لذلك فإن من الأهمية بمكان التمييز بين متطلبات المجموعتين من السكان. وهنا فيما أعتقد تبرز بوضوح الحجج المؤيدة للثقافة العلمية المرتكزة على معرفة الاقتصاد.

وحقيقة الأمر أن ليس واضحاً تماماً أن التفكير «مثلنا» يمثل عوناً كبيراً في التعامل مع القضايا العامة. وأعيد ما قلته في الفصل الثالث، إن كم المعلومات التي يحتاج إليها المواطن للمشاركة في حوار عام قليل جداً، لا يُقارَن أبداً بمعلومات الاختصاصي العلمي. وأوضحت كذلك

أن العلماء خارج مجال تخصصهم البحثي لا يكونون عادة أكثر ثقافة علمية من المواطن المتوسط جيد المعلومات. لذلك يبدو لي أن نهج «يفكرون مثلنا» لا يفيد في الواقع إلا قليلاً جداً في سبيل تطوير ونشر المعارف الأولية العلمية.

أنواع الذكاء السبعة

ولكن ثمة وجهًا آخر لوجهة نظر «يفكرون مثلنا»، وهو وجه أراه صعبًا، إذ يحدث أحيانًا في لحظات الاكتئاب أن أتساءل عما إذا كان نمط الفكر العقلاني النقدي التحليلي المميز للعلم نمطًا في أساسه غير طبيعي، وأنه بطريقة ما خارج منطق التزامن مع العمليات العصبية البشرية. التقيت في حياتي طلابًا كثيرين، من ذوي الذكاء المرتفع الذين أبدعوا في مجالات كثيرة، ولكن يواجهون صعوبة قصوى في «التفكير مثلنا». وجعلني هذا أتشكك في احتمال وجود صعاب غير متوقعة عند محاولة تحويل كل امرئ إلى عالم. أدرك أنني قاصر في أنواع معينة من المهارات الذهنية (من مثل تقييم الألوان والحساسية تجاهها)، وأعتقد أنه ليس من سبيل عمليًا للتغلب على أوجه القصور هذه مهما كان كم التعليم. وهذا هو السبب في أنني أطلب إلى زوجتي أن تنتقي لي ملابس عندما أعتزم الخروج والظهور أمام الناس. وأتخيل أن نمط التفكير العلمي غريب على الآخرين شأن الألوان بالنسبة إليّ. ووجدت أن إدراكي مظاهر القصور عندي يساعدني على التعاطف مع الطلاب الذين يعانون في دراستهم للعلم.

وفي العام 1983 نشر صديقي هوارد جاردر، من جامعة هارفارد، نظرية عن أنواع الذكاء المتعددة. ووضع قائمة أولية تضم سبعة أنواع للذكاء، على الرغم من أنه وسع القائمة بعد ذلك. ونجد في هذه القائمة أن الاستدلال العقلي التحليلي ليس سوى نوع واحد فقط من الذكاء. ونقول:

- لغوي (ذكاء كلمة) -
- منطقي-رياضي (ذكاء العدد والاستدلال العقلي) -
- مكاني (ذكاء الصورة) -
- جسدي-حركي (ذكاء الجسد) -
- موسيقي (ذكاء النشاط الموسيقي) -
- العلاقات بين الناس (ذكاء اجتماعي مع الناس) -

ذكاء مع الذات (ذكاء خاص بالذات) -

نجد من بين هذه الأنواع أن الثاني فقط، وربما يؤكد البعض أن الثالث أيضاً، يسهمان في العملية العلمية. وإذا تصورنا أن الفئات التي ذكرها جاردرنر تحدد نوع الذكاء ذي الأبعاد السبعة إذن فإن كل شخص له نوع ما من الدرجات التي يحصل عليها عن كل فئة. كذلك فإن من يحصلون على درجات مرتفعة في مجال ما يمكن أن يحصلوا على درجات أدنى في مجالات أخرى. وهذه حقيقة واقعة عبر عنها بشكل رمزي كثير جداً من الأنماط المشتركة. ومن ثم فإننا حين نلتقط -على نحو تعسفي- أنواع الذكاء الملائمة للعلم ونقول إن على كل شخص أن يتميز فيها فإن هذا في تقديري لا يفيد معنى جديداً أكثر من اشتراط أن يؤلف كل امرئ سيمفونية أو أن يصبح راقصاً محترفاً. ذلك أن العالم لا يمضي على هذا النحو

أحسب أن كل هذا يعيدني إلى التعريف الذي أثبتته في مستهل الفصل لمعنى المعارف الثقافية العلمية. نحن نريد أن يكون المواطن المتوسط قادراً على التعامل مع الجانب العلمي للقضايا العامة، وبمستوى الأهلية نفسها التي يتعامل بها في المجالات الأخرى. ويقودنا هذا إلى السؤال التالي، وهو سؤال حتمي: ما كم العلم اللازم لتحقيق هذا الهدف؟

نجد أنواعاً مختلفة من الكلمات والعبارات الرائجة الطنانة التي جرى تداولها في هذا الحوار، من مثل «الاستدلال العقلي النقدي» و«الوصول إلى استنتاجات مستقلة». ويبدو لنا بمعنى ما أن مثل هذه العبارات تمثل عبئاً يُثقل كاهل المواطنين المتوسطين ممن نفترض أنهم قادرون على مطالعة الحجج العلمية والاستماع إلى الخبراء المتنافسين، وأيضاً قادرون على استخدام معارفهم العلمية وتعليمهم العلمي وأن يقرروا بأنفسهم أي جانب هو الصواب.

وليسمح لي القارئ بأن أكون صريحاً من دون مداورة، هذا كله توقع غير واقعي جملة وتفصيلاً. ومن أسباب ذلك، كما سوف أدفع في الفصل التالي، أن القضايا العلمية اليوم وفي المستقبل المنظور معقدة كثيراً لدرجة أن أغلبية العلماء الحاصلين على درجة الدكتوراه ليس في وسعهم الوفاء بهذه المهمة. وسبب آخر، أشرت إليه مراراً، هو أن العلماء الحاصلين على درجة الدكتوراه هم أنفسهم أميون علمياً عادة في جميع المجالات خارج مجال التخصص. وبهذا لا سبيل إلى إنجاز هذا الهدف المميز بأقل من اشتراط حصول كل شخص على درجة الدكتوراه في كل شيء.

مقترح متواضع

إذن ماذا عسانا أن نفعل؟ أقترح برنامجًا يستهدف جعل كل امرئ، ذكرًا أو أنثى، على ألفة ودراية بالعلم وفق قدرته على المضي قدمًا، وأن يتبنى البرنامج مقترحين يتسمان بالبساطة والوضوح الذاتي، هما:

1- عليك أن تدرّس لطلابك الموجودين أمامك وليس للطلاب الذين ترغب فيهم -1

2- إذا توقعت من طلابك رغبة في معرفة شيء ما فإن عليك أن تخبرهم بما هو -2

وقبل أن أقدم إطارًا عامًا تفصيليًا لما أعتقد أنه محتوى المنهج الذي أود أن يكون مجسدًا في المعارف الأولية العلمية، أرجو أن أناقش هذين المقترحين أولاً بشكل عام.

إحساسي الخاص هو أن قدرًا كبيرًا من مشاعر عدم السعادة التي ألمسها لدى زملائي من العلماء، بالنسبة إلى تعليم غير المشتغلين بالعلم مبعثه فشلهم في النظر بعين التقدير والأولوية إلى المقترح الأول. وواقع الأمر أنك إذا قررت أن تدرّس لغير المتخصصين في العلم (وهو قرار ليس لنا جميعًا أن نتخذه) فإنك في سبيلك إلى التعامل مع مزيج مختلف من الناس داخل قاعة الدرس. سيكون هناك فريق صغير العدد، ربما أقل من الثلث، معني، عن أصالة، بمادة الدرس ويريد حقًا أن يتعلم. وسيكون هناك فريق أكبر، ما بين الثلث والنصف، يحاول جاهدًا استيعاب المنهج الدراسي على أفضل ما في استطاعته، ولكنهم طلاب جادون سيحصلون في الوقت الضروري على تقديرات جيدة. ثم هناك الباقيون، وأتمنى مخلصًا ألا يكون لديك عدد كبير منهم.

ولكن أيًا كانت تركيبة قاعة الدرس، فإن هناك طلابًا عليك أن تدرّس لهم. سينظر البعض إلى الأمر على أنه سهل يسير، وسوف يناضل البعض الآخر، غير أن مهمة المدرس هي دفع كل منهم إلى الحركة قدمًا قدر الاستطاعة على طول درب الثقافة العلمية. معنى هذا في الأغلب الأعم أن ثمة أهدافًا جديرة بالاهتمام يجب أن تحتل مكانها في الأذهان حتى وإن احتلت مكانًا خلفيًا بينما نركز على موضوع العلم. مثال ذلك أنك لا تستطيع أن تضيع وقتًا طويلًا لتصويب أخطاء الطالب في اللغة أو في بلاغة الكتابة، إذ لا وقت يكفي لذلك.

وأهم من ذلك، ربما لا تعترم أن تتوافر لديك القدرة على النهوض بالمشكلتين التوأم في وقت واحد، وهما المعارف الأولية العلمية والمهارة العددية. وليس ذلك لأن كثيرين من هؤلاء الطلاب يتمتعون بذكاء متنوع غير الذكاء المرتبط بالمهارات الرياضية، بل ولأنهم، علاوة على ذلك، سوف يعانون أيضًا حالات الخوف المتوسطة والشديدة من الرياضيات. معنى هذا أنك إذا أردت

منهم الاشتغال بالعلم والارتباط به فلن يكون في مقدورك أن تلقي إليهم بكم كبير من المعادلات. وسوف أوضح في الفصل الثاني عشر أن الأفكار الأساسية عن العلم يمكن عرضها بسهولة من دون معادلات. ذلك لأنها جميعها بسيطة للغاية في أساسها. ولكن هذه المسألة تمثل مشكلة فقط إذا ما أصر المعلمون على أن العلم «الحقيقي» يوجبها شرطاً.

واعتقد في الأساس أن المشكلة بشأن مقترحي الأول هي أن علماء كثيرين يرون خفية إلى عالم متقلص، إذ أنواع الذكاء السبعة التي يقول بها جاردرنر يمكن أن تنكمش وتتحول إلى عالم به نوع واحد أو اثنان، وطبيعي يأملون في النوع أو النوعين اللذين نتمتع نحن بهما. بيد أن جوهر كون المرء عالمًا جيدًا يتمثل في القدرة على الاعتراف بحقائق العالم الخارجي، والعالم الخارجي في حالتنا هذه هو عالم يضم طلابنا بأنواع ذكائهم المتنوع، ولكن تجمع بينهم قسمة مشتركة هي حاجتهم إلى المعارف الأولية العلمية.

ويبدو لي أيضًا أن المقترح الثاني واضح بذاته، ولكنه لا يصلح في الأساس لتعليم العلم وفقًا لفكر المدرسة المتخصصة. فهذه المدرسة تؤمن بأن هناك شيئًا يسمى المنهج العلمي (أو كما سماه ديوي عادة العقل العلمية) وبأن كل ما علينا عمله هو تدريس هذه العملية العلمية للطلاب، وسوف يدركون هم كل شيء آخر يتعلق بالعلم بأسلوبهم الخاص.

وواقع الأمر أن النقطة التي أثيرها هي مثال لقضية مزمنة في مجال تعليم العلم والتي يمكن وصفها بشكل عام بقولنا إنها الصراع بين المنهج والمحتوى. وإن ما أسميه المعارف العلمية الأولية يمكن إحلاله في موضع أقرب إلى جانب المحتوى في هذا التقسيم الثنائي بينما السابق أقرب إلى جانب المنهج.

ويبدو لي في واقع الأمر أن المقترح بشأن التركيز على تدريس شيء ما اسمه المنهج العلمي مثير للضحك تمامًا بالنسبة إليّ، حتى إنني لا أكاد أعرف من أين أبدأ مناقشتي له. واعتدت كلما أردت أن أثير حفيظة زملائي أن أسميه مدرسة الفكر القائل: «علمهم النسبية وسوف يستنتجون البيولوجيا بأنفسهم في الطريق إلى البيت». نعم هناك حقًا منهج علمي، ناقشته في الفصل الأول، ولكن معرفة هذا المنهج ليست سوى خطوة أولى صغيرة جدًا على الطريق إلى المعارف الثقافية الأولية. وأود أن أسوق حجتيين ضد مدرسة فكر المنهج:

أولاً: إذا طبقت هذه الحجة على أي مجال دراسة أخرى فسوف تظهر أوجه الخطأ واضحة للعيان. وإذا دفعت بوجود شيء اسمه منهج لغوي، ومن ثم فإن دراسة لغة ما (الفرنسية مثلاً)

سوف ييسر كثيرًا الانتقال إلى أخرى (التشبيكية أو الأوردو مثلًا)، فإننا بذلك نعتزف بأن هذه الحجة غير مجدفة. إنك إذا أردت معرفة اللغة التشبكية فلن تدرس الفرنسية لتحقيق هذا الغرض، بل ستدرس التشبكية. وأدفع، على المنوال نفسه، بأنك إذا أردت مناقشة الخلايا الجذعية فلن تدرس النماذج المناخية، بل ستدرس البيولوجيا الجزيئية وبيولوجيا النمو.

ثانيًا: وهذا ما سوف أدفع به في الفصل التالي، إن اختراع الحواسيب (الكمبيوترات) الرقمية أحدث تحولًا هائلًا في طريقة ممارسة وإنجاز العلم. ذلك أن أنواع التجارب البسيطة التي يمكن للمرء أن يجريها في معمل مدرسة أو معمل الجامعة، وهي أنواع التجارب التي نفترض أنها تعلم الطلاب المنهج العلمي، أضحت غير ذات موضوع بالنسبة إلى كثير من المشكلات الحقيقية التي تعنينا في نطاق العلم. ونتوقع مستقبلًا أن يكون في الإمكان تحول المنهج العلمي شيئًا فشيئًا، وباطراد، إلى موضوع غير وثيق الصلة بالمناقشات العامة. معنى هذا أن التركيز على المنهج دون المحتوى الفعلي للمعارف الأولية العلمية من شأنه -على الأرجح- تخريج طلاب مؤهلين لمحاكاة جاليليو في عالم يهيمن عليه كريج فنتر، أول إنسان حدد نسل الجينوم البشري.

بيد أن هذا موضوع نتناوله في فصل آخر.

* * *

إن الناس قادرون تمامًا على التعامل مع الشك عند اتخاذ قرارات عامة - وإن كانوا يفعلون ذلك دائمًا وأبدًا»
 في مجالات غير علمية. ولهذا لا أرى سببًا يجعل الشخص العادي عاجزًا عن تناول القضايا العلمية
 بالأسلوب نفسه، وأن يضع في الاعتبار الرأي الخبير، ويحافظ في الوقت نفسه على قدر صحي معقول من
 «الشك».

المؤلف

التدريب على منهج جاليليو في عالم كريج فنتر

كريج فنتر هو الرجل المسؤول عن اكتمال عملية تحديد تسلسل الجينوم البشري، سابقًا
 للموعد وبميزانيةٍ دنيا. ووفق هذا الوضع يمثل رمزًا كاملاً للدلالة على نوع العلم الجديد الناتج
 عن ميلاد الحاسوب الرقمي، إذ إن هذا الحدث أدى حرفيًا إلى إنتاج علم مختلف من أساسه عن
 كل ما كان في السابق. إن القضية المحورية التي ستواجهنا في هذا الفصل هي الآتي: كيف
 يتعين علينا تعديل نظامنا التعليمي حتى يكون في اعتبارنا هذا الطراز الجديد من العلم؟

كان العام 2000 عامًا ملحميًا بالنسبة إلى العلوم، إذ لم يكد العالم كله يفرغ من الاحتفال
 بالعام الجديد (أليس هذا مروعًا؟) حتى كان إعلان اكتمال مشروع علمي مذهل استمر عدة
 سنوات، واقترن الإعلان بمباهج احتفالية مناسبة ومؤتمر صحافي في البيت الأبيض. وكان هذا
 للجينوم البشري: first assembly «مشروعًا استهدف إكمال ما سُمي «التركيبية أو التجميعية الأولى
 كتالوج متتابع الخطى يضم 3 مليارات «حرف» تُولف عند تجميعها معًا المتاع «الجيني»
 مثل سلم ملتوٍ فإن درجات السلم تتألف من DNA الوراثي البشري. وإذا تخيلنا جزيء الدنا
 التي A. C. G. T جزأين مترابطين يسميان «قاعدتين». وتوجد أربع قواعد نرسم إليها بالأحرف
 تمثل نوعًا من الأبجدية رباعية الأحرف هي لغة كتابة الحياة في كل صورها. إن القائمة الكاملة
 لهذه القواعد، أو الجينوم، هي جماع كل المعلومات التي تنتقل من جيل إلى جيل، لأيٍّ من
 الكائنات الحية، إلى ذريتها. وتحتوي على كل المعلومات اللازمة لأداء كيمياء الكائن العضوي
 الحي. وتسمى عملية إنجاز هذه الشفرة باسم تحديد تسلسل الجينوم.

عندما قدمت فكرة لتحديد تسلسل الجينوم البشري الكامل في ثمانينيات القرن العشرين لأول مرة، ظهرت معارضات كثيرة للاقتراح من جانب علماء البيولوجيا التقليديين، إذ كان علم small science «البيولوجيا حتى ذلك الحين يجري إنجازه ضمن نمط يحمل اسم «العلم الصغير» حيث عملية البحوث النمطية تتم في صورة أستاذ مع اثنين من الطلاب يتابعان بحثهما في زاوية من الزوايا في مكان ما حيث يوجد المعمل. ولكن مشروع الجينوم الذي تدفقت عليه مليارات الدولارات لتحقيقه، أدى في صورته الكاملة إلى إثارة غضب بعض علماء البيولوجيا. علاوة على هذا فإن التقنيات المتاحة آنذاك أضحت تميل إلى التعقد وإلى كثافة معملية، ولهذا بدا المشروع في نظرهم كأنه سيكلف الباحثين أعمارهم يكدهون بغية الوصول إلى النتيجة المرجوة. وأذكر هنا ما قاله لي أحد الطلاب الجامعيين: «لا أريد أن يكون كل عملي في الحياة تحديد التسلسل من زوج قاعدي 100 ألف إلى زوج قاعدي 200 ألف على كروموسوم 12». (أصبح «فيما بعد من أبرز الباحثين في علم الإحاثة، الباليونتولوجي).

ثبت بعد ذلك أن المخاوف لا أساس لها. ذلك لأنه سرعان ما تكاثفت الجهود في كل أنحاء العالم لاكتشاف سبل للتشغيل الآلي في تحديد تسلسل الـ«دنا»، وهنا عند هذه النقطة ظهر كريج فنتر على المسرح. إنه شخص دينامي غير تقليدي، يثير استجابات قوية لدى الناس المحيطين به. وأوضح ريتشارد بريستون هذه الخصال في عرض لملاح شخصيته في صحيفة «الـ«نيويورك» التي استهلها باقتباس «إن كريج فنتر أحقق

وبدأ فنتر العمل في مشروع الجينوم تحت رعاية المعاهد القومية للصحة، ولكنه سرعان ما «نفد صبره بسبب الخطو البطيء للبرنامج الفيدرالي. ترك وظيفته وأسس «سيليرا جينومكس» أو «مبحث الجينوم السريع»، وهو شركة خاصة رصدت جهودها لاكتشاف Celera Genomics أسرع وأكفأ السبل لتحديد تسلسل الجينوم. واستحدثت في أثناء ذلك تقنية لإنجاز عملية تحديد التسلسل، والتي أنجزت المشروع قبل تاريخ إتمامه بسنوات، فضلاً عن خفض التكلفة عدداً من مليارات الدولارات عما كان مقدراً أصلاً. وقدمت في أثناء العملية أيضاً صورة توضيحية للتغير الهائل المقترن باكتشاف الحواسيب وهو ما ذكرته آنفاً.

وتشتمل على تقسيم مساحات مؤلفة من Shotgun، وتقنيته هذه معروفة باسم الهجمة الخاطفة نسخ كثيرة من الـ«دنا» لتصبح قطعاً صغيرة، ويغذي هذه القطع من خلال ماكينات متوازية تعمل أوتوماتيكياً لتحديد التسلسل، ثم يتولى حاسوب تنسيق القطع المتماثلة و«جمع» كل الجينوم

الأصلي. ويشبه الأمر هنا قراءة كتاب عن طريق البدء أولاً بتقطيع نسخ كثيرة وإعداد كل جذاذة من الورق لقارئ منفصل، ثم تبدأ الحواسيب بعد ذلك- في إعادة تجميع النص الأصلي من واقع البيانات التي قدمها جميع القراء. وهكذا كانت الحواسيب في معمل فنتر لها الأهمية نفسها التي هي لعملية التسلسل البيولوجي في الواقع العملي.

ويبين هنا واضحاً أن قصة مشروع الجينوم البشري توضح لنا حقيقة واقعة، وهي أن الحواسيب في سبيلها إلى أن تؤدي أدواراً حاسمة في كل مجال من مجالات العلم خلال البحوث الطبيعية، حيث نشهد نوعاً من التأثير مشابهاً للتأثير المرتهن بطبيعة المجال ذاته. وهذا واقع من شأنه أن يغير أسلوب ممارسة العلم، ومن ثم بالتالي تغيير نوع العلم الذي يعرض نفسه من خلال القضايا العامة. لذلك نرى أن الأمر جدير بأن نخصص له بعض الوقت للتفكير في الحواسيب ذاتها، وفي أسلوب أدائها في عالم العلم.

دور الحواسيب في العلم

الحاسوب أو الكمبيوتر أداة عجيبة مذهلة متعددة الجوانب ومعقدة، ولكنه مع هذا أداة. وشأنه شأن جميع الأدوات يؤدي بعض الأشياء بامتياز، أفضل من البشر، ويؤدي بعضها الآخر بصورة سيئة جداً. وهذه في النهاية طبيعة الأدوات. إن سيارتك يمكن أن تسيّر أسرع مما تسيّر أنت، ولكنها لا تستطيع أن توازن رصيد دفتر شيكاتك. وهناك بعض الناس يستبد بهم القلق خوفاً من هيمنة الحواسيب، بيد أنني أعيد عليهم ملاحظة مطمئنة للفيلسوف جون سيرل تقول: «لا أحد يشعر بالقلق خوفاً من أن تهيمن الأحذية على العالم، إذن لماذا القلق من الحواسيب؟!» (1)

ولكن الحواسيب، من وجهة نظر العلم، لها قدرتان مهمتان: إدارة البيانات والحوسبة. ونعرف أن كل مجال علمي يستثمر هاتين القدرتين بنسب مختلفة، وأنه من خلال هذه العملية يتحول ذاتياً إلى شيء جديد.

ولنأخذ علم الإحاثة (الباليونتولوجي) كمثال. ظل هذا المجال حتى ثلاثين عاماً مضت يكاد يكون مقصوراً فقط على الدراسة التفصيلية للحفريات كل على حدة، بحيث يجري بذل الجهد بحذر وحب لقياس كل وحدة ووضعها في مكانها من القائمة. ومن ثم كانت صورة الباحث الباليونتولوجي إما صورة عالم فظ خشن سارح في ميدان بحثه يجمع الحفريات، وإما عالم له لحية كثة قابع في غرفة خلفية من قاعات أحد المتاحف عاكف على تحليل مكتشفاته. وأدخلت

الحفريات الواحدة تلو الأخرى في سجل الحفريات، وهي اللائحة المصنفة لجميع المقالات العلمية عن الموضوع.

كانت المشكلة أن أحدًا لا يستطيع إلقاء نظرة على السجل في مجموعه كوحدة متكاملة؛ نظرًا إلى وجود تفاصيل كثيرة جدًا. وهذه صورة نموذجية تقليدية لمن لا يستطيع أن يرى الغابة بسبب الأشجار. ولكن في أواخر السبعينيات شرع جاك سيبكوسكي، في جامعة شيكاغو، في تغيير كل هذا. غاص في أدبيات العلم وبدأ يجمع سجلًا محوسبًا لجميع الحفريات المسجلة في تقارير. واعتاد أن يطلق دعابات في هذا الشأن خلال حلقات البحث التي يعقدها بعرض صورة لمكتبة الجامعة باعتبارها مجال بحثه. ولكن مع تزايد قاعدة البيانات لديه بدأ الحاسوب يكشف عن حقيقة قوته وطاقته. لن نجد مخًا بشريًا قادرًا على تذكر آلاف المدخلات الواردة في سجل الحفريات، ولكن الحاسوب قادر على ذلك. وهكذا، لم تكد سعة ذاكرة المخ البشري تزيد وتتعاظم حتى بدأت الأنماط تظهر من بين المعلومات. مثال ذلك، أن من أولى النتائج المهمة كانت ورقة بحث كتبها سيبكوسكي بالاشتراك مع زميله داف روب أوضحا فيها أن نمط الانقراض في تاريخ الأرض يتبع نمطًا يتكرر مع اشتماله على حدث انقراض ضخم، وهو انقراض حيوان الديناصور منذ 65 مليون سنة مضت، وأن هذا النمط يتكرر كل 26 مليون سنة.

ولم تكد طاقة استخدام ذاكرة الحاسوب هذه تتضح على هذا النحو حتى انتشر استخدامها انتشار النار في الهشيم في كل المجتمع. وأصبح من المتوقع اليوم أن يكون عالم الباليونتولوجي خبيرًا ماهرًا في قاعدة المعلومات شأن عالم الجيولوجيا مع مطرقته، ويشعر بالآلفة مع لوحة المفاتيح كأنه في الميدان. وهنا أسئلة واسعة النطاق: من بقي على قيد الحياة عقب أحداث الانقراض؟ ومن هلك؟ هل الكائنات الحية تتطور حقيقة في صورة أحجام ضخمة مع الزمن؟ سبق توجيه هذه الأسئلة ولقيت الإجابات عنها. وهكذا لم يعد في المستطاع ممارسة علم الباليونتولوجي عمليًا هذه الأيام من دون قاعدة بيانات حاسوبية تمامًا، مثلما لا تستطيع ممارسته من دون حفريات.

وجدير بالذكر أن القدرة الحاسوبية للماكينات أدت دورًا تحويليًا مماثلًا في ميادين أخرى. والفكرة الأساسية هنا هي: القسط الأكبر من العلم قوامه بناء نماذج من العالم الخارجي، نماذج هدفها محاكاة العالم والتنبؤ بسلوكه. ويجري نمطيًا التعبير عن هذه النماذج في مصطلحات

معادلات رياضية. مثال ذلك عندما حقق إسحاق نيوتن نموذجه للكون الذي يعمل كالساعة، كان:
العنصر الرئيسي المفتاح في نظريته هو قانونه عن الجاذبية الكونية الذي نكتبه كالاتي

$$F = GMm/r^2$$

عدد كوني G المسافة بينهما، و r الكتلة لكل منهما، و m و M هي القوة بين جسيمين، و F حيث ثابت يُعرّف باسم ثابت الجاذبية.

وبمجرد إثبات معادلة كهذه تكون المهمة التالية هي حلها في سياق محدد، مثال ذلك استنتاج مدار القمر، أو حركتا المد والجزر في المحيطات في الكرة الأرضية. وهنا تبدأ المشكلة، لأنه بمجرد أن نتجاوز أدنى مستوى ممكن من التعقد حتى تتقصف أساليب الورقة والقلم التقليدية للحل.

وحي بني أن نتأمل حركة الأجسام في المجموعة الشمسية كمثال. ثمة قوى جذب كثيرة في كل لحظة تؤثر في كوكب مثل الأرض. وطبيعي أن الشمس لها تأثير ضخم، ولكن هذا أيضاً صحيح بالنسبة إلى الكواكب والأقمار الأخرى. وإذا تخيلنا تجمد حركة الكواكب للحظة، نضغط زر في معادلة نيوتن بأن تجمع كل هذه القوى الفردية F التوقف إذا شئت، هنا يمكنك حساب القوة من الكتل المعروفة للأجسام الأخرى والمسافة بين كل منها والأرض. وهكذا يمكنك بهذه المعارف حساب كيف أن كل قوى الجذب هذه تجعل الأرض تتحرك. ولك، إذا شئت، أن تجري حاسبة مماثلة لكل جرم آخر من أجرام المجموعة الشمسية.

كل شيء على ما يرام إذن ولكن الأمور تبدأ الآن في التعقد. إذا رفعنا إصبعنا عن زر التوقف وبدأت الكواكب والأقمار في الحركة، فإنها ستبدأ في إحداث رد فعل لقوى الجذب التي فرغنا من حسابها لفورنا. ولكن بعد ثوانٍ قليلة سيكون كل شيء في حركة. معنى هذا أن جميع القوى التي حسبناها في أثناء التوقف لم تعد هي القوة الفعلية المؤثرة في الأرض. F تغيرت، وأن القوة وعلينا، لعلاج ذلك، أن نضغط زر التوقف ثانية ونعيد حساب القوى، ونعرف الاتجاهات الجديدة للحركة، ثم ندع الأجسام تتحرك ثانية. ونحن حين نخطو على هذا النحو بالتبادل بين التوقف وإطلاق الحركة نستطيع في واقع الأمر أن نتنبأ بالحركة المستقبلية لكل جرم من أجرام المجموعة.

وهذه عملية معقدة تشتمل على كم كبير من العمليات الحسابية، واتبع العلماء تقليدياً نهجاً محدداً لذلك، وهو محاولة بناء نموذج مبسط للمجموعة الشمسية مع إغفال بعض التأثيرات التي نظن أنها ضئيلة. وأول خطوة في هذه العملية ربما تتمثل في التفكير في أمر الأرض والشمس كمثل. ونستطيع في هذه الحالة أن نستخدم حساب التفاضل والتكامل لاستنتاج مدار كوكب ما بالورقة والقلم (وهو على شكل قطع ناقص). وهذه هي تحديداً المشكلة التي شغلت فكر نيوتن واستحدثت معها حساب التفاضل والتكامل. ولكن إذا انتقلنا من البساطة وأضفنا جسمًا آخر، القمر أو المشتري مثلاً، فلن نستطيع الوصول إلى حل عن طريق الورقة والقلم، بل سنجد أنفسنا قد عدنا إلى حالة التعقد التي وصفناها آنفاً.

اعتادت المراصد الفلكية، في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع العشرين، أن تستخدم طاقماً كبيراً من العاملين وظيفتهم الوحيدة هي إنجاز مثل هذه الأنواع من العمليات الحسابية المجهدة، مستخدمين جداول اللوغاريتمات. وكم هو طريف أن نذكر أن هؤلاء العاملين كانوا يسمون وبوسعي أن أتذكر نعيًا لفقيد مع موجز لسيرته الذاتية نشرته صحيفة computers الحواسيب علمية منذ بضع سنوات بمناسبة وفاة آخر حاسوب (كمبيوتر) بشري. ولكن هناك حدوداً لتعقد الحسابات التي يمكن إجراؤها بهذه الطريقة، ما دامت عملية الحساب البشرية بطيئة نسبياً.

وطبيعي أن ظهور ماكينات الحساب الحديثة غير كل هذا. ليس لأن الحاسوب يمكنه في ثوانٍ أن يحسب ما يستغرق شهرًا بطريقة الحساب البشرية، بل أيضاً لأن الحاسوب بإمكانه معالجة ما هو أشد تعقداً. مثال ذلك أن لا فارق بالنسبة إلى الحاسوب أن نتوقف عند إضافة القمر والمشتري أو أن نضيف جميع الكواكب وأقمارها مع بضع عشرات من الكويكبات السيارة، إذ إن هذا لا يحتاج إلى أكثر من بضعة من الـ«ملي ثانية» (جزء من الألف من الثانية) زيادة لإضافة F_2 قواها عند حساب القوة.

ولكن الملاحظ منذ الثمانينيات أن هذه القدرة على الوصول إلى حلول رقمية للمعادلات المعقدة أحدثت ثورة في كثير من ميادين العلم. وحدث أنني في السبعينيات شاركت في مجال يسمى «ميكانيكا الموائع»، وهو فرع من الفيزياء ويعالج مشكلات من مثل دفع السوائل أو الغازات. وأذكر أن حدود الحساب بالحواسيب (الكمبيوتر) التي لدينا آنذاك هي حساب دفع الهواء فوق جناح سميكة لطائرة تتحرك بسرعة قريبة من سرعة الصوت. وكانت تصميمات الطائرات وقتذاك يتعين اختبارها عن طريق وضع نماذج داخل أنفاق هوائية مصممة ومكلفة. ولكن مع نهاية

الثمانينيات تحسنت الحواسيب إلى الحد الذي أصبح بالإمكان تصميم كل الطائرات عن طريق استخدام نوع من التقنيات الرقمية سبق أن حددنا معالمها فيما سبق. وأصبح في الإمكان حساب ومعرفة درجات الضغط والجهد على أي جزء من أجزاء السطح الداعم للطائرة. ويعرف المهندسون من ذلك كم القوة اللازمة لكل جزء من أجزاء الهيكل. وجدير بالذكر أن الطائرة بوينج 777 كانت أول طائرة تجارية جرى تصميمها بالكامل بالحواسوب (الكمبيوتر)، إذ عند تصميم هذه الطائرة تم تخزين جميع الأسطح في حواسيب، واختُبرت عن طريق تدريبات مصغرة افتراضية ضمت عددًا من المهندسين، بل والمسافرين، قبل اتخاذ القرار بشأن كل قطعة معدنية لتحديد معالمها وتقطيعها.

ونقل هذا بعبارة أخرى: إننا في هذا المجال لم نعد نُجري تجارب على نماذج فيزيقية أو، بدقة أكبر، أن النماذج التي نُجري عليها تجاربنا مختزنة داخل الحاسوب وليست في الخارج في العالم الواقعي. ونستخدم مصطلحًا للدلالة على مثل هذا النوع من عملية بناء طائرة، وهذا يظهر. computer modeling المصطلح هو التصميم الحاسوبي أو التصميم وفق نموذج حاسوبي واضحًا في الواقع أن قدرتنا الحاسوبية الجديدة تسمح لنا ببناء نماذج من العالم الواقعي داخل الماكينات. كما تحسنت الحواسيب على مدى العقدين الأخيرين (وفقًا لقانون مور الذي يقول إن سرعة الحواسيب سوف تتضاعف كل 18 شهرًا)، وأصبحت أسرع وأرخص. وهكذا نستطيع الآن عمل نماذج لمنظومات أكثر وأكثر تعقدًا.

وها نحن اليوم يمكن أن نجد نماذج حاسوبية متعددة المستويات من حيث درجة التعقد (والمصادقية) في مجالات واسعة ومتباعدة، من مثل التنبؤ بمستقبل المناخ (موضوع سنعود إليه فورًا) والإشارات العصبية في المخ، وسلوك سوق الأسهم. ونجد في أغلبية هذه المجالات أن الحائل الوحيد المؤثر في مدى التقدم هو سرعة وسعة الحواسيب. ولكن حيث إن قانون مور له نتيجة حتمية، فإن العلماء بوسعهم تضمين المزيد والمزيد من التفاصيل في نماذجهم، وهو ما يعني أن النماذج في سبيلها إلى أن تسلك على غرار العالم الواقعي أكثر فأكثر. (هنا طريقة مهمة للتفكير في نتيجة قانون مور: العملية الحسابية التي يمكن أن تتم اليوم عن طريق أفضل حاسوب فائق السرعة في العالم سوف تكون بعد 15 سنة من النوع الذي ينجزه حاسوبك الشخصي)

معنى هذا أن الزيادة المطلقة والمتاحة للقوة الحاسوبية لن تواصل اطراد تحسنها فقط، بل ستكون لها نتائج مهمة في كل مجالات النشاط العلمي. وهناك الآن مجالان جديان في العلم؛

نظرية الشواش ونظرية التعقد. تعود نشأتها بالكامل إلى توافر الحواسيب. ترى ماذا ستكون أفرع العلم التقليدية وقما يتهياً طلاب المدارس الابتدائية اليوم للنهوض بدورهم كمواطنين؟ هذا هو السؤال الذي سأتحول إليه الآن.

النظرية والتجربة والطريق الثالث

ينقسم العلماء، تقليدياً، إلى معسكرين تأسيساً على نوع العمل الخاص بكل منهم. نجد على أحد الجانبين من يعملون داخل المعامل أو المرصد، عاكفين على اكتشاف طبيعة العالم الذي نعيش فيه. ونجد على الطرف الآخر العلماء الذين حاولوا تفسير هذه النتائج وإنتاج نماذج (عادة نماذج رياضية) تمثل العالم. ويشار إلى هذين المعسكرين بالتجربة والنظرية على التوالي. وحدد العلماء نمطياً اختياراتهم بين هذين النهجين الكبيرين، ويتحدد الاختيار أحياناً مع السنة الثانية في التعليم الجامعي، ثم يقضون بقية حياتهم العملية ملتزمين بالنتائج المترتبة على هذا الاختيار.

ولهذا السبب نحن نرى التقدم العلمي أشبه بنوع من رقصة الفالس الجدلية أو التبادلية على مدى التاريخ، حيث أصحاب النظرية يقدمون تنبؤاتهم بينما أصحاب التجارب يتولون مهمة: إما تحقيق هذه التنبؤات داخل المعمل، وإما نفيها. ويمثل اكتشاف النماذج الحاسوبية تحدياً لهذا المخطط التصنيفي الخالص. واضح أن نموذج الحاسوب ليس نظرية في واقعه الحقيقي، ولكنه ليس أيضاً تجربة في واقعه الحقيقي. إنه شيء آخر، وبدأ علماء كثيرون يرون صناعة النماذج الحاسوبية، أو بأسلوب رسمي أكثر العلم الحاسوبي، طريقاً ثالثاً لأداء عملنا في مهنتنا.

يبدأ نموذج الحاسوب بنظرية. مثال ذلك أنه في حالة الطائرة يبدأ بالقوانين المعروفة الحاكمة للغازات القابلة للانضغاط، مثل الهواء. ويضيف كثيراً من الأمور الأخرى التي يمكن اشتقاقها من النظرية أو ربما من التجربة. مثال ذلك، ربما لا تكون هناك نظرية تصف الاحتكاك بين نوع خاص لسطح معدني والهواء في درجة حرارة أو ضغط مميز، لذلك فإن ما يحدث هو أن نأخذ نتائج القياس التجريبي لهذه الكمية ونلقمها في النموذج بدلاً من المعادلات النظرية. وأخيراً فإن المدخلات إلى النموذج ستكون ممثلة لأفضل معارفنا عن جميع العوامل التي يمكن أن تكون ذات أهمية في تصميم الطائرة. وعند هذه النقطة تبدأ مهمة الحاسوب الذي يُجري عمليات حسابية لكل هذه المدخلات بالأرقام، ثم يكشف لنا أخيراً أي كميات طلبنا منه حسابها.

ونجد بعامة أن أنواع الحوسبة التي تتم بهذه الطريقة أشد تعقداً بما لا يسمح للبشر بمراجعتها خطوة خطوة، إذ يستغرق هذا وقتاً طويلاً جداً. وهكذا يمكن القول إن الحسابات الفعلية تكون عادة أشبه بالصندوق الأسود. تلقم الحواسيب أرقاماً ومعادلات هنا لتخرج لك الإجابات هناك، ويصل بنا هذا إلى المشكلة الأساسية التي تصادفنا في هذا المجال الجديد للعلم: كيف لنا أن نثق بنتائج النموذج إذا كنا لا نعرف حقيقة كيف تأتى استخلاصها؟

ونجد على المنوال نفسه، وبسبب تعقد عملية الحساب، أن من الصعوبة للغاية أن نقول ما إذا كان بعض التقريب الذي حدث في جزء من البرنامج قد أخرج لنا النتائج كاملة أو لا. مثال ذلك: إذا تمثلت خشونة سطح الطائرة في صورة سلسلة من النتوءات الكروية الصغيرة (لك أن تتصور سلسلة من كرات البينج بونغ مقطوعة نصفين وملصقة بالجناح) بدلاً من الشكل الأكثر واقعية وتعقداً لسطح جناح الطائرة، فهل ستكون النتائج الحسابية ممثلة حقاً لما يحدث على جناح طائرة حقيقية؟ ويتحول السؤال الأساسي إلى ما يلي: كيف لك أن تعرف أن العالم الذي خلقته داخل نموذج حاسوبك هو عملياً مثل العالم نفسه الذي نعيش فيه؟ وهذه المشكلة نسميها مشكلة المصادقة على النموذج أو الثقة به، وهي مشكلة وإن قلل البعض من تقييمه لها فإنها تمثل جزءاً حاسماً ضمن الطريق الثالث لممارسة العلم.

ولدينا سبل كثيرة للثبوت من صحة النموذج. فإذا كنا بصدد صنع نموذج لمنظومة واقعية فإننا نستطيع أن نتبين إذا ما كان (forest ecosystem مثل طائرة أو منظومة إيكولوجية لغابة) سلوك المنظومة داخل الحاسوب يُضاهي سلوك المنظومة في عالم الواقع. ويبدو هذا بسيطاً، ولكن لنفكر فيما يلي: أي نموذج على درجة معتدلة من التعقد يفضي إلى كثير وكثير من التنبؤات. إن أضخم نموذج لمنظومات إيكولوجية للغابة شاهده في حياتي تديره وزارة الزراعة، وسوف يقدم تنبؤات عن أمور كثيرة، من مثل أنماط الأشجار التي سوف تزدهر في منطقة بعينها، وعدد الأقدام اللوحية(*****). لألواح الخشب ستنتج عن كمية محددة، وهكذا. وإنما يحدث عادة أن نجد أن بعض هذه التنبؤات وليدة ملاحظات بينما الأخرى ليست كذلك. وطبيعي أن هذا من شأنه أن يثير سؤالاً مهماً: ما النسبة المنوية من الملاحظات اللازمة لتضاهي التنبؤات قبل أن نقول إن النموذج تمثيل صحيح للواقع؟

وحدة قياس مكعبة للخشب تساوي جزءاً من 12 من القدم المكعبة. [المترجم]: board feet: الأقدام اللوحية (*****).

هذه مسألة مهمة لأنها تستلزم نوعاً من الحكم يتجاوز كثيراً التأكيد المنحصر في التنبؤ، التجربة، أو منهج الرفض المستخدم في التدريس المعياري للمنهج العلمي. إذا كنا بصدد استخدام النموذج لصوغ سياسة عامة مثلما حدث في حالة نماذج المنظومة الإيكولوجية للغابة سألنا الذكر، أو لنماذج المناخ التي سنناقشها فيما يلي، فإذن يلزم أن يتوافر لدى المواطنين على الأقل بعض الفهم لكيفية إصدار أحكام كهذه.

كذلك فإن تعقد العمليات الحسابية في كثير من النماذج يثير مشكلة أخرى تسبب الإحباط. إننا حتى لو افترضنا أن نتائج النموذج تضاهي ما نراه في عالم الواقع، فكيف لنا أن نتأكد من أننا لم نحصل على الإجابة الصحيحة عن سؤال خطأ؟ مثال ذلك: كيف لنا أن نعرف أننا لم نقع في خطأين وتصادف أن ألغى كل منهما الآخر في هذه العملية الحسابية، ولن يؤديا إلى ذلك عندما نستخدم النموذج كأساس لسياسة المستقبل؟ هذا سؤال صعب.

وثمة طريقة أخرى لاختبار نتائج نموذج، وهي تغيير بعض المدخلات لنرى ما إذا كانت النتائج النهائية رهينة التغيير. مثال ذلك المثال الذي أسلفناه عن دفع الهواء فوق جناح خشن الملمس، حيث بوسعنا أن نغير حجم كرات البينج بونج والفواصل بينها، ونرى هل تغيرت أي من خصائص الطيران التي تنبأنا بها. إذا لم تتغير، فلنا أن نقول إذن إنه حتى لو لم يكن نموذج الخشونة الذي لدينا صواباً تماماً، فإن أي اختلافات موجودة لن تسبب أي فارق عن النموذج. *exploring parameter space* يسمى العلماء هذه العملية اكتشاف قيمة ثابت الفواصل.

ومشكلتنا مع هذا النهج هي أنه غالباً ما يستغرق من الحاسوب وقتاً طويلاً لتشغيل النماذج، وغالباً ما تكون هناك مئات بل آلاف القيم الثابتة التي يمكن أن تتباين. معنى هذا أن كمية الاستكشاف التي يمكن إنجازها عملياً غالباً ما تكون محدودة جداً بالمقارنة بإجمالي العدد المحتمل للتباينات. ومن ثم فإنه لأمر عادي جداً بالنسبة إلى نوع نماذج المناخ التي سناقشها، أن تستغرق أشهراً من عمل الحاسوب للتنبؤ بالمناخ على مدى 100 عام من الآن. وهكذا نجد أنفسنا ثانية إزاء حكم بالمثل: كم عدد العمليات التي علينا أن نوديها لاستكشاف قيمة ثابت الفواصل قبل أن نكون على ثقة بأن جهلنا بالتفاصيل في عملية بذاتها لن يؤثر في الناتج النهائي؟ كيف لنا أن نتأكد من أن الدورة التالية لتشغيل الحاسوب (التي لم نعملها بعد) لن تنحرف على نحو هائل عن حسبتنا التي وصلنا إليها؟

إن القضية المحورية التي تتعين مواجهتها من منظور تعليمي هي إذن كيف نصل بطلابنا إلى حالة الألفة مع هذا النوع من العلم، على الرغم من كل ما فيه من تعقد، وحتى يمكنهم إصدار مثل هذا النوع من الأحكام التي ستكون مطلوبة منهم في حياتهم بعد ذلك؟ أعتقد، كما يوحي عنوان هذا الفصل، أنه إذا كان الطلاب من نوع النماذج التقليدية القائم على التجارب العملية، حيث يتعاملون كمثال مع تدرج كرات على أسطح مائلة ليساعدهم هذا على فهم عالم جاليليو البسيط نسبياً، فإنهم لن يمضوا بعيداً جداً في العالم الجديد الجسور القائم على علم الحواسيب. ولكن عليهم -على الأقل- أن يعرفوا أن هذا العالم الجديد قائم وموجود، وأن أسلوب الإجابات البسيطة بنعم أو لا عن الأسئلة العلمية سيكون أشد عسراً في المستقبل مما كانت عليه الحال في الماضي.

نماذج المناخ: حالة واقعية

ونحن بصدد تأليف هذا الكتاب عادت ثانية مسألة احترار الكوكب لتستحوذ على الاهتمام العام. وإذا تحدثنا من وجهة النظر السياسية نقرر أن هذه القضية تتألف من «زوبعة كاملة»، ومتضمنة كما هي في الواقع علماء معقداً وخيارات غير محببة على المستوى الشخصي والسياسي، مع الوعد ببذل الجهد الفوري بغية تحقيق عائد بعيد وغير يقيني. ولا نجد هنا شيئاً بسيطاً عن الموضوع، يمكن أن نعتبره مثلاً جيداً لنوع المناقشة التي يتعين أن نعد طلابنا بها لاستقبال القرن الواحد والعشرين.

ونثبت من باب التسجيل أننا نعرف أن الكوكب أخذ في الاحترار منذ نهاية العصر الجليدي القصير (*****) في منتصف القرن التاسع عشر. والسؤال الحقيقي هو: كم من الاحترار طبيعي وكم منه راجع إلى النشاط البشري؟

إشارة إلى فترة برودة شديدة بعد حقبة دافئة في شمال الأطلسي، كانت Little Ice Age العصر الجليدي القصير (*****) معروفة باسم فترة الدفء الوسيط، ووصف العصر الجليدي القصير لا يشير إلى عصر جليدي حقيقي، بل هو وصف استخدمه فرانسو إي. ماتيس في العام 1939. وتختلف تقديرات علماء المناخ والمؤرخين في تقدير الفترة التاريخية ويحصرها البعض في الفترة من القرن السادس عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر. [ويكيبيديا. المترجم]

إن الفيزياء الأساسية لاحتثار الكوكب ليست موضوع سجال. نعرف أن البشر إذ يستخدمون الوقود الأحفوري إنما يضيفون مزيداً من ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي المحيط بالأرض. ويعمل ثاني أكسيد الكربون عمل ما يُسمى غاز الدفيئة، ويمتص الأشعة تحت الحمراء المنطلقة من سطح الكوكب؛ ما يؤدي إلى خلق ما يشبه نوعاً من الغطاء الذي من شأنه، في حال

ثبات الأوضاع كما هي، أن يرفع درجة حرارة الأرض. والسؤال إذن: ما التغيرات التي ستحدث في الحرارة والمناخ نتيجة إضافة معينة من ثاني أكسيد الكربون؟

هناك كوكب أرض واحد، ولذلك لا نستطيع عمل تجارب نضيف فيها كميات مختلفة من غاز ثاني أكسيد الكربون إلى غلاف الجو لنرى ما سوف يحدث. معنى هذا أن سيناريو التنبؤ والملاحظة الذي ناقشناه في الفصل الأول لن يساعدنا كثيرًا في الحوار بشأن احترار الكوكب. ولكن العلم الحاسوبي هو وحده الذي يمكن استخدامه للإجابة عن السؤال عن نتائج نشاط البشر على الكوكب. وهذا بدوره يعني أن علينا بناء نموذج حاسوبي يشتمل على كل شيء من شأنه Global circulation models (GCMs) التأثير في المناخ. وتسمى هذه النماذج «نماذج الدورة الكوكبية» (ن. د. ك) وأود أن أبقى هنا وقتًا قليلًا لأصف هذه النماذج حتى تتضح تعقدات العمليات الحسابية.

تنطوي عملية إنتاج نماذج للدورة الكوكبية على صعوبات كثيرة. هناك مثلًا كمية غير قليلة من ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي بغض النظر عن الأنشطة البشرية. وواقع الأمر أنه لولا هذه الدفينة الطبيعية لتجمدت المحيطات على مدى مليارات السنين الماضية، كما أن متوسط درجة حرارة الكوكب ستكون 18 درجة تحت الصفر المئوي أو بضع درجات تحت الصفر بالمقياس الفهرنهايتي. إن الاحترار المتوقع بسبب الأنشطة البشرية لا يزيد على بضع درجات مئوية قليلة، لذلك يجب أن يكون النموذج قادرًا على حساب ما هو -عمليًا- تصويب قليل لظاهرة طبيعية ضخمة. وهذه دائمًا مهمة عسيرة (المعتاد إثبات الاحترار المتوقع بدرجات مئوية. ونظرًا إلى التقديرات التقريبية التي سوف أستخدمها هنا، تكفي مضاعفة التغير بالدرجات المئوية للحصول على معادل قريب جدًا بالدرجات الفهرنهايتية).

وكم هو يسير بناء نموذج للدورة الكوكبية، وهو أيسر كثيرًا من إنجاز المهمة المناطة به. نبدأ بتقسيم الغلاف الجوي والمحيط إلى صناديق متميزة، حيث حجم الصناديق يعتمد على قوة الحاسوب (وهذه نقطة سوف أرجع إليها فيما بعد). نضغط زر التوقف ونطبق قوانين الفيزياء المعروفة على السائل في كل صندوق، ونحسب عناصر مختلفة من مثل تغيرات الحرارة ودفق الطاقة وتكثف أو بخر الماء، وحركة غازات محددة وغيرها. وبمجرد أن نفرغ من هذا حتى نبدأ نخطو بالنموذج خطوة أخرى إلى الأمام، ونضغط ثانية زر التوقف ونكرر العملية؛ واضعين في الاعتبار حركة (كمثال) السوائل أو الطاقة من صندوق إلى الذي يليه. وعادة في برنامج

الحاسوب من مثل النوع المستخدم لاستنتاج تنبؤ الطقس عند المساء مثلاً ستكون الصناديق نحو عشرات الكيلومترات الإضافية، وأحد عشر صندوقاً مكدسة من السطح إلى قمة الغلاف الجوي، ويتحرك البرنامج إلى أمام 20 دقيقة بين كل فترة توقف وأخرى. وتنتج عن هذه العملية نمطياً بضع عشرات الملايين من الصناديق لكي يعالجها الحاسوب. وتمثل هذه الأرقام الحد الذي رسمته السرعة الحاسوبية للماكينات؛ مقترنة بالقدرة على إيجاد تنبؤ الغد قبل مجيئه فعلياً. وإذا أردنا حساب المناخ لمدة مائة عام مقبلة من الآن فسيكون لزاماً علينا تبسيط العملية الحسابية عن طريق توسيع حجم الصناديق لتتسع لأكثر من مائة كيلومتر إضافية، وتشغيل الحاسوب لعدة أشهر بدلاً من عدة ساعات.

وتوجد حرفياً مئات الكميات التي يلزم تلقيمها في نماذج الدورة الكوكبية قبل بدء التشغيل. مثال ذلك نعرف أن الجليد يعكس ضوء الشمس الساقط عليه، بينما الماء يمتصه. وإذا ارتفعت درجة حرارة العالم داخل الحاسوب فإن علينا تقدير كمية الجليد التي تذوب بين كل فترة توقف وأخرى، ونعدل الدفاء الناتج عن ضوء الشمس الداخل وفقاً لذلك. كذلك فإن كميات من مثل غزارة الخضرة النباتية وغطاء السحاب وجسيمات الهباء (الأيروسول) في طبقات الجو العليا، علاوة على عوامل أخرى كثيرة، يتعين إدخالها قبل أن تبدأ نماذج الدورة الكوكبية في التنبؤ. وأوضحنا فيما سبق أن علينا الحذر خشية الخطأ في أي منها، وإذا حدث فإن علينا أن نعرف تأثير ذلك في ناتج تشغيل الحاسوب. وبعد أن نحدد الوقت اللازم لكل تشغيل، يجب أن يكون واضحاً أن مهمة اكتشاف قيمة ثابت الفواصل بالنسبة إلى هذه النماذج مهمة مذهلة على أقل تقدير. وهذه مجرد مشكلة واحدة يتعين التفكير فيها عند الحصول على تنبؤات (مشكلة أخرى أن شبكة من عدة مئات الكيلومترات الإضافية لا يمكنها أن تفيد كثيراً لتمثيل عواصف كبرى مثل الأعاصير).

ولا تزال هناك مشكلة أخرى: نعرف أن للسحاب دوراً كبيراً وإن كان معقداً في تحديد المناخ، إذ تميل بعض السحب إلى الاحتفاظ بالحرارة على السطح، بينما سحب أخرى تميل إلى عكس ضوء الشمس. ونعرف أيضاً أن السحب نادراً ما تتكاثف بكميات كبيرة على مدى عدة مئات الكيلومترات. معنى هذا أن استخدامنا لصناديق بهذا الحجم يجعل من الصعب علينا حساب آثار السحاب بدقة. وهذا قيد يفرضه علينا واقع الأغلبية العظمى من الحواسيب الراهنة. ولكن بدأ هذا القيد ينتفي مع بدء تشغيل الحاسوب الفائق العملاق المسمى «محاكي الأرض» في يوكوهاما في

العام 2002. وقد بُنيت هذه الماكينة خصوصًا لعمل نموذج للطقس والمناخ لكوكب الأرض. وتعتبر سريعة جدًا بما يكفي لخفض حجم الصناديق إلى مدى 10 كيلومترات، مع إمكان حقيقي للانخفاض إلى مدى كيلومتر واحد. والحقيقة أن هذه العمليات الحسابية تشتمل على تفاصيل كثيرة جدًا إلى درجة أن مراقبة ناتج أو مخرجات الماكينة أشبه بمراقبة فيلم سينمائي صُوّر من كوكب اصطناعي للطقس. وعلى أي حال فإن هذا الجانب من مشكلة السحب سوف يُحلّ عمليًا وفق نبوءة قانون مور مع تحسن الحواسيب وزيادة سرعتها.

وبمجرد أن ينخفض حجم الصناديق ليصبح مثل حجم السحب حتى نواجه مشكلة أخرى أكثر أساسية وصعوبة. واقع الأمر أننا لا نعرف بعد ما يكفي عن كيفية تشكل السحب وكيف تعمل حتى نستطيع التنبؤ بما سوف يحدث عندما، مثلًا، تنخفض درجة حرارة جو ذي رطوبة محددة عدة درجات. ونظرًا إلى أهمية السحب في التنبؤ بالمناخ في المستقبل، فإن جهلنا بهذه الحقيقة سيؤدي إلى شكوك كبيرة في التنبؤات التي يخرجها لنا نموذج الدورة الكوكبية.

وبسبب هذه الشكوك وشكوك أخرى من أنواع مختلفة، تقدمت جماعات مختلفة من العلماء بسيناريوهات متعددة ومتنوعة بشأن مناخ الأرض مستقبلًا. وأصبح مألوفًا الحديث عن كمية الاحترار التي من المتوقع أن تنتج عن تضاعف مستوى ثاني أكسيد الكربون زيادة على مستوياته قبل عصر الصناعة واعتبار ذلك المستوى معيارًا في المناقشات الجارية (المستويات الراهنة أعلى من مستويات ما قبل الصناعة بنحو الثلث). وتوجد لجنة الخبراء الحكومية الدولية المعنية بتغيرات المناخ، وهي لجنة دولية ضخمة، وهي الأقرب، دون أي لجان أخرى، لتمثل توافقًا في الآراء بشأن الرأي العلمي في هذا الموضوع. تنبأت هذه اللجنة في العام 2007 بأن درجة الحرارة هذه سوف تزداد لتصل إلى ما بين 1.5 و4.5 درجة مئوية مع أفضل التقديرات التي تصل إلى 3 درجات مئوية. وتشير إلى أن الأرض ارتفعت حرارتها أقل قليلًا من 1.5 درجة مئوية منذ نهاية ما يُسمى العصر الجليدي القصير في منتصف القرن التاسع عشر، هذا بينما الخروج من العصر الجليدي الأخير منذ 10 آلاف سنة مضت تراوحت درجة الحرارة فيه إلى إجمالي 5 درجات مئوية.

والمأمول في أفضل العوالم الممكنة أن نتمكن من أن نؤسس قرارات سياساتنا بشأن تخفيف حدة حرارة الدفينة على أساس تحليل التكلفة والعائد. ونأمل أن نتمكن من أن نقول عبارات مثل «إضافة س من أطنان ثاني أكسيد الكربون إلى الغلاف الجوي من شأنه أن يسبب قدر كذا من

زيادة الحرارة والذي ستكون تكلفته كذا، بينما تقلص هذه الانبعاثات سوف يكلف كذا في صورة مرافق أساسية إضافية أو نشاط اقتصادي ضائع». ونجد حججًا كثيرة في مجال هذه المقارنة. مثال ذلك: كم حجم القيمة التي نخسرها بسبب فقدان نوع من النبات غير معروف أو بسبب تغيرات غير مواتية تلحق بالمنظومة الإيكولوجية للغابات؟ بيد أن الفكرة الأساسية هي أنه بسبب الشكوك في نماذج الدورة الكوكبية لا نستطيع حتى الدخول في هذا الحوار لأننا لا نستطيع أن نتحدث بأي درجة عالية من اليقين ونقول ما النتائج المتوقعة في المناخ بسبب نشاط بعينه. ومن ثم فإن الموقف، كما قلت، هو تقرير باحتمال حدوث أشياء ما دام الأمر متعلقًا بالحوارات العامة. وما دام العلم المختص شديد التعقد وربما لا يفهمه جيدًا أي امرئ من خارج الدائرة الضيقة من الخبراء، كذلك فإن الطرق المعيارية للثقة في، والمصادقة على، نماذج الدورة الكوكبية يمكن بالمثل أن تعطي نتائج ملتبسة. إننا إذا ما سألنا: هل تعطينا وصفًا دقيقًا لعالم الواقع؟ فإن الإجابة بأنها تحقق نتائج جيدة في مجالات، وليست بالقدر نفسه من الجودة في مجالات أخرى. وإذا حدث على سبيل المثال وطلبت منها «التنبؤ» بحالة المناخ على مدى القرن العشرين فإنها تعجز عن ذلك من حيث المبدأ. هذا على الرغم من أن بإمكانها تقديم نبوءات معقولة عن طريق تعديل عدد من ثوابت المعادلات المختلفة.

دلالات تعليمية

يمكن أن نستخدم مشكلة الاحترار الكوكبي كحالة تمثل نموذجًا إرشاديًا للدلالة على علم المستقبل، ونسأل عن أنواع المعادلات التي سيكون طلابنا في حاجة إليها للتعامل معها عن فهم وذكاء، يبدو واضحًا أننا لا نستطيع أن نتوقع أن يبني كل امرئ نموذجًا للدورة الكوكبية خاصًا به، ولا أن يتحقق بنفسه من التنبؤات التي قال بها العلماء. كذلك ليس لنا أن نتوقع أن يكون كل امرئ مطلعًا -بناء على دراسة وتجربة- على تفاصيل المقاربات المختلفة التي يجري تلقيها للنماذج. إن أغلبية العلماء (ومنهم المؤلف) لا يعرفون -حقيقة- كثيرًا عن هذا. لذلك علينا أن نفكر بشأن ماهية أنواع القضايا، تحديدًا، التي نريد من مواطنينا المتوسطين أن يكونوا قادرين على معالجتها والتعامل معها.

واعتقد أن المهمة التعليمية الأخطر شأنًا هي التأكد من أن المواطنين المتوسطين يعرفون أي أنواع الأسئلة التي ينبغي أن يسألوها في موقف بعينه. مثال ذلك أنه في حالة الاحترار الكوكبي

يمكننا تناول هذه المشكلة عن طريق التفكير في القضايا العلمية، باعتبار أنها مؤلفة من مجموعة أسئلة متعددة الطبقات، وأن كل طبقة أكثر عمومية من الأخيرة. ويتعلق السؤال الأساسي الأول بالمدخلات الفردية في نموذج الحاسوب، مثل سؤال: هل حصلنا على تقديرات صحيحة لتغيرات الجليد في البحر؟ هذا سؤال علمي محض، ولعل الأفضل تركه للخبراء. ويتضمن الثاني سؤالاً عما يحدث عند تلقيم هذه المدخلات في نموذج الدورة الكوكبية: هل النتائج النهائية ستكون حساسة إزاء أي شكوك مهما كانت عند المستوى الأول؟ كم عدد القيم الثابتة للفواصل التي اكتشفت، وهل تكفي؟ الإجابات عن هذه الأسئلة تبدأ بإفادتنا عن كمية اليقين الذي سوف نلقمه لتنبؤات نموذج الدورة الكوكبية. ونواجه عند المستوى الثاني مشكلة المصادقة: هل الأوصاف التي لقمناها للحاسوب عن العالم تضاهي العالم الذي نعيش فيه فعلياً؟ وهذا سؤال سيدور الجدل العلني بشأنه بين العلماء، وهو جدل يمكن للمواطن العادي أن يتابعه. وأخيراً سنضطر إلى مواجهة ما يمكن القول إنه المشكلة الأصعب قاطبة: مع التسليم بأن مناخ الأرض في تغير دائم، فما قدر الاحترار الراهن الذي يرجع فعلياً إلى النشاط البشري؟ إننا بعد أن نفرغ من هذا كله يمكن البدء في التعامل مع خط الأساس الحقيقي: ماذا عسانا أن نفعل (أو ألا نفعل) بشأن الاحترار الكوكبي؟ إن القضايا البارزة ستكون موزعة على طبقات وفق هذا الوضع. من دون اعتبار لمدى تعقد العلم الداعم للجدل الذي سيدور مستقبلاً.

تُرى ما المعارف الأساسية التي يحتاج إليها المواطن المتوسط للتعامل بنفسه مع هذه القضايا متعددة الطبقات؟ طبيعي أن أول ما يحتاج إليه هو معرفة ما يكفي عن العلم الأساسي الخاص بفهم كيفية إنتاج التنبؤات عن الاحترار الكوكبي، وأن يتوافر لديه بعض الفهم عن مظان الشكوك المختلفة ومصادرها. وينبغي أن يعرف أيضاً ما يكفي عن مناهج العلم لكي يفهم أنه حتى لو كان العلم عاجزاً عن تقديم إجابات يقينية عن أسئلة مهمة الآن فوراً، فإنه على الرغم من هذا يمكن أن يوفر لنا الطريق الذي يرشدنا إلى اتخاذ القرار، ومن ثم إلى تكوين صورة تنطوي على أقل قدر ممكن من عدم اليقين. وحرى به، في النهاية، أن يكون في مقدوره التعامل مع التنبؤات العلمية بالإحساس نفسه إزاء الشك العقلاني الذي يمكن أن يلوذ به عند معالجة تنبؤات أخرى غير يقينية من مثل تنبؤات علماء الاقتصاد وعلماء الأرصاد الجوية، إذ واقع الأمور أن الناس قادرون تماماً على التعامل مع الشك عند اتخاذ قرارات عامة، وإن كانوا يفعلون ذلك دائماً وأبداً في مجالات غير علمية. ولهذا لا أرى سبباً يجعل الشخص العادي عاجزاً عن تناول القضايا

العلمية المعقدة بالأسلوب نفسه، وأن يضع في الاعتبار الرأي الخبير، ويحافظ في الوقت نفسه على قدر صحي معقول من الشك.

ولكن ما القضية التي لها الصدارة اليوم؟ أو بعبارة أخرى: ماذا عن الحاجة إلى اتخاذ قرار مباشر في مواجهة حالة عدم اليقين؟ أوكد هنا أنه بمجرد أن يتوافر لدى الطلاب الإطار الأساسي الذي سمّيته المعارف الأولية العلمية سيكون يسيراً عليهم نسبياً فهم طبيعة عمل النموذج الحاسوبي. وأنه من السهل أيضاً، نسبياً، أن نعلمهم الحكم على الثقة المرجعية النسبية لمختلف المشاركين في أي حوار علمي. أو لنقل بعبارة أخرى: إن وجود حالة من عدم اليقين قد تزيد من صعوبة اتخاذ قرار، ولكن يجب ألا تحول بيننا وبين اتخاذ أحكام تقريبية. وأرى أنه إذا توافرت للمواطن المتوسط هذه الخلفية الأساسية فإن الوقت يكون قد أزف لكي يلتزم العلماء بموقف عدم التدخل وليدعوا الناس يُعملون عقولهم ويفكرون في استقلال. وهذا في الختام هو كل ما تعنيه الديمقراطية.

* * *

لا أحد منا يعرف من الآن ماذا ستكون موضوعات الحوار بعد عشرين عامًا. ونحن على يقين من أن أحدًا لم يكن بوسعه، منذ عشرين عامًا، أن يتنبأ بالنقاشات الدائرة الآن عن الهندسة الوراثية أو عن الخلايا الجذعية. ولكن أيًا كانت موضوعات الحوار التي ستُجرى مستقبلاً أستطيع أن أضمن أنها ستكون مرتبطة «بالإطار العام للأفكار الكبرى

المؤلف

طريق الأفكار الكبرى إلى المعارف الأولية العلمية

قبل أن أسطر حرفاً واحداً في هذا الكتاب بعدة أشهر كنت انتقلت أنا وزوجتي إلى بيت جديد في إحدى الضواحي الجديدة قرب جامعة جورج ماسون. وحيث إنني عملت في السابق عامل بناء، فقد استمتعت بالمشي حول المكان أرقب البيت وهو يعلو، وأثرثر مع البنانيين، وأؤدي دور المشرف الذي يقف على الرصيف حتى يكتمل البناء. لكن ليس عليك أن تفهم أعمال البناء لكي تحسن تقييم أحد عناصر العملية: ليس مهمًا كيف أصبح البناء في نهاية المطاف جميلًا يسر الناظرين، ومعقد التركيب، إذ إن كل مشروع يبدأ بوضع أساسات متينة. قد تكون جدرانًا أسمنتية لطابق سفلي محفور له تحت الأرض، أو دعائم من الحديد تُغرس لتكون قاعدة، أو مجرد بلاطة خرسانية، ولكن كل شيء من هذا لا بد من أن يكون موجودًا أولاً لكي نمضي ونكمل العمل

إن المعارف الأولية العلمية أو المعلومات الأساسية عن العلم، التي يحتاج إليها الناس لأداء دورهم كمواطنين، ولكي تتوافر لديهم القدرة على تقييم العالم من حولهم، لها في تعلم العلم الدور نفسه الذي للأساسات والدعائم الأسمنتية لبناء البيت، ولكي يعلو طبقات من حولي. ومن ثم يتعين أن تتوافر المعارف الأساسية عن العلم وتحتل مكانها الصحيح قبل أن يتحدث المرء عن مفاهيم أكثر تقدمًا، تمامًا مثلما يجب أن تكون أساسات البناء في موضعها قبل أن نبني بقية البيت. وعندي أن من يدفعون بأن علينا أن نُعلّم الطلاب المنهج العلمي أو أن نغرس لديهم عادة العقل العلمية إنما هم في الواقع يحاولون بناء البيت قبل إرساء الدعائم

إن الناس عليهم أولاً، قبل الشروع في التفكير نقدياً بشأن أي موضوع من موضوعات علم ما، أن يعرفوا شيئاً عن هذا العلم. مثال ذلك، لا معنى لأن نحاول تعليم الطلاب التفكير النقدي في الاحترار الكوكبي إذا كانوا لا يعرفون أساسيات توازن الطاقة لكوكب الأرض. وفي النهاية لا يستطيع المرء أن يفكر نقدياً في «لا شيء»، إذ إن المفاهيم التي نتناولها بالتفكير يجب أن تكون ضمن ترسانتك الذهنية قبل الشروع في التفكير فيها. وتمثل هذه الفكرة المنطق الأساسي للمعارف الأولية الثقافية أو محو الأمية الثقافية، والتي ناقشناها تفصيلاً في الفصل الأول.

وأريد في هذا الفصل أن أتحدث عن طريقة طبيعية لبناء هذا الأساس لجميع طلابنا، ثم ننقل بعد ذلك إلى التفكير بشأن كيف سيكون شكل البناء حين يكتمل في نطاق اهتمامنا بتعليم العلم.

طريق الأفكار الكبرى إلى المعارف الأولية العلمية

عندما أفكر في الاسم الذي أحب أن أطلقه على النظرة العلمية إلى العالم أجد نفسي في الغالب أستخدم صورة شبكة العنكبوت كنظير لها، إذ توجد حول حواف الشبكة جميع ظواهر الكون الفيزيقي (شواطئ بحار وكرات البيسبول ونجوم وعناكب وأشجار اليوسفي وأبراج... إلخ). ابدأ من أي نقطة من الشبكة وابدأ في أسئلتك. ما هذا الشيء؟ كيف يعمل؟ ما علاقته بما حوله؟ عليك وأنت تستطرد في هذا أن تشق طريقك إلى داخل جسم الشبكة لتستكشف روابط غير متوقعة على طول الطريق. سوف تكتشف -على سبيل المثال- أن وميض البرق والقوة التي تسمح لمغناطيسات زخرفية بالاحتفاظ بأوراق الملاحظات مثبتة على الثلاجة جميعاً مترابطة، وأن الاثنين مرتبطان بالكهرباء التي تسري داخل البيت والضوء الذي ينيّر لك المكان. وبعد أن تكون قد أكملت عملياً طريقك إلى منتصف الشبكة ستجد عددًا قليلاً من المبادئ العامة التي، إذا أخذتها معاً، تفسر لك عمل الكون كله. لك أن تسميها المبادئ الكونية الأساسية، أو الأفكار الكبرى، أو سمّها ما شئت، فإنها هي اللب والهيكل العام لأسلوب العلماء في النظر إلى العالم. إنها هي التي تعطي نظرتنا إلى الكون شكلها وصورتها.

إن هذه التراتبية الطبيعية الهرمية في تنظيم العلوم توحى لنا بنهج لتعليم العلم تأسيساً على الأفكار الكبرى. وسوف أضع فيما يلي قائمة صريحة بهذه الأفكار. وتولّف هذه الأفكار معاً بنية فوقية لصرح العلم. إنها الإطار العام الذي نثبت به كل شيء آخر، أي مثل الجدران والنوافذ التي نثبتها بدعامات الصلب في ناطحة سحاب. وإني على اقتناع كامل بأن أي شخص توافر لديه هذا

الإطار - أعني بعبارة أخرى، امتلك ناصية الأفكار الكبرى- سيكون مثقفًا علميًا إذا توافرت لديه المعارف العلمية الأولية.

وحيث إن بالإمكان تصور الأفكار الكبرى في صورة هيكل عام فكري، فإن هذا يعطي مرونة كبيرة في التفاصيل بشأن كيفية عرض الموضوعات التي هي خاصة مفيدة لأي مخطط تعليمي. وأجدني حين أريد توضيح هذه الفكرة أتحدث عن خبرة عشتها وقتما كنت عاكفًا على الطبعة الأولى من كتاب «العلوم: نهج موحد» (انظر الفصل الثامن). وافق عدد من المعلمين في أنحاء مختلفة من البلاد على التدريس تأسيسًا على المسودة الأولى، وعمدت أنا وشريكي في التأليف روبرت هازن إلى عمل جولة لزيارة قاعات الدرس التي يدرسون فيها. وهكذا وجدت نفسي داخل قاعة درس في جامعة دوربول في شيكاغو أستمع إلى لين ناراسيمان، أستاذ الرياضيات، يلقي درسًا عن العلم الزائف على فريق يضم نحو 20 من معلمي المستقبل.

واقترحنا في الكتاب تجربة بسيطة (سبق عرضها في الفصل الأول) لاختبار التنجيم، إذ أعطينا الطلاب جدول الطالع الخاص باليوم السابق وطلبنا من كلٍّ أن يختار الطالع الذي كان يمكن أن يكون المشورة الأفضل له في اليوم السابق عليه. ولاحظنا أن بالإمكان أن يقع أحد الطلاب من بين الاثني عشر طالبًا على الإجابة «الصحيحة» بالمصادفة. ترك ناراسيمان الطلاب يجرون التمرين ويفرغون منه ويحصل على النتيجة المتوقعة، ثم حوّل قاعة الدرس إلى تدريب مذهل -على مدى ساعة- عن مفهوم المصادفة، ودار النقاش الذي كان مقدمة دَخَل الطلاب من خلالها إلى الأفكار الأساسية لمعنى نظرية الاحتمال.

والفكرة الأساسية من هذا المثال أن الأغلبية العظمى منا لن يحدث لها مطلقًا (وأنا بكل تأكيد) أن تستخدم التنجيم بهذه الطريقة. لكن ماذا لو تصورت أن هذا الاستخدام المميز للأفكار الكبرى لا يهم، ذلك لأن المنظومة تسمح لكل معلم بأن يستحضر خبرته الخاصة واهتماماته الخاصة بالموضوع المطروح. وهكذا يثبت كل معلم أفكاره الخاصة في الإطار العام الذي صاغته الأفكار الكبرى.

أخيرًا، ثمة خاصية مهمة تشترك فيها الأفكار الكبرى مع آراء أخرى ترتبط بالمعارف الأولية الثقافية. لا أحد منا يعرف من الآن ماذا ستكون موضوعات الحوار بعد عشرين عامًا، ونحن على يقين من أن أحدًا لم يكن بوسعه منذ عشرين عامًا أن يتنبأ بالنقاشات الدائرة الآن عن الهندسة

الوراثية أو عن الخلايا الجذعية. ولكن أيًا كانت موضوعات الحوار التي ستُجرى مستقبلاً، أستطيع أن أضمن أنها ستكون مرتبطة بالإطار العام للأفكار الكبرى

.وسوف أورد قائمة بالأفكار الكبرى وأناقشها بالترتيب ضمناً للفاعلية من وجهة نظر تربوية

الكون منتظم ويمكن التنبؤ بأحداثه

هذا المفهوم هو بمعنى ما شرط ضروري لممارسة العلم. إنك إذا ألقيت بالكتاب الذي بين يديك ليسقط مثلما يعلو إلى فوق، فإنك لن تستطيع أن تتكلم البتة عن تطبيق المنهج العلمي، ذلك أن المنهج رهن فكرة أن التجارب أو الملاحظات المتكررة تعطي النتيجة نفسها. وهذا هو السبب في أننا نكتشف الانتظام في الطبيعة ونصوغ النظريات. وتعتبر قوانين الحركة عند نيوتن وكذا قانون الجاذبية الكونية مثالين رائعين لما يحدث عندما نسمح لهذه الفكرة العظيمة بأن تتجلى في عالم الواقع.

ودارت خلال السنوات الأخيرة بعض الحوارات كان من ثمرتها أن ميلاد نظرية الشواش أكد صواب هذه الفكرة العظيمة تحديداً. وأعتقد أن سبب ظهور هذه الحجة أن الناس لا ينتبهون إلى المواضيع الدقيقة الخاصة بطبيعة المنظومات الشواشية. وليس لي القارئ باستطراد قصير. أوضح معه هذه النقطة.

تعتبر المنظومة شواشية إذا كان تحريكها من موقفين أوليين منفصلين، لكن على صلة وثيقة من البداية، يؤدي إلى ناتجين نهائيين مختلفين اختلافاً واسعاً. مثال ذلك: شريحتان من الخشب موضوعتان جنباً إلى جنب فوق أعلى مجرى نهر جارف شديد الانحدار سوف تتباعدان كثيراً إحداهما عن الأخرى عند وصولهما إلى الجانب الأدنى للمجرى المائي. ومن ثم فإن التنبؤ بسلوك منظومة شواشية يستلزم توافر معلومات دقيقة -أن تكون أساساً دقيقة دقة لا نهائية- عن نقطة انطلاق المنظومة. ويستطيع المرء في الحقيقة -تأسيساً على هذه المعلومات- أن يحسب سلوكها المستقبلي بدقة. لكن سيكون هناك بوجه عام قدر من عدم اليقين في تلك المقاييس الأولية، وهذا بدوره يعني أن المرء لن يستطيع عمل مثل هذه الحسبة. أو بعبارة أخرى، على الرغم من أن بالإمكان -من حيث المبدأ- التنبؤ بالمنظومات الشواشية فإنه في الممارسة العملية ليس بالإمكان على الأرجح التنبؤ بها.

ولا يعني ظاهر المنظومات الشواشية استحالة أن نعرف أي شيء عنها. إن الغلاف الجوي المحيط بالأرض، كمثال، ربما يكون شواشياً، لكننا نستطيع استخدام النماذج الحاسوبية لاستنتاج تنبؤات جيدة إلى حد كبير عن حالة الطقس على المدى القريب.

طاقة المنظومة المغلقة محفوظة

الحرارة لا تسري تلقائياً من جسم بارد إلى جسم ساخن

هاتان العبارتان على التوالي نعرف أنهما القانون الأول والقانون الثاني للديناميكا الحرارية، وتصفان طبيعة وحركة الطاقة. مثال ذلك أن القانون الأول في صيغته البديلة (الطاقة لا تفنى ولا تستحدث) يشكّل الأساس للعلم الخاص بالاحترار الكوكبي. ويفيدنا بأن الطاقة التي تحتفظ بها غازات الدفيئة لا تتبدد. إنها تسري إلى مكان ما، وهي في هذه الحالة احترار الكوكب. وتتعلق العبارة الثانية بواقع أن الكون (أو أي منظومة مغلقة وفق موضوعنا هنا) في مجموعه يزداد فوضى بمرور الزمن. ونجد تجليات غير متوقعة لهذا القانون يومياً. إنه يقول لنا كمثال: إننا إذ نحرق الفحم لتوليد الكهرباء فإن ثلثي الطاقة الكامنة في الفحم يتعين بالضرورة إفراغهما والتخلص منهما في البيئة كحرارة مفقودة، أي عادم.

معادلات ماكسويل تحكم الكهرباء والمغناطيسية

تحمل هذه المعادلات اسم عالم الفيزياء النظرية الإسكتلندي جيمس كلارك ماكسويل (1831-1879)، إذ إنه أول من أثبتها. وتفيدنا، كمثال، بأن هناك نوعية من الشحنة الكهربائية حيث الشحنات المتماثلة تتنافر بينما غير المتماثلة تتجاذب. وتفيدنا أيضاً بأن الشحنات الكهربائية المتحركة (أي التيار) تتولد عنها مجالات مغناطيسية (المبدأ الأساسي لتشغيل المحرك الكهربائي) وأن تغير المجالات المغناطيسية تتولد عنه تيارات كهربائية (مبدأ التشغيل الأساسي للمولدات). علاوة على هذا استخدم ماكسويل هذه المعادلات للتنبؤ بوجود موجات ابتداء من الموجات اللاسلكية والميكرو ويفز، وصولاً إلى أشعة إكس. والمعروف أن البحث هو الذي قاد إلى هذه المعادلات التي أنتجت المجتمع المعاصر المعتمد على الكهرباء. وكانت أيضاً الخلفية الأساسية للملاحظة التي تنبه لها فاراداي وأبلغها إلى رئيس الوزراء (إذ قال سوف تستطيع يوماً جباية ضرائب مقابلها)، والتي أوردناها في الفصل السابع.

المادة مؤلفة من ذرات

تتعلق هذه الفكرة الكبرى بالبنية الأساسية للمادة في الكون. نعرف أن هناك تاريخًا طويلًا للجهد والعمل منذ أيام التأمل الإغريقي قديمًا، وصولًا إلى النظرية الذرية الحديثة المؤسسة على المعلومات والتي قادتنا إلى هذه الرؤية النافذة المميزة. وهذه أيضًا أولى الأفكار الكبرى التي لا تزال مفتوحة النهاية قابلة للإضافة والتعديل، إذ منذ أن بدأ البحث على أيدي الفلاسفة الذريين الإغريق تواصل وامتد وصولًا إلى الفيزياء النووية وفيزياء الجسيمات والكواركات وربما ننتقل مستقبلًا إلى أمور أخرى مثل الأوتار.

وحرى بنا أن نفكر على النحو التالي: في مطلع القرن التاسع عشر قدم عالم الكيمياء البريطاني جون دالتون الفكرة الحديثة عن الذرة. وحرص دالتون على الاحتفاظ بمعنى الكلمة اليوناني (ما لا يمكن تقسيمه)، لهذا رأى أن الذرات غير قابلة للانقسام. وإذا تصورنا الذرات في رأي دالتون مثل كرات البولينج فلن نبعد عن الواقع كثيرًا. لكن مع مطلع القرن العشرين عرفنا أن الذرات ذات بنية داخلية مركبة، إذ بداخلها إلكترونات تدور في مدارات حول نويات ثقيلة. واكتشفنا بحلول منتصف القرن العشرين أن المئات من مختلف أنواع الجسيمات قصيرة العمر موجودة داخل النواة. وبعد ذلك بفترة قصيرة عرفنا أن ما كنا نسميها جسيمات أولية هي ذاتها مؤلفة من أشياء أكثر أولية، أشياء سُميت كواركات. ويرى العلماء النظريون اليوم أن الكواركات ذاتها يمكن أن تكون تجليات لجسيمات أصغر وأكثر تعقدًا يسمونها الأوتار. ولا يزال البحث ماضيًا على قدم وساق لفهم البنية الأساسية للكون، وهذا هو ما أسماه عالم الفيزياء ستيفن واينبرج «أحلام بنظرية نهائية» في كتاب له يحمل الاسم نفسه.

خصائص المواد رهن التطابق، والترتيب، وتلازم الذرات المكونة لها

بمجرد أن يعرف المرء أن كل الأشياء المادية مصنوعة من ذرات يمكنه البدء في الحديث عن تكوين العدد اللانهائي من المواد حولنا، ابتداءً من أجسامنا وحتى الشرائح الصغرى (المايكرو)، ووصولًا إلى المعادن و«البلاستيكات» (اللدائن) في السيارة. وعلينا أن نفهم كيف تتجمع الذرات معًا، وتشكّل روابط في تفاعلات كيميائية، لنفهم أنواع الخصائص -الميكانيكية والكهربية والمغناطيسية- التي تتميز بها المواد الناتجة عن ذلك.

وثمة جانب مهم بوجه خاص لهذا الموضوع، ألا وهو سلوك أشباه الموصلات، وهي المواد شبه السليكونية عماد الصناعة الإلكترونية الحديثة. ويشير الاسم إلى أنها ليست موصلات

حقيقية (مثل النحاس) ولا هي مواد عازلة (مثل المطاط)، لكنها شيء بين الشينين. ويتضح أن هذه الخاصية سمحت لنا بممارسة سيطرة كاملة على التيارات الكهربائية. وأدت هذه الحقيقة إلى استحداث الترانزستور ثم أخيراً الحواسيب وكل الاقتصاد الرقمي الحديث القائم على المعلومات.

في عالم الكوانتم لا نستطيع قياس شيء دون تغييره

مع ميكانيكا الكوانتم ندخل عالمًا غريبًا تميزت به فيزياء القرن العشرين، إذ لأول مرة في التاريخ نلتقي ظواهر لا تتطابق مع النموذج الإرشادي المؤلف الذي قال به نيوتن. وهذا إذن المكان الرائع للحديث عن التغييرات: كيف تحدث في العلوم كاملة النضج المستقرة؟ ليس علينا، كمثال، أن ننحي جانبًا ميكانيكا نيوتن لأنها لا تنطبق على ما يجري داخل الذرة، بل علينا بدلًا من ذلك أن نعترف بأننا إذا طبقنا قوانين الكوانتم على كرات البيسبول وسفن الفضاء فإن القوانين الجديدة غير المؤلف تخرزل إلى القوانين الجديدة المؤلف. معنى هذا أن القوانين كاملة النضج تنمو بالتراكم، شأن حلقات جذع الشجر، إذ تضيف أفكارًا جديدة من دون إبدالها بالقديمة. لم يعد العلم يتغير عن طريق إحلال علم بآخر -أي الإبدال، وهذا درس مهم في الفلسفة

بعد أن فرغنا من هذا أود أيضًا أن أقول إن ميكانيكا الكوانتم والنسبية (انظر ما يلي) وإن كانتا مذهلتين فكريًا، فإنهما مجالان يتعاملان مع ميادين بحث بعيدة عن الخبرة اليومية، لذلك فإن الاحتمال الأكبر ألا يصادفهما الناس في حياتهم عند أداء دورهم كمواطنين. لهذا يجب أن نفكر في هذه الموضوعات باعتبارها مثالًا للعلم من حيث هو ثقافة، مثل مناقشتنا في الفصل الرابع. وحثنا هنا أن هذه المجالات ينبغي أن تكون جزءًا من الرصيد التقني للمرء تمامًا مثل التاريخ الأوروبي في العصر الوسيط.

قوانين الطبيعة واحدة في جميع الأطر المرجعية

وتعرف هذه بمبدأ النسبية، وتمثل الأساس لنظريات أينشتاين الشهيرة. وظواهر النسبية، مثيرة للدهشة: الساعات المتحركة في المكان تبطئ، ولا شيء يتحرك أسرع من سرعة الضوء وكل ذلك. لكن النسبية، مثلها مثل ميكانيكا الكوانتم، تعالج أمورًا بعيدة تمامًا عن الخبرة $E = mc^2$ اليومية.

نواة الذرة تحتوي على طاقة كبيرة

...النواة مؤلفة من جسيمات مصنوعة من كواركات

تدخل نواة الذرة نطاق المعارف الأولية العلمية من مجالات عديدة. إنها موجودة في الطاقة النووية (الانشطار والالتحام على السواء) والنشاط الإشعاعي، واستخدام العناصر الاستشفافية في الطب. والتخلص من النفايات النووية، وهذا قليل من radioactive tracers للنشاط الإشعاعي كثير. ويحتاج الناس لفهم مناقشة تدور عن هذه القضايا إلى معرفة أمور أساسية عن كيفية تجمع الذرات معًا، وكيفية استخراج الطاقة الكامنة فيها. وبمجرد أن نفرغ من هذا المستوى نزولاً إلى الجسيمات الأولية والكواركات والأوتار التي ناقشناها فيما سبق ندخل ثانية في نطاق يجد فيه الناس اهتماماً كبيراً، لكن نطاق تطبيقاته الراهنة في العالم اليومي قليلة.

النجوم تحيا وتموت مثل كل شيء آخر

بدأ الكون وهو في حالة حرارة وكثافة منذ نحو 14 مليار سنة، وهو في توسع مطرد.

تدخل هذه الأفكار في ميادين بحث يسميها علماء الفلك ديناميكا المجرات والكوزمولوجيا (مبحث نوايس الكون)، وتبحث هذه على التوالي في مكان الشمس (ومن ثم الأرض) في الكون. وهذه الموضوعات، مثلها مثل النسبية وميكانيكا الكوانتم، تحظى باهتمام قليل في الحياة اليومية، لكن يمكن تصورها على أنها موضوعات جوهرية للبنية الثقافية لكل شخص متعلم. ونحن نعيش في مجتمع نطالع فيه كمًا كبيراً من روايات الخيال العلمي (الجيد منها والرديء)، حيث ينفق المجتمع بشكل منتظم عشرات المليارات من الدولارات كل عام من أجل كشف واحد في الفضاء، لذلك نقول إنها تزودنا بقدر من الخلفية الأساسية من المعارف عند مناقشة الميزانية. كذلك، وفي الاتجاه نفسه، فإن مناقشة ما عن حياة وأعمار النجوم يمكن أن تدخل بنا والثقوب السوداء (وهي موضوعات على قدر [Supernovae\(*****\)](#) إلى مجال المتجددات العظمى. كبير من الأهمية).

نجم متفجر فانق التوهج تنطلق مع تفجره كمية كبيرة من الطاقة. [المترجم] [*****](#)

سطح الأرض في تغير دائم

جاء ميلاد نظرية الصفائح التكتونية (صفائح أو ألواح عناصر القشرة الأرضية) وصورة عمل الأرض لدينا الآن في ستينيات القرن العشرين. وهذه النظرية من أفضل الأمثلة التي توضح لنا كيف أن المعلومات الجديدة قوة دافعة لتغير العلم، إذ إنه في خلال بضع سنوات تخلى كل المجتمع العلمي المعني بعلم الأرض عن الأفكار الثابتة القديمة وانتقل إلى الصورة الدينامية الجديدة عن كوكب الأرض. ونجد في هذه الصورة أن سطح الأرض مؤلف من بلاطات أو ألواح

بسمك ما بين 30 و 50 ميلاً، نسميها صفائح. وتتحرك هذه الصفائح في استجابة لسريان الحرارة (الغليان) في الباطن العميق. ونتيجة لذلك، فإن الصفيحة الممثلة لأمريكا الشمالية والممتدة من منتصف الأطلسي وحتى كاليفورنيا تتحرك مبتعدة عن أوروبا بمعدل عدة بوصات كل سنة. ولذلك فإن خصائص سطح الأرض في حالة تغير دائم، ولا يوجد شيء أبدي

وبعد أن أكدنا أن لا دوام لأي شيء ابتداء من الجبال وحتى المحيطات (وهذا مفهوم مثير للدهشة لدى أغلبية الناس)، يمكن لنا أن نتخذ من هذه المناقشة نقطة انطلاق إلى بقية أجرام المجموعة الشمسية (إذ لماذا تكون الأرض مختلفة؟) والكواكب الموجودة خارجها (أي شيء آخر هناك؟). وهذان مثالان ممتازان للدلالة على ظاهرة تثبيت الأمور في نطاق الإطار العام الذي حددته الأفكار الكبرى

وأذكر -كمسألة جانبية- أن فهم حقيقة أن الأرض في تغير مستمر يساعد الطلاب على تجنب اتجاه من أسوأ الاتجاهات التي أراها دائماً عند مناقشة أمور البيئة. وأسمي هذا الاتجاه «زيف اللقطة أو الصورة الواحدة». وتقضي هذه الفكرة بأن كل مظهر من مظاهر الأرض كان على حاله دائماً منذ أن أدركه الإنسان الأول، وبأن أي تغير يمثل نوعاً من الكارثة

الأرض تعمل في دورات

أحب أن أتخيل الأرض في صورة ماكينة عملاقة لها جميع أنواع العجلات والطاقة التي تسري داخلها. العجلات هي الدورات العظمى فوق سطح الأرض. ودورة الصخر، التي تعمل على مدى مئات الملايين من السنين مع خروج صخر منصهر جديد إلى السطح، تتعرض للعوامل الطبيعية لتنتج صخوراً رسوبية، ثم تعود ثانية إلى ما تحت القشرة الأرضية. وتعمل الدورة الهيدروليكية على مدى عقود وقرون مع بخر الماء، وتتحول إلى كتل أو جبال جليدية أو تتفكك وتدوب لتفيض في تيارات المحيطات الكبرى. وتمثل العجلة الثالثة دورة الغلاف الجوي، وتعمل على مدى أسابيع أو أشهر، وتتسبب في التغيرات اليومية للطقس. وتعمل هذه الدورات معاً في تزامن، وتؤثر كل منها في أعمال الدورات الأخرى. وفي أثناء هذا كله تتواصل الطاقة الوافدة إلى الأرض في صورة ضوء الشمس لتزود بالطاقة المنظومات الحية وتتوزع في اتجاه القطبين من خط الاستواء، عن طريق كل من المحيطات والغلاف الجوي

يصبح الطالب، بفضل هذه الخلفية، مهياً للنظر في مشكلات البيئة -من مثل المطر الحمضي وثقب الأوزون- وهي مشكلات تصادف الناس كثيراً في حياتهم وتتطلب حلاً. هذا علاوة على

مسائل أخرى مثل الاحترار الكوكبي الذي يدور بشأنه حوار ساخن

الكيمياء عماد الحياة

سلوك الجزيئات في المنظومات الحية رهن شكلها

تمثل العبارة الأولى واحدة من أعظم إنجازات العلم في القرن الـ19. ونحن نفهم الآن أن السبب الرئيسي في اختلاف البشر عن غيرهم من الكائنات العضوية الحية هو أن خلايانا تُجري ردود أفعال كيميائية مغايرة عن ردود أفعال الكائنات الأخرى. وتركز البيولوجيا الحديثة جهودها على دراسة الحياة على المستوى الجزيئي. وهذه حقيقة ربما تجعل الموضوع صعباً على طلاب كثيرين. لذلك وجدت من المفيد أن أقدم التصنيف اللينيني(*****) المعيارى للحياة على الأرض قبل أن تستغرقنا الميكانيزمات الجزيئية التي تجعلها تعمل

نسبة إلى كارلوس لينين (1778-1807) السويد، ويرجع إليه التصنيف البيولوجي الحديث الذي قسم الأنواع وفق (*****) السمات الفيزيكية المشتركة. [المترجم]

ولا نكاد نكون عند المستوى الجزيئي حتى نرى أن الفكرة الأساسية المفتاح هي أن الذرات، وليست الجزيئات، هي التي تشكل الروابط الكيميائية. وتقودنا هذه الحقيقة طبيعياً إلى فكرة أن الجزيئات يتعين أن تتشكل، ومن ثم فإن الذرات ذات الصلة يمكن أن يقترب بعضها من بعض بفعل التفاعلات الجزيئية المختلفة. وهذا لا يمثل مفهوماً صعباً على إدراك الطلاب، خصوصاً إذا طلبنا منهم أن يفكروا في المواقع النشطة وتصورها في صورة مناظرة لنسيج التثبيت فليكرو(*****). وبعد أن نفرغ من هذه الفكرة يمكن عرض فكرة أن الأنزيمات تسهل التفاعلات، وأن هذه بدورها تفضي إلى فكرة أن البروتينات هي التي تعمل كقوى العمل الكيميائية في المنظومات الحية.

اسم علامة تجارية لنسيج للتثبيت من طبقتين، وحين نضغط قطعتين من النسيج معاً تلتصقان معاً بقوة. Velcro (*****) [المترجم]

DNA كيمياء الحياة مسجلة في شفرة داخل الدنا

لكن دخولهم إلى موضوع البناء اللولبي المزدوج، DNA سمع جميع الطلاب عن الدنا (إنتاج نسخ مطابقة) replication المعروف سيعرضهم لمشكلات قليلة. إن عمليتي النسخ توضحان فكرة أن شكل (النقل من صفائح الشفرة الوراثية) gene transcription والانتساخ الجيني الجزيئات (القواعد في هذه الحالة) هو الذي يحدد كيف تجري هذه العمليات

ووجدت أن من الأفضل أن أستهل بفكرة بسيطة، وهي أن جينة واحدة -جزءًا من الدنا- تحمل الشفرة لإنتاج بروتين واحد، يسبب بدوره رد فعل واحدًا داخل الخلية. وبمجرد استيعاب هذه الفكرة يكون يسيرًا نسبيًا أن نضيف كل ما يجعل الخلايا المعقدة مثل خلايانا مختلفة عن خلايا البكتيريا البسيطة. وهنا أيضًا المكان المناسب للحديث عن وجود ميكانيزمات داخل الخلية، من شأنها أن تنشط أو توقف الجينات، وأن عملية نمو الكائن العضوي الحي تشتمل على خلايا توقف فعل الجينات في اتجاه التخصص. مثال ذلك أن كل خلية في جسدك بها جينة للأسولين، ولكن يوقف نشاطها في جميع الخلايا باستثناء عدد قليل في البنكرياس، ويزودنا هذا المفهوم cloning بدوره بمدخل جيد إلى القضايا الساخنة الخاصة بالخلايا الجذعية والاستنساخ.

تشارك جميع الكائنات الحية في شفرة جينية واحدة

هذه واحدة من أقوى الحجج المؤكدة للتطور. لكنها -علاوة على هذا- تمثل حقيقة بسيطة وتزودنا بقاعدة علمية تفيد في الهندسة الوراثية. وأعتقد أن هذه العبارة تعبر أيضًا عن حقيقة مهمة عن المنظومات الحية الموجودة على سطح كوكبنا، إذ إنها تشتمل على المعلومات التي توضح كيف أصبحت على ما هي عليه، وإلى أين ستؤول حالها مستقبلاً.

إن ما أذهلني عند استماعي للحوارات الدائرة عن البيئة هو قلة الاهتمام بالفكرة القائلة: إنه وبسبب النشاط البشري ربما يختلف التكوين الجيني للنباتات والحيوانات في المستقبل القريب. وسيكون اختلافًا كبيرًا عما هو الآن. مثال ذلك أن علماء البيولوجيا يتحدثون عن استجابات النباتات إزاء ارتفاع نسبة ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي، ويقولون إن هذا أدى إلى أن بعض النباتات قللت من امتصاصها للكربون عندما توافرت منه كميات كبيرة، وجوهر الأمر أنها أصبحت «كسولة». قد يصدق هذا على النباتات التي تطورت طبيعيًا، لكن من السهل أن نتخيل أشجارًا مهندسة لا تنشط فيها جينة أو جينات «الكسل». وإن مثل هذا التطور قد يكون اتجاهًا عكسيًا للممارسات الزراعية التقليدية التي تم فيها استزراع النباتات لتكون ذات فاعلية نشطة تستخدم قليلًا من الكربون قدر الإمكان. لكن مثل هذه النباتات الجائعة للكربون يمكن بسهولة استزراعها لتكون وسيلة لسحب ثاني أكسيد الكربون من الهواء. هذه الإمكانيات ما هي إلا مثال واحد لنوع تأثير الهندسة الوراثية في مستقبلنا.

ولنتأمل هذه الطريقة. منذ عشرة آلاف سنة، قرر أسلافنا ألا يفتعوا بما تجود به الطبيعة بحرية كطعام لهم. ومن ثم شرعوا في ممارسة الزراعة ليحرروا أنفسهم من مشقة القنص

وجمع الثمار. ونحن اليوم، وبطريقة مماثلة، نقترّب من النقطة التي لن نقتنع فيها بما تجود به الطبيعة علينا بالمادة الوراثية، إذ أصبح في مقدورنا تعديلها لكي تناسب احتياجاتنا

وطبيعي أن هذا الأسلوب في التفكير يثير قضايا أخلاقية ودينية وشرعية هائلة، ما يجعله موضوعاً مثاليّاً لكي ننتقل في اتجاه ختام المعارف الأولية العلمية

الحياة تطورت عن طريق الانتخاب الطبيعي

هذه واحدة من الأفكار التي تؤلف فرعاً كاملاً للعلم وتجمع في وحدة واحدة مفاهيم متباينة. ومن الأهمية بمكان أن نفهم أن هناك واقعياً خطوتين في العملية التطورية، وأن النظرية الداروينية الكلاسيكية تعالج واحدة منهما فقط.

الخطوتان هما: (1) التطور الكيميائي (حيث المواد غير العضوية في الزمن الأول للأرض أدت إلى ظهور الخلية الحية الأولى)؛ (2) التطور عن طريق الانتخاب الطبيعي (حيث أنتجت هذه الخلية وسلالاتها ملايين الأنواع التي نراها حولنا). إن آخر هذين المجالين هما موضوع دراسة مجال علمي كامل النضج، وله نظرياته التي تدعمها معلومات ضخمة من الحفريات ومن غيرها. لكن الأول لا يزال مجالاً جديداً حظي بتمويل جاد للبحث العلمي خلال العقد الأخير فقط، أو حول ذلك التاريخ تقريباً. وأعتقد أيضاً أنه واحد من أكثر ميادين البحث أهمية وإحاحاً الآن قياساً إلى جميع أفرع العلوم.

دارت سجلات كثيرة بسبب نظرية التطور. فنجد على سبيل المثال الصراع الواضح في صورة معارك قانونية تقليدية امتد إلى مقررات التدريس في المدارس. ونرى أيضاً على المستوى العلماني كيف أن العلماء شرعوا في تفسير السلوك البشري الحديث في ضوء ماضيها التطوري. وأدى هذا إلى ظهور مجالات بحث جديدة من مثل علم النفس التطوري، بل والاستشارات الخاصة بالزواج من منظور تطوري. وأرى أن بعضاً من هذه الصيغ ذات الشعبية المعبرة عن هذا الاتجاه إنما تمثل نوعاً من ممارسة بناء قصص على طريقة «مجاراة التيار». بيد أنني أعتقد أنها في جوهرها تقودنا إلى رؤية جديدة لمعنى أن يكون المرء إنساناً.

الأفضل عدو الجيد

أود أن أؤكد أن من اكتسبوا معرفة بهذه الأفكار الكبرى قد تزودوا بالفعل، وعلى نحو محدد، بنوع الأساس التعليمي الذي ناقشته في مستهل هذا الفصل، ومن نعتبرهم، وفق التعريف

المحدد، مثقفين علمياً، أي توافرت لديهم المعارف الأولية العلمية. ويملك هؤلاء بذلك الإطار الفكري الذي يسمح لهم بفهم العلم الأساسي الذي يشكل قاعدة لأي قضايا مثارة. لكن ليس معنى هذا أن ستكون لديهم القدرة على التفكير في هذه القضايا بالأسلوب النقدي والكمي نفسه الذي يفكر به العالم. وطبيعي أن يثير هذا سؤالاً مهماً: هل الأساس الذي وصفته بحالته هذه كافٍ حقيقة؟

يثار هذا السؤال على نحو شبه دائم عادة عندما يكون موضوع إصلاح المقرر التعليمي مطروحاً للمناقشة على طاولة البحث، ويجري الحوار عادة في سياق المناهج مقابل المحتوى، والذي عرضنا معالمه في الفصل العاشر. ويبدو، كما هو واضح من النقاش، أن هناك انحيازاً قوياً خصوصاً بين العلماء الأكاديميين، أن المهم حقيقة هو العلم في صورته الأكثر تقدماً، وأن عرض أي شيء آخر، مهما كان قدره، هو أشبه بتقديمنا تعليماً مخففاً أو مانعاً للطلاب. وشخصت هذا الموقف بصورة ساخرة متعمدة وقلت: «هذه مدرسة فكرية تؤمن بأنه يتعين على كل امرئ أن يحصل على درجة الدكتوراه في كل شيء». والآن وقد عرضت لما أظنه الأساس السليم لتعليم العلم، أود العودة إلى هذه المسألة لحظة سريعة.

إن الهدف من تحويل كل مواطن إلى نسخة مصغرة لعالم ليس في ظني أمراً غير عملي تماماً فقط، بل عديم الجدوى أيضاً ولا معنى له. وكما قلت في الفصل الثالث إن أحد «الأسرار» الصغيرة البغيضة في المجتمع العلمي أن العلماء المشتغلين بالبحث العلمي غالباً ما يكونون هم أنفسهم أميين في مجالات علمية خارج نطاق تخصصهم المميز. لذلك فإن تدريب شخص ما على التفكير، مثل عالم فيزيائي، لا يفيد كثيراً حين يكون هذا الشخص مضطراً إلى معالجة قضية تتضمن البيولوجيا الجزيئية. ونقول هنا إنه في حدود ما يلزم للمشاركة في الحياة العامة فإن اتساع نطاق المعرفة ينتصر على العمق وحده.

علاوة على هذا، وكما أوضحت في الفصل الأخير، فإن طبيعة العلم ذاته في تغير مستمر، وقضايا المستقبل سوف تشتمل غالباً على أنواع من الممارسات الحاسوبية الكثيفة التي حددنا طرفاً منها عند حديثنا عن الاحترار الكوكبي. إن عددًا قليلاً فقط من الإخصائيين هم من ستتوافر لديهم القدرة على الغوص في كل اتجاه داخل شفرات الحاسوب وعلى تحديد أمور مثل الدقة والصواب. معنى هذا أن البقية منا -ويتضمن هذا أغلبية العلماء- سيكون لهم دور مختلف جداً عن الدور الذي تصوره من يتوقعون من الناس أن يصوغوا آراءهم بشأن القضايا العلمية.

وأعتقد أن الفكرة القائلة بأن من الضروري أن تكون لديهم القدرة على عمل ذلك إنما هي امتداد لفكرة جون ديوي عن عادة العقل العلمية التي نوقشت في الفصل الثامن، وهي غير ملائمة تمامًا للقرن الواحد والعشرين.

دور المعامل والاكتشافات

إن أحد مظاهر محاولة تحويل الطلاب إلى علماء تمثلها الفكرة القائلة بأن على الطلاب، بمعنى من المعاني، أن يحاكيوا عملية الاكتشاف العلمي خلال تجربتهم التعليمية. وتسود هنا عناوين من مثل التعليم على أساس الاكتشاف، أو التعليم القائم على البحث والاستعلام. وتعتمد هذه الفلسفة بكل ثقلها على المعمل والعمل الميداني لإعداد الطلاب للعلم.

وليسمح لي القارئ قبل أن أستطرد بأن أقدم تعليقيين: الأول، أدرك جيدًا أن التعليم، شأنه شأن أي مجال آخر، يخضع للبدع والمستحدثات. إنني، وأنا طالب جامعي قبل التخرج، حسبت العمر النصفى للمستحدثات في مجالي الخاص بفيزياء الجسيمات ووجدت أنه نحو سنتين. إن من طبيعة المستحدثات أن تتولد عنها قوة ضاغطة ولكن مع مستويات عابرة من الحماس، وندارًا ما ينبنى هذا الحماس على قاعدة من المعلومات السليمة. وأعتقد أن بمقدوري أن أتبنى عناصر معينة من النزوع إلى المستحدثات أو البدع تتجلى في حالة الإثارة الراهنة بشأن التعلم القائم على البحث والاستطلاع.

ثانيًا، إنني مطمئن تمامًا للفكرة التي تفيد بأن هذا الطراز من التعليم جيد ومثمر ويتجاوب مع اهتمامات وفضول شباب الطلاب في فترة من أعمارهم. وأشك، على سبيل المثال، في أن هذا أسلوب جيد جدًا لجعل طلاب المدارس الابتدائية والوسطى مهتمين بالعلم. لكن في المستوى الجامعي، الذي قضيت فيه أطول فترة من عمري، سيكون على الأرجح أشبه بعبارة لا إرادية أو مسلم بها من مثل قولنا «يجب على كل طالب أن يدرس فصلين دراسيين في علم معلمي»، أينما نوقشت شروط الالتحاق في الميدان العلمي.

وإذا كان هدف التعليم الجامعي هو تخريج طلاب مثقفين علميًا، فإنني أؤكد أن تجربة المعمل هي -واقعيًا- شيء من الكماليات غير الضرورية وردة إلى عصر أسبق وأبسط. ويبدو لي أن الثقافة العلمية أو المعارف الأولية العلمية يمكن بسهولة شديدة تعلمها في صيغة قاعات المحاضرات من دون حاجة إلى الاستعانة بالمعامل على الإطلاق. بل أكاد أمضي إلى أبعد من

ذلك، وأؤكد أن قاعات الدرس المعملية على مستوى الجامعة لم تغد كثيرًا غير المشتغلين بالعلم، بل ربما أضرت. وأتمنى أن أجد من يثبت خطأ رأيي هذا. بيد أنني حينما أحفز الناس على تبرير شرط المعمل التقليدي في دراسة العلم فإن الإجابة المشتركة غالبًا ما تكون على غرار «هكذا فعلنا» (إجابة أخرى شائعة تثير قدرًا من الإحباط ولكن ربما تكون أكثر صدقًا، وهي أن كل أقسام المعامل تلك تنتج طلابًا خريجين بحاجة ماسة إلى دعم).

وأحسب أن شكى في موضوع المعامل بدأ وقتما كنت لا أزال شابًا أعمل أستاذًا مساعدًا بجامعة فرجينيا. كنت أدرس مقررات دراسية للخريجين آنذاك، ولذلك لم يكن الطلاب ممن هم قبل سني التخرج يرونني. واعتدت بين الحين والآخر أن أذهب إلى قاعات المعامل حيث يظن الطلاب، إذا ما وقعت أبصارهم عليّ، أنني من المسؤولين عن الصيانة (إذ إنني لم أكن أرتدي معطفًا وربطة عنق في أثناء العمل شأن كثيرين من الفيزيائيين). إن ما وصل إلى سمعي عن غير قصد خلال هذه الزيارات المفاجئة أثار قلقًا عميقًا في نفسي. ذلك لأنني وجدت ثلث الطلاب بالتمام والكمال يسيرون في اتجاه عكسي في عملهم من الإجابات «الصحيحة» إلى المدخلات ليسجلوها في سجلات بياناتهم. معنى هذا أن ما كان يتعلمه هؤلاء الطلاب ليس هو المنهج العلمي، بل أكاد أقول «هو ضد العلم». ويذهب بي الظن إلى أن استجاباتهم كانت استجابة رشيدة إزاء موقف يعرفون فيه أنهم سيحصلون على درجات التقدير على أساس هل النتائج تضاهي الإجابات «الصحيحة». ومع هذا أظن أن قدرًا كبيرًا من الشك يساورهم الآن، وقد أصبحوا كبارًا، في كل ما يسمعونه من المجتمع العلمي. وهذا ليس حصادًا طيبًا.

وأدرك تمامًا أن من الممكن جدًا ألا تكون جميع معامل الجامعات على هذا النحو في عملها (هذا على الرغم من أنني أتحدى كبار أعضاء هيئات التدريس، وعلى الأقل من لا يشعرون بالصدمة أن يفعلوا ما فعلته أنا في مؤسساتهم). بيد أنني أو من -على الرغم من ذلك- بأن ثمة عوامل خاصة بهيكل الجامعات مناهضة للمعامل -حتى تلك المعامل جيدة التصميم- التي تمثل إسهامًا قيمًا لمصلحة الثقافة العلمية.

السبب الأول الذي يدعم هذا الرأي يتضمن مشكلة لوجستية خالصة، مشكلة إمدادات وتمويل تتمثل في نقل مئات الطلاب إلى أقسام المعامل كل أسبوع. وهناك طريقتان لعمل ذلك: (1) أن تكون لدينا تجارب بسيطة زهيدة، أو (2) أن تعمل محاكاة حاسوبية للتجارب. وأعتقد أن أيًا من الخيارين ليس مفيدًا كثيرًا.

كذلك فإن شرط الاحتفاظ بمعدات المعمل في حالة عمل طوال الدورة الدراسية من شأنه أن يفرض قيوداً قاسية على أنواع التجارب التي يمكن إجراؤها، إذ القاعدة العامة أنه كلما كانت التجارب أكثر تعقداً وواقعية أصبح من المرجح جداً أن تتعطل المعدات وتثير حالة من الإحباط لدى كل من الطلاب والمعلمين. إن السبيل الوحيد للالتفاف على هذا الوضع، من دون تحمل تكاليف وظيفية ثقيلة، أن نستخدم التجارب التي تحتاج إلى تجهيزات بسيطة لبراهين سهلة. وهذا يعني بدوره أن تكون التجارب على شاكلة «دحرجة الكرة فوق سطح مائل». وسبق أن أكدت في فصل سابق أن هذا النوع من التجربة التعليمية لن يفيد شيئاً في إعداد الطلاب لمعالجة مسائل عامة معقدة سيواجهونها في المستقبل.

والخيار الثاني -وهو إجراء التجارب على طريقة المحاكاة الحاسوبية- غير كافٍ أيضاً، على الأقل في صورته التي شاهدها و عملت عليها. مثال ذلك أنه بدلاً من تشريح الضفدع ينظر الطلاب إلى شاشة حاسوب. كذلك عليهم مراقبة كرة فوق شاشة وقراءة الأرقام المعروضة بدلاً من أن يتصدوا هم لتحديد أوقات هبوط كرة ساقطة من أعلى.

وميزة هذه المحاكاة أنها لا تستلزم تجهيزات معقدة. لكن علينا أن نفكر ولو لحظة فيما يتعلمه الطالب. إنهم لا يتعلمون أن عالم الواقع موجود هناك في الخارج لكي يقيسوه ويلاحظوه، بل يظهر العالم بدلاً من ذلك بطريقة سحرية على الشاشة، كأن الأمر أشبه بلعبة فيديو (فاترة). وخط الأساس هنا أن على الطالب أن يصدق ما يقوله الحاسوب. وأنا لا أستطيع أن أتخيل نوعاً من المعارف الأساسية أسوأ من ذلك نعطيها للطلاب الذين سيضطرون مستقبلاً إلى التعامل مع قضايا من مثل الحكم على مصداقية نماذج الحاسوب.

والخلاصة عندي هي أن المعامل البسيطة، بما في ذلك عمليات المحاكاة الحاسوبية، لا تعد الطلاب للعالم الذي سيواجهونه بعد ترك المدرسة. ومن ثم فإن المعامل الأكثر واقعية، وبالتالي الأكثر تعقيداً، لن تفيد على الأرجح في سياق المقررات الدراسية التمهيديّة الكبرى للعلم. وأود أن أؤكد ختاماً أن الوقت والمال اللذين نضيعهما من أجل تجهيز معامل غير ذات أهمية سيكون من الأفضل لنا أن ننفقهما لاكتشاف سبل أخرى لزيادة الثقافة العلمية لدى الطلاب، مثال ذلك عن طريق تدريب هيئات التدريس على تدريس مقررات متكاملة للثقافة العلمية ومعرفة الأوليات الأساسية للعلم.

الخطوة التالية

سبق أن ناقشت في الفصل السادس بيانات جون ميلر. ونحن في ضوء هذه البيانات نحرز تقدماً من حيث إعطاء الطلاب الأساس القاعدي للمعارف الأولية العلمية التي سيحتاجون إليها لتأدية دورهم بصفتهم مواطنين. ونجد اليوم قرابة 28 في المائة من الأمريكيين اكتسبوا المعايير (الأساسية) للمعارف الأولية العلمية.

وهذه إحصائية مشجعة وتستحثنا على التحدي، إنها مشجعة لأن أعداداً متزايدة باطراد من الأمريكيين يكتسبون الحد الأدنى من أساسيات المعرفة بالعلم. وتستحثنا للتحدي، لأن هذا يعني أنه لا يزال هناك عدد كبير من السكان مهياً لاتخاذ الخطوة التالية، ولكي يتجاوز المعارف الأولية العلمية البسيطة، أي عملياً للشروع في بناء البنية الفوقية للبيت فوق الأساس الذي وُضعت قواعده. وهذا بدوره يقودنا إلى سؤال مثير للفضول: ماذا عساها أن تكون تلك الخطوة الثانية؟

قبل أن أتحوّل إلى هذا السؤال يتعين تأكيد أن حقيقة أن نحو ربع الأمريكيين يمكن وصفهم بأنهم مثقفون علمياً إذا توافرت لديهم المعارف الأولية العلمية، بل تعني أن ثلاثة أرباعهم لم يحققوا ذلك حتى الآن. ونحن لا يمكن أن ننسى ضرورة أن يظل تأكيدنا الرئيسي بشأن إصلاح التعليم منصباً في الأساس على المعارف الأساسية العلمية. وهذه نقطة مهمة لأن هناك دائماً غواية قوية تغوي المعلمين لتركيز انتباههم على أفضل طلابهم، وهم في هذه الحالة من تهيأوا للخطوة الثانية، ويغفلون أنهم خلفوا وراءهم الأغلبية العظمى منهم. ومن ثم تتعين مقاومة هذه الغواية.

ويجب علينا أيضاً أن نمسك بزمام حماستنا ونحن نعالج هذه المسألة. مثال ذلك أن معرفة المرء للفارق بين الذرة والجزء لا تعني أنه مهياً لقراءة «العلم» أو «الطبيعة» (أو للسبب نفسه أن يقرأ مجلة ساينتفك أمريكان). أو لنقل بعبارة أخرى: إن الالتزام بمعايير جون ميلر بشأن المعارف العلمية الأولية ليس من شأنه أن يحول الشخص تلقائياً إلى مرشح لشغل منصب في مجال العلم، ولا حتى إلى شخص توافرت لديه عادة العقل العلمية. ويجب علينا أن نقر بالحقيقة التالية، وهي أننا لا نستطيع أن نحول كل إنسان عالماً، وأن أي محاولة لذلك مآلها الإخفاق يقيناً.

لذلك نسأل: ما الهدف الواقعي للخطوة الثانية؟ ربما نستطيع أن نقدم إلماعة لما يمكن أن يكون عن طريق التفكير في فريقين اعتادا معالجة قضايا معقدة في مجال العلم: العلماء أنفسهم

وأعضاء المهن القانونية. وكما أوضحت في الفصل الثالث إن تدريب المشتغلين بالعلم ليس فيه أي شيء يعدمهم لمعالجة قضايا خارج مجال تخصصهم. إذن كيف يتسنى لهم تكوين آراء لهم عن قضايا خارج نطاق خبرتهم؟

عندما ناقشت هذه المسألة مع جون ميلر كان له تعليق مهم، إذ قال: «أنت أو أنا حين نريد أن نعرف شيئاً عن مسألة ما نرجع إلى قائمة الشخصيات المرجعية لكي نتحدث ونسأل شخصاً ما متخصصاً في المجال. ولكن المشكلة أن الشخص المتوسط ليست لديه مثل هذه القوائم المرجعية» (*****). وأنا أسمى هذه نظرية رولودكس الذهبية لاكتساب المعلومات

تضم أسماء الشخصيات المرجعية في قضايا كثيرة، وقد حلت محلها الآن Golden Rolodex القائمة المرجعية (*****) شبكات الإنترنت وجوجل وغيرها. [المترجم]

وبعد حديثي هذا مع ميلر شرعت في عمل استطلاع غير رسمي بين زملائي حيثما ذهبت في مختلف أنحاء البلاد. حاولت أن أسألهم كيف اتخذوا قراراتهم بشأن قضايا خارج مجالات تخصصهم. وتاماً مثلما تنبأ ميلر تضمنت إجاباتهم كلها تقريباً الـ«جولدن رولودكس»، أي قائمة الأسماء المرجعية. وأذكر أمثلة من إجاباتهم إذ جاءت على النحو التالي: «أهاتف صديقاً في التخصص المطلوب». و«ألتزم بتوافق الآراء». و«أهاتف شخصاً (يقصد من أنصار الفكرة موضوع السجال) من الجامعة أستطلع رأيه»... وهكذا إلى آخره. ويمكن الرجوع إلى قائمة الأسماء المرجعية (جولدن رولودكس) في حالات النزاع بين الخبراء للوصول إلى حكم بشأن موضوع الخلاف وبيان أيها أرجح صواباً وأيها ينبغي إغفاله.

وأكد أرى قائمة الأسماء المرجعية (الجولدن رولودكس) تعمل نشطة في حياتي، إذ عندما تعرض لي مسألة تتعلق بمشكلة ما (وليكن الاحترار الكوكبي، فهو مثال جيد) فلا أحاول الجلوس إلى الحاسوب وأسجل شفرة حاسوبية لعمل نموذج محاكاة لمستقبل مناخ الأرض، ليس عندي لا الوقت ولا الخبرة لعمل شيء كهذا، بل بدلاً من ذلك أهاتف أصدقائي في الجامعات المختلفة داخل البلد، وأستمر في هذا النقاش الشخصي مع الخبراء إحساساً وفهماً لما هو معروف عن المسألة التي أبحث فيها، أو أعرف نقاط الخلاف وكيف يمكن حسمها. ويبدو لي أن عملية الاستطلاع غير الرسمية التي قمت بها تشير إلى أن الأغلبية العظمى من العلماء الآخرين يكوّنون آراءهم بالأسلوب نفسه عن طريق المناقشة مع الزملاء ممن هم على دراية أكثر في مجال بعينه وخاص

بالمسألة موضوع البحث. وأعتقد في النهاية أن أغلبنا يأخذ قراره تأسيسًا على ما يقوله
أصدقاؤنا ممن نثق بهم كثيرًا.

وهذا ليس بالأسلوب السيئ. وواقع الأمر أن القوانين تعمل على هذا النحو في الغالب الأعم
حتى إن كانت تعمل وفقًا لمجموعة من القوانين يغلب عليها الطابع الشكلي، إذ كثيرًا ما يحدث أن
تتوقف خلافات قانونية، ولو في جزء منها، على مسائل علمية: هل هذه المادة الكيميائية تسبب
ذلك المرض المزعوم؟ هل هذا المنتج معيب؟ ويوجد بوضوح في مثل هذه الحالات إجراء محدد
بالشروع لمعرفة رأي ومعلومات الخبراء أمام المحكمة. ويعمد المحامون المسؤولون عن
القضية إلى استدعاء شهود يمكنهم -بحكم ما لديهم من علم أو تدريب- الإدلاء بالرأي باعتبارهم
ذوي أهلية، أي خبراء. وبعد أن يتم هذا كله توجد سوابق مستقرة يعتمد عليها القاضي لفحص
الشهادة ويقرر بعدها تقديم القضية إلى المحلفين أو لا. وغالبًا ما يأتي هذا الحكم نتيجة
لإجراءات دعوى قانونية معقدة. وبعد الانتهاء من هذا الفحص والتدقيق يجري عرض شهادة
الخبير على المحلفين.

وسبق وضع هذه المعايير التي استندت إليها هذه الأحكام للمحاكم الفيدرالية لأول مرة في
العام 1993 في قضية روبرت ضد ميريل داو للمستحضرات الصيدلانية. وكتب القاضي بلاكوم
إلى المحكمة العليا مقررًا أنه من الآن فصاعدًا ستكون مسؤولية القاضي هي الاطمئنان إلى أن
الشهادة المقدمة إلى المحكمة «ليست فقط وثيقة الصلة، بل موثوق بها» (1). وحدد بعد ذلك
سلسلة من المعايير بشأن إصدار مثل هذا الحكم. هل استعرض العمل المعروض في الشهادة
ورُوجع؟ هل هو مقبول بعامة في المجتمع العلمي؟ هل يمكن اختبار الدعاوى؟ ويبدو واضحًا هنا
أن هذه المعايير (علاوة على أخرى تتناول مسائل فنية أكثر) تكاد تضاهي تمامًا ما يفكر فيه
العلماء عند تقييم نظرية أو فكرة جديدة.

ومن الأهمية بمكان أن ندرك أن هذا هو الشائع بالنسبة إلى شهادة الخبراء من الطرفين في
محاكمة لتمرير هذه الاختبارات وعرضها على هيئة المحلفين. والشيء المرجح جدًا في هذه
القضية هو أن هيئة المحلفين سوف تستمع لخبراء ذوي أهلية يدلون بشهاداتهم إزاء «حقائق»
معارضة تمامًا. وهكذا يكون على هيئة المحلفين أن تقرر أي خبير تصدقه. وغالبًا ما تتضمن
هذه الإجراءات معايير غير علمية من مثل تحديد أي الشهادات تبدو أكثر قابلية للتصديق. أو
بعبارة أخرى أن هيئة المحلفين تكون في الوضع نفسه للمواطن المتوسط حين يقرأ عن دعاوى

النزاع العلمية في الصحف. ونكون إزاء ما يبدو أنهم خبراء على قدر متساوٍ من الأهلية يناقضون بعضهم بعضاً، ومن ثم يكون الأمر مناظاً بالقارئ غير الخبير أن يقرر أيهم يصدق شهادته.

وهنا بعض النتائج العامة التي يمكن أن نستخلصها بشأن أسلوب المجتمعات العلمية والقضائية في تناول القضايا ذات المصادقية العلمية:

- 1- الخبراء من أبناء مجال واحد يحتاجون عادة إلى الاعتماد على خبراء في مجالات أخرى.
- 2- جميع الخبراء ليسوا بطبيعتهم سواء، وفي حالات النزاع بين الخبراء فإن واحداً منهم -على الأقل خطأ- عملية تقرير أي من الخبراء أصدقه أنا ربما لا تكون عملية عقلانية تماماً.

ويبدو لي أن الهدف الصحيح من الخطوة الثانية في مجال التعليم العام للعلم ينبغي ألا يكون تحويل جميع المواطنين إلى نسخ مصغرة من العلماء ذوي القدرة على تحليل البيانات وتكوين آراء خاصة بشأن القضايا المهمة. ذلك لأن مثل هذا الهدف يتجاوز في الحقيقة نطاق قدرة العلماء أنفسهم. بل بدلاً من ذلك ينبغي أن يكون الهدف: (1) توفير التدريب اللازم للتمكن من فحص الدعاوى غير القابلة للتصديق، و(2) تزويد المرء بخلفية من المعلومات الأساسية الكافية لاتخاذ قرار مثل القرار بشأن أي الخبراء أثق به.

بعد أن فرغنا من كل هذا علينا أن نقر بأن هذه العملية، مع معرفتنا بالناس وهم على حالهم، لن تفي أبداً باختبارات صارمة للعقلانية والرشاد، إذ سنجد حتماً بعضاً من الناس يؤمنون بخبير بعينه ربما لأنه يرتدي ربطة عنق أنيقة، أو لأن الخبرة ذات ابتسامه أرسقراطية، إن البشر، سواء الآن أو مستقبلاً، لن يكونوا جميعاً عقلانيين، فهذه حقيقة مقررة منذ زمن طويل في المنظومة القضائية. ومن ثم فإن أفضل شيء نعمله هو تزويد المواطنين بالأدوات اللازمة التي يحتاجون إليها لإصدار الحكم بشأن مسائل معقدة، ثم نبعد نحن عن طريقهم ونتركهم يختارون.

ولكن بعض زملائي ينظرون بعدم ارتياح شديد إلى هذه الفكرة، إذ يقولون «إذا كان هؤلاء الناس يعرفون ما أعرفه، فإنهم سيصلون إلى النتائج ذاتها التي وصلت أنت إليها». وأخشى أن أقول: «إن الأمور لا تسير على هذا النحو». توضح خبرتي مثلاً أن أغلبية من يعارضون استخدام الخلايا الجذعية الجنينية يعرفون تمام المعرفة ما معنى خلية جذعية، لكنهم وصلوا إلى

نتيجة مخالفة ومختلفة عن أغلبية العلماء في الموضوع نفسه (بما في ذلك المؤلف). وختامًا أقول إذا أردت الحياة في ظل الديمقراطية فعليك قبول حقيقة واقعة، وهي أنك في وقت ما ستُمنى بالهزيمة حين تصوّت الأغلبية ضدك من دون اعتبار لِكَمّ التعليم الذي حصّلتَه.

كلمة أخيرة

حاولت طوال صفحات الكتاب أن أؤكد أهمية خلق مواطن على حظ من المعارف الأولية العلمية. وسواء، عزيزي القارئ، رأيت أن نهجي الذي عرضته آنفًا هو النهج الصحيح الأولى بالاتباع أو لا، فإن الشيء الذي لا خلاف عليه هو أنه قد أزف الوقت، ما يوجب علينا العمل من أجل هذه المسألة. وختامًا أحسب أن كارل ساجان عبّر عن هذا على نحو أفضل في الاقتباس الذي ختمنا به الفصل الثالث:

«خططنا لحضارة كوكبية تعتمد أكثر عناصرها حسماً على العلم والتكنولوجيا. وخططنا كذلك»
«لأمور بحيث لا أحد يفهم العلم والتكنولوجيا. وهذه وصفا لكارثة».

الهوامش

الفصل الأول

(1) الاقتباس من (1):

J. Trefil, Reading the Mind of God (New York: Charles Scribners & Sons. 1989), p. 18.

(2) K. Boulding, The Image: Knowledge in Life and Society (Ann Arbor: University of Michigan Press, 1956).

حكم جون إي -جونز في قضية كيتز ميلر ضد مجلس مدارس منطقة دوفر (20 ديسمبر (3) 2005):
متاح في الموقع التالي

http://www.pamd.uscourts.gov/Kitzmilller/kizmilller_342.pdf.

الفصل الثالث

(1) C. Sagan, The Demon- Haunted World: Science as a Candle in the Dark (New York: Random House, 1995).

الفصل الرابع

(1) C. P. Snow, Two Cultures and the Scientific Revolution (Cambridge: Cambridge University Press, 1959).

(2) ف. ر. ليفز، الاقتباس من (2):

D. P. Barash, "C. P. Snow: Bridging the Two- Cultures Divide". The Chronicle of Higher Education, 52 (2005), B 10- 11.

(3) س. جونسون، الاقتباس من (3):

J. Boswell. Life of Samuel Johnson (Book 3).

الفصل الخامس

(1) T. Burnet, The Sacred Theory of the Earth, in Which Are Set Forth the Wisdom of God Displayed in the Works of the Creation, Salvation. and Consummation of All Things ... (London: T.

Kinnersley, 1816).

آ. إندجتون، الاقتباس من (2)

A. V. Douglass, The Life of Arthur Stanley Eddington (London: Nelson, 1956).

وعلى الموقع

<http://www.groups.dcs. stand. ac. uk/ ~history/ Biographies/ Eddington.html>.

(3) W. Wordsworth. “The Tables Turned: An Evening Scene On The Same Subject”, The Complete Poetical Works (London: Macmillan, 1888; Bartieby. Com, 1999).

متاح على موقع

<http://www.bartleby.com/ 145/ www137.html>.

(4) W. Whitman, “When I Heard the Learn’d Astronomer”, in Leaves of Grass (Philadelphia: David McKay, 1900; Bartleby.com, 1999).

متاح على موقع

<http://www.bartleby.com/ 142/ 180.html>.

(5) W. Blake, “Milton,” in D. H. S. Nicholson and A. H. E. Lee, (Eds.), The Oxford Book of English Mystical Verse (Oxford: Clarendon Press, 1917; Bartieby.com, 2000).

متاح على موقع

<http://www.bartleby.com/ 236162.html>.

(6) W Gilbert and A. Sullivan, “If You’re Anxious to Shine”, form Patience (New York: G. Shirmer, n. d; original published in 1881).

للحصول على تفسير مع صورة لهذا الرسم، انظر موقع نيودول (7)

<http://www.brushwithwithscience.com/ Spring 2003/ Life Forms 2003.html>.

الفصل السادس

(1) J. Miller. “The measurement of civic scientific literacy”, in Public Understanding of Science, 7, 203-223; and “Civic scientific literacy across the life cycle”.

ورقة بحث مقدمة إلى الاجتماع السنوي للرابطة الأمريكية لتقدم العلم، سان فرانسيسكو،

2007.

(2) J. Miller. “Public understanding of science: Are Europeans better at it?”.

ورقة بحث مقدمة إلى الاجتماع السنوي للرابطة الأمريكية لتقدم العلم، سان فرانسيسكو،

2007.

الفصل السابع

(1) B. Franklin [R. Saunders, pseudo.], “How to secure Houses, & c. from Lightning”, in Poor Richard Improved: Being an Almanack and Ephemeris... for the Tear of our Lord 1753 (Philadelphia: B. Franklin and D. Hall, 1753).

متاح على موقع:

<http://www.franklinpapers.org/franklin/fromedvolumes.jsp?vol=4&page=403a>

الفصل الثامن

(1) H. Spencer, “What Knowledge Is of Most Wert”, in Essays on Education, etc. (London: J. M. Dent and Sons, 1911).

(2) T. Huxley. “Science and Culture”, in Science and Education (New York: P. F. Collier and Son, 1964// 1880).

(3) A. de Tocqueville, Democracy in America (New York: Vintage Books. 1961// 1835).

(4) D. C. Gilman, A Brief History of Jhu [Johns Hopkins University] (1876).

(5) المصدر نفسه.

(6) J. Dewey. “Symposium on the purpose and organization of physics teaching in secondary schools (part 13)”, in School Science and Mathematics, 9 (1909), 291- 292.

(7) المصدر نفسه.

(8) I. C. Davis. “The measurement of scientific attitudes”, in Science Education, 79 (1935), 117-122.

(9) L. Hill, Hearings before the Committee on Labor and Public Welfare, United States Senate: Science and Education for National Defense (Washington, DC: U. S. Government Printing Office, 1958).

(10) M. H. Shamos, The Myth of Scientific Literacy (New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 1995).

(11) J. Zacharias. quoted in J. L. Rudolph, "PSSC in Historical Context: Science, National Security, and American Culture During the Cold War".

ماتاح على موقع

<http://www.compadre.org/portal/pssc/docs/Rudolph.pdf>.

(12) G. Seaborg, quoted in Koret Task Force on K- 12 Education, Our Schools and Our Future... Are We Still at Risk? (Stanford, CA: Hoover Institution Press, 2003).

ماتاح على موقع

http://media.hoover.org/documents/0817939210_3.pdf

الفصل التاسع

(1) S. Rimer, "Harvard Task Force Calls for New Focus on Teaching and Not Just Research", New York Times, May 10, 1007

الفصل العاشر

(1) P. Medawar, Pluto's Republic (New York: Oxford University Press, 1982)

(2) R. March, Physics for Poets (New York: McGraw-Hill, 1996).

الفصل الحادي عشر

(1) اتصال شخصي مع جون سيرل

الفصل الثاني عشر

(1) H. Blackmun, in Daubertv. Merrell Dow Pharmaceuticals, Inc, 509 U. S. 579 (1993), Section II B.

متاح على موقع:

[http://caselaw.lp.findlaw.com/scripts/getcase.pl? court = us? & vol = 509 & invol = 579.](http://caselaw.lp.findlaw.com/scripts/getcase.pl? court = us? & vol = 509 & invol = 579)

المؤلف في سطور

جيمس تريفييل

- * أستاذ الفيزياء بجامعة جورج ماسون *
- * تلقى تعليمه في جامعة إيلينوي *
- * حاز منحة باحث مارشال للدراسة في جامعة أكسفورد بعد تخرجه في جامعة ستانفورد *
- * ألف وشارك في تأليف نحو 40 كتابًا *
- من مؤلفاته: «راموس المعارف الأولية الثقافية»، و«1001 شيء يحتاج كل امرئ إلى معرفتها عن العلم»، و«طبيعة العلم: المرشد من الألف إلى الياء»، و«هل نحن بلا نظير؟»، و«عالم يستكشف العقل البشري».
- * شغل منصب المستشار العلمي في كثير من المؤسسات الإعلامية *
- * معنيًا بتبسيط العلم وجعله عنصرًا أساسيًا في الثقافة العامة كشرط للأداء الديمقراطي الصحيح *
- * يعيش الآن في فرجينيا *

المترجم في سطور

شوقي جلال

- * من مواليد 30 أكتوبر 1931- القاهرة *
- * عضو المجلس الأعلى للثقافة في القاهرة- لجنة الترجمة، منذ 1989م *
- * عضو المجلس الأعلى للمعهد العالي العربي للترجمة، جامعة الدول العربية، الجزائر *
- * عضو المجلس الأعلى للثقافة في القاهرة- لجنة قاموس علم النفس في السبعينيات *
- * حاصل على جائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي- فرع الترجمة 1985 م *
- * له ثلاثة عشر مؤلفًا، من بينها: أركيولوجيا العقل العربي، التراث والتاريخ، الفكر العربي وسوسيولوجيا الفشل، المجتمع المدني وثقافة الإصلاح: رؤية نقدية للفكر العربي، الترجمة في العالم العربي: الواقع والتحدي.
- * له أوراق بحث في ندوات ومؤتمرات ومقالات ثقافية فكرية في الصحف والمجلات العربية *

- له أكثر من 50 كتاباً مترجماً، منها: المسيح يصلب من جديد (رواية، نيكوس كازانتزاس)، *
الثقافات وقيم التقدم (مجموعة من العلماء)، فكرة الثقافة (تأليف تيري إيجلتون)
ترجم لسلسلة «عالم المعرفة» عدداً من الكتب، منها: إفريقيا في عصر التحول الاجتماعي، *
بنية الثورات العلمية، تشكيل العقل الحديث، لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة؟ بعيداً عن اليسار
واليمين، التنمية حرة، جغرافية الفكر، الثقافة والمعرفة البشرية، التنوير الآتي من الشرق
* راجع ترجمة عدد من كتب السلسلة أيضاً *